

رواية

جان ماري جوستاف لكالزيو

سكة من ذهب

ترجمة / خلف عبدالعزيز

دار الهدى للنشر والتوزيع



سمكة من ذهب

Poisson d'or

J.-M. G. Leclézio

Gallimard 1997

الكتاب: سمكة من ذهب

المؤلف: جان ماري جوستاف لكليزيو

ترجمة: خلف عبد العزيز

الناشر: دار الهدى للنشر والتوزيع

رقم الإيداع : ٩٩/١١٥٧٠

الترقيم الدولي : 1- 35 - 977-5822 I.S.B.N.

جميع الحقوق محفوظة للناشر



المنيا - شاهين - 6 ش أحمد عرابي

المنيا - عدنان المالكي - 6 ش 15 - شقة 1

ت 012/3454568 - 086/354576

فاكس 086/346713

سمكة من ذهب

تأليف

جان ماري جوستاف لكليزيو

ترجمة

خلف عبد العزيز

تصديير

لكليزيو وظاهرة التعدد اللغوي والحضاري

كان الروائي الفرنسي الشهير جى دى موباسان *Guy de Maupassant* كثيرا ما يشكو إلى معلمه الروائي العظيم جوستاف فلوبير *Gustave Flaubert* وإلى محيطيه من المبدعين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ضيق الأفق الروائي وتبعيته النصية والموضوعية، وإمكانية محاكاته عبر الأساليب الروائية المختلفة. وربما سكن خلف هذا الاعتقاد الموباساني جدل فرنسي حول حماية النص من برائثن التقليد والمسخ والمحاكاة، والذي صار بمثابة قضية عنيت بها مؤنث جمهور النقاد والمبدعين في فرنسا على مدار القرن التاسع عشر، والذي يعد بحق من أخصب العصور الثقافية الفرنسية نظرا لتوافد وتعاقب شمس الحركات الأدبية والفكرية على الفضاء الأدبي الفرنسي، ونظرا للصلات التي أدارت نوعا من الحوار

الايديولوجى بين الحضارة والفكر الفرنسيين والحضارات الأوروبية المجاورة لفرنسا، مثل إنجلترا التى اوى إليها الكاتب الفرنسى فولتير فى القرن الثامن عشر، والذي نقل عنها إلى الفرنسيين عظمة كتابها والحريات العامة بها ومناهج الفكر فيها، وبين الحضارتين الفرنسية والألمانية من جانب آخر على أيدى أعلام التواصل والتقارب بين الحضارتين أمثال مدام دي ستيل *de Staël Madame*، وأيضا بين الحضارة الفرنسية والحضارات الأوروبية المتاخمة لفرنسا من جانب آخر كإيطاليا التى ظلت ومازالت تتبوأ مقعدا رائعا بين روافد الثقافة الفرنسية فى العصور الحديثة، وأسبانيا التى اتيح لها اقتطاف ثمرات حضارتين متباعدتين، هما الحضارة العربية فى العصور الوسطى والحضارة الغربية التى أسهمت فيها بحصتها عن طريق مخلفات وحصاد حضارة عربية بادت وتقهقرت إلى خلف البحر المتوسط بعدما تجاوزته وبسطة سلطانها الفكرى بفضل مفكرىها وعلمائها فى هذه البلدان. وما من شك أن هذا التلاقى بين هذه الحضارات جميعا تم إنجازه عبر الرحالة. ولقد عملت هذه الطقوس الترحالية على تأسيس مشروع ترحال للأفكار والموضوعات الأدبية بين هذه الحضارات منذ قرون عديدة. وظل هذا التواصل الحضارى يؤتى ثماره حتى نضج وتأصل فى القرن التاسع عشر.

لقد خلق هذا التقارب الحضارى - الذى يظل قضية يعنى بها الأدب المقارن منفردا - أصواتا عديدة فى النص الأدبى عامة والنص الروائى بصفة خاصة. فتمتعت موضوعات إنسانية بشيوع عالى وغدا تصور الأدب

الألماني - على سبيل المثال - لمشكلات العوز والوطنية والإنسانية يناهز ولا يتباعد عن مثيله في الآداب الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والأسبانية كثيراً.

وبالرغم من هذا الترحال الفكري بين هذه الآداب جميعا وعظمة الصلات الفكرية بينها، إلا أن النص الروائي، باعتباره علامة لغوية من الطراز الأول، ظل سجين قفص الحضارة الواحدة، يعاني ندرة تنصيته وفوائده الحضارى الوحدوى الذى لا يتيح له التجول فى فضاء لغوى آخر، ينتزع مفرداته وخصائصه اللغوية المحددة له.

لقد حاول بعض الأدباء العظام فى العصور الحديثة خلق ما يمكن أن نطلق عليه "التعددية اللغوية" فى النص، وتعميق صوت النص، وتعدد مكوناته اللغوية وتوجهاته الفكرية، وهى الدعوة التى استهلها بعض المبدعين الأوربيين مثل الروائى والفيلسوف الفرنسى فولتير فى نزعتة العالمية بقصته، الساذج *Candide*، وتشارلز ديكنز فى رائعته الروائية، قصة مدينتين *A tale of two cities*. بيد أن هذا المشروع التأسيسى وُثِدَ من جراء التطرف الحضارى الذى أدت إليه "الشعبوية القومية" ونمو الشعور المرضى بالعنصرية الثقافية فى الأقطار الأوربية التى مازالت - مع التلاحم الاقتصادى الحديث - تخضع لصوت الأقليات الفكرية بها والتى تعد التعددية اللغوية مشروعا تدميريا لا حضاريا.

حتى أن التناص *Intertextualité* باعتباره مشروعا لغويا

يستهو الكثرين من اللغويين فى العدي من التوجهات اللغوية العالمية، ونهجا التقى فيه اللغويون والمنظرون للأدب، لم يكشف لنا - رغم عمره الذى تجاوز الثلاثة عقود - عن عمق تعدد لغوى بالنصوص الأدبية، فلقد سعى فلاسفة ولغويون كثيرون مثل ميشيل ريفتار *Michel Riffaterre* وبيير ريكاردو *Pierre Ricardou* ومارك انجنو *Marc Angenot* وبيير لورت *Pierre Laurette* ومن قبلهما جوليا كريستفا *Julia Kristeva* إلى تحطيم الفرض القائل بفردية النص وتبعيته المطلقة لمؤلفه وذلك عن طريق التصور بأن لكل نص، نص قبلى أو نص إرجاعى *Intertexte*، يدور فى فلكه النص. ولكن هذا التوجه اللغوى الذى التف حوله حشد من نقاد الأدب وجمع غفير من اللغويين فى أوروبا وأمريكا، وعلى الرغم من دقة أدواته البحثية والنتائج الهائلة التى توصل إليها، ولاسيما فى تشريحه للأدب بصفة عامة وحقل المسرح والرواية بصفة خاصة، فإنه قد توقف عند العثور على الحوار اللغوى والمعنوى بين نصين متباعدين عبر الزمان والمكان.

اليوم، لقد أصبح الحديث عن "الاستنباطية" *déductisme* فى الإبداع أمرا باليا إلى حد ما، فإذا كان فيكتور هوجو *Victor Hugo* قد صور الشرق وطبيعته فى ديوانه الشهير الشرقيات *Les Orientales* دون أن يراه، فإن ذلك التصوير لم يخرج خارج نطاق قفصه اللغوى الفرنسى وأصبح صوت النص، رغم اختلاف فضائه، منفردا، يتوافق ومعايير موجودة قبلا.

ومن بين الأعمال الأدبية التى تمثل ظاهرة التعددية اللغوية أو

تعدد الأصوات اللغوية، رواية سمكة من ذهب *Poisson d'or* للروائي جان مارى جوستاف لكليزيو *J. M. G. Leclézio* الذى ولد عام 1940؛ ولعلها من أفضل الأعمال الأدبية تمثيلا لهذه الظاهرة التى لم تلق حتى اليوم حصتها من الخطاب الأدبى؛ فالرواية - شأنها فى ذلك شأن معظم أعمال لكليزيو - تعد رحلة قصيرة فى الحضارات الإنسانية، فى طقوسها وموروثاتها القومية المتباينة، إذ تتخذ شكلا دائريا من حيث أحداثها، اعتبارا من البادئة التى تمتطى الرواية ومرورا بالحقى اليهودى بالملكة المغربية مضيا بباريس ومدينة نيس الفرنسية ثم بعض الولايات الأمريكية ونهاية بمسقط رأس البطلة، عشيرة الهلال، نلاحظ الصوت التعددى للبطلة "ليلى" التى تنشط رويدا رويدا فتحمل أصواتا متعددة، فهى التى تحدثنا عن العرب المسلمين فى حى الملاح اليهودى بالملكة المغربية، ثم تمضى بنا إلى فرنسا حيث تصف الحياة الباريسية وصفا تفصيليا رائعا، إلى حد أن المطابقة بين الوصف ومدينة باريس لا يقود إلى إظهار فارقا يذكر على الرغم من أن الأحداث تقع فى الستينيات من هذا القرن، ثم تمضى ليلى أبعد من ذلك وترسم حياة الساحل الفرنسية بمدينة نيس، ثم تعبر المحيط إلى العالم الآخر، حيث تمتزج فى هذا العالم وتتفاعل معه؛ وما إن نجدها كذلك حتى تنتقل بنا إلى مدينة نيس ثم تعود إلى المكان التى بدأت رحلتها منه. وهى فى كل هذه المسيرة الروائية، لاتبدو غريبة، دخيلة على الفضاء الذى تحتله، بل نراها صوتا معبرا ينقل إلينا معطيات حضارة أخرى بأدق مفرداتها.

إن ليلى، العربية، الفرنسية، الأمريكية، ليست سوى إحدى أدوات لكليزيو الروائية التي يمسك بها ويوكل لها أن تؤدي دورا واحدا هو مذكره فى رواية أخرى له حيث قال بأن العالم ليس سوى "محيط حى"⁽¹⁾ بالنسبة له. وهى تتخذ مسلكا كغيرها من شخصيات لكليزيو، فهى السجينة التى تمتد إليها شباك وشراك الآخرين كى يلحقون بجسدها وروحها العذاب، فلا تدعن، بل تمضى تسخر أدواتها الطفولية فى الخروج من قفصها، وتتقدم شيئا فشيئا حتى تنال حريتها.

ولعل الباعث إلى إقدامنا على تعريب هذا النص الأدبى هو حدثاته واهتمامه بحضارتنا وبعض معطياتها الجوهرية، وكذلك تقديم هذا الروائى - الذى لم ينل حظه من الخطاب النقدي العربى رغم اهتمامه بحضارتنا العربية - إلى قراء العربية. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الأوساط الأدبية الفرنسية تضع لكليزيو فى مرتبة عالية بين صفوف الأدباء الفرنسيين فى القرن العشرين، فكتاباتة تتميز بسعة أفقها الروائى، وخروجها من القفص الفرنسى المعهود بمعطياته العاداتية والتطلعية الفرنسية لتتخذ من الحضارات الأخرى منطلقا لها، فلقد تناولت رواياته أمريكا الشمالية والبلاد المتاخمة لفرنسا والهند وبعض الحضارات الشرقية الأخرى، فنظمت حوله المؤتمرات الأدبية، وتناولته الصحف والمجلات الأدبية، وعنى به الدارسون

(1) انظر

J.-M. G. Le Clézio, Terra Amata, Gallimard, 1967.

فى شتى الجامعات الفرنسية.

ومن أهم أعماله لكليزيو "المحضر الرسمي" *Le procès-verbal* 1963 و"الحمى" *la fièvre* 1965، و"الطوفان" *Le déluge* 1966، و"الأرض المحبوبة" *Terra Amata* 1967، و"الحرب" *la guerre* 1970، و"العمالقة" *les géants* 1973، و"رحلات فى الجانب الآخر" *Trois villes* 1975، و"ثلاث مدن مقدسة" *Voyages de l'autre côté* 1980، و"الباحث عن الذهب" *le chercheur d'or* 1985، و"نجمة ضالة" *étoile errante* 1992، و"بوانا" *Pawana* 1992، وأخيرا الرواية التى نعربها هنا "سمكة من ذهب" *Poisson d'or*.

وفى النهاية لا نأمل إلا أن يكون هذا العمل منطلقا لحوار نقدى عام يحمل مسيرته الخطاب النقدى العربى.

المترجم





عندما كنت فى السادسة أو السابعة من عمرى اختطفتم. لا أتذكر ذلك بحق، لأننى كنت صغيرة جدا آنذاك، وما عشته بعد ذلك محاً فى هذه الذكرى. إنه على الأرجح حلم أو كابوس قديم مرعب يعاودنى فى بعض الليالى ويؤرقنى حتى فى نهارى؛ فيه أتذكر هذا الشارع المبيض من الشمس، المترب والخالى، وهذه السماء الزرقاء، والصرخة المدوية لعصفور أسود، وفجأة يد رجل تلقينى فى قاع حقيبة كبيرة ثم أكاد أختنق. إنها لالاً⁽¹⁾ التى ابتاعتنى.

(1) اسم إحدى شخصيات الرواية. (المترجم)

ولهذا لا أعرف اسمى الحقيقي الذى وهبتنى أمى إياه عند ولادتى، ولا أتذكر اسم أبى، ولا المكان الذى ولدت فيه، وكل ما أعلمه من أمرى، وهو ما قالته لى لالا أسماء، أننى أتيتها ذات ليل ولهذا لقبتنى بليلى؛ فلقد جئت من الجنوب، من مكان بعيد جدا، ربما من مكان لم يعد له وجود الآن. وبالنسبة لى، ليس هناك من شئ قبل هذا الشارع المترب والعصفور الأسود والحقيقية.

ثم فقدت بعد ذلك السمع بإحدى أذنى؛ وحدث ذلك حينما كنت أعب فى الشارع أمام باب الدار؛ حينها صدمتنى شاحنة صغيرة، فهشمت عظمة فى أذنى اليسرى.

كان الخوف من الظلام ومن الليل ينتابنى؛ أتذكر أننى كنت أستيقظ أحيانا من نومى وأشعر بالخوف يدخلنى كدخول ثعبان بارد إلى جسدى، ولم أكن أجسر على التنفس، ولهذا كنت أتدحرج فى فراش سيدتى وألتصق بظهرها الممتلئ حتى لا أرى شيئا ولا أشعر بشيء. إننى على يقين أن لالا أسماء كانت تستيقظ من نومها أثناء ذلك، لكنها لم تكن تدفعنى عنها، ولو لمرة واحدة، ولهذا كانت بالنسبة لى بمثابة جدتى.

انتابنى خوف من الشارع لفترة طويلة؛ فلم أكن أجسر على الخروج من فناء الدار، ولم أرد تجاوز الباب الضخم الأزرق الذى يطل على الشارع. وعندما كان يحاول أحد ما أن يقتادنى إلى الخارج، كنت أصرخ وأبكى متشبثة

بالجدران، أو أفر مختبئة فى إحدى قطع الأثاث. وكان الصداق المرعب يستحوذنى، وضوء السماء يؤذنى ويخترقنى حتى أعماق جسدى.

وحتى الضوضاء المنبعثة من خارج الدار كانت تشعل فى الرعب: ضوضاء الخطوات فى الزقاق عبر الملاح⁽²⁾، أو صوت رجل يتحدث بصوت عال من الجانب الآخر من حائط الدار. ومع ذلك كنت أحب بولع تغريد العصافير وقت الفجر، وصرير السمان فى الربيع، وهو يقف على حافة الأسقف؛ ولم تكن هناك غربان فى هذه المنطقة من المدينة، بل كان حمام ويمام فحسب، وأحيانا بعض طيور اللقلق العابرة فى فصل الربيع، والتي كانت تجثم فى أعلى حائط دار وتفرق منقارها.

وعلى مدار أعوام، لم أعرف سوى فناء الدار الصغير وصوت لالا أسماء التى كانت تصيح باسمى "ليلى"، وكما قلت من ذى قبل، لا أعرف اسمى الحقيقى، فاعتدت الاسم الذى منحتنى إياه سيدتى، كما لو كان هو الاسم الذى اختارته لى أمى؛ ومع ذلك فإننى أؤمن أنه ذات يوم، سينادىنى شخص ما باسمى الحقيقى، وسوف أرتعش له وأعرفه.

اسمها الحقيقى ليس لالا أسماء، كانت تدعى عظمة، وكانت يهودية أسبانية. وحينما اندلعت الحرب بين العرب واليهود فى الطرف الآخر من العالم، ظلت الوحيدة التى لم تترك الملاح، وتترست خلف الباب

(2) الملاح هو حى يهودى فى المغرب. (المترجم)

الضخم الأزرق، ثم أقلت عن الخروج؛ واعتباراً من هذه الليلة التى أتيت فيها، تبدل كل شئ فى حياتها.

كنت أناديها "سيدتى" أو "جدتى"، وكانت تؤثر أن ألقبها "سيدتى"، لأنها هى التى علمتنى القراءة والكتابة بالفرنسية والأسبانية والحساب والرياضة، وهى التى علمتنى مبادئ الدين، دينها هى، حيث لا يوجد اسم لله، ودينى حيث يسمى الله. كانت تقرأ على مقتطفات من الكتب المقدسة، وكانت تعلمنى كل ما كان على ألا أفعله، كالنفخ فيما نأكله، ووضع الخبز مقلوباً، أو الاستنجاء باليد اليمنى، وتعلمنى أنه يجب قول الحق، والاعتسال كل يوم من القدم إلى الرأس.

وفى مقابل ذلك، كنت أعمل لها منذ الصباح حتى المساء فى الفناء، أنظف وأقطع الخشب الصغير لموقد النار، أو كنت أقوم بغسيل الملابس، وكنت أحب أن أصعد فوق السقف لنشر الغسيل؛ ومن هذا الموقع، كنت أرى الشارع وأسقف المنازل المجاورة والناس الذين يدلفون والسيارات، وطرف النهر الأزرق من بين شقى جدار، وفى هذا الموقع، كانت الضوضاء تبدو لى أقل رعباً، فكان يبدو لى فى هذا المكان أننى فى ملاذ.

وحينما كنت أمكث طويلاً على السقف، كانت لالا أسماء تصرخ باسمى، وتظل قابضة فى غرفتها المزركشة على وسادات من الجلد طيلة اليوم؛ وكانت تعطينى كتاباً ما كى أقرئه عليها، أو كانت تقوم بإملائى وتسألنى فى الدروس السابقة التى لغنتنى إياها، وكانت تجرى لى اختبارات. ولكى

تكاثفنى، كانت تسمح لى بالجلوس فى الصالة بجانبها، وتضع فى جهاز تسجيلها شرائط المغنيين الذين تحبهم: أم كلثوم، سيد درويش، وهيبه مسيكة وبصفة خاصة فيروز بصوتها الخفيض الأبح، والجميلة فيروز الحلبية التى تنشد "يا قدس"، وكانت لالا أسماء تزرف دمعا متى سمعت اسم القدس.

ولرة واحدة كل يوم، كان الباب الضخم الأزرق ينفرج لتمر منه امرأة سمراء فظة، ليس معها أطفال، تدعى زهرة، كنة لالا أسماء؛ كانت تأتى لتطهى شيئا ما لأم زوجها، أو كانت تأتى، بصفة خاصة، لمراقبة الدار. وكانت لالا أسماء تقول إنها تراقبها كما لو كانت ثروة سترتها يوما ما.

أما نجل لالا أسماء، فكان يأتى بندرة؛ اسمه هابيل، رجل فارح الطول، قوى البنية، يرتدى حلة رمادية أنيقة، ثرى يترأس شركة للأشغال العامة، ويعمل أيضا فى الخارج، فى أسبانيا وفرنسا؛ ولكن وفقا لما روته لالا أسماء، فلقد أجبرته زوجته على العيش مع أبويها هى، وهم أناس يستحيل تحمل مشقتهم، فهم متباهون يؤثرون العيش فى المدينة الجديدة على الشاطئ الآخر من النهر.

وكننت أحذر هابيل دوما، ذلك أننى عندما كننت صغيرة، كننت أتوارى خلف الستائر لحظة مجيئه، فكان ذلك يضحكه ويقول: "يالها من همجية!"; وعندما كبرت، كان يخيفنى أيضا، فلقد كان لديه أسلوبا خاصا فى النظر إلى، كما لو كننت شيئا يمتلكه. وكننت زهرة تخيفنى هى أيضا،

سمكة من ذهب (18)

ولكن ليس بنفس الطريقة. ذات يوم، بما أننى لم ألمم التراب المتناثر فى الفناء، نهشتنى حتى أسالت دمي وقالت لى: "أيتها البائسة اليتيمة!، لست ماهرة حتى فى التنظيف!،" فصرخت فيها: "لست يتيمة، إن جدتى لالا أسماء"، فسخرت منى ولكنها لم تجسر على المضى فى توبيخى..

كانت لالا أسماء تدافع دوما عنى، لكنها كانت عجوز منهكة، أقدامها متخمة وملبئة بالدوالى، وكانت حينما تسأم أو تشتكى، أقول لها: "أأنت عليلة يا جدتى؟"، فكانت تسمرنى أمامها وتحملق فى، وتكرر المثل العربى الذى تحبه، والذى كانت تقوله بإحتفاء وكأنها تبحث فى كل مرة عن ترجمته الفرنسية:

"الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يدركها إلا الأعداء".

والآن، لم تعد تجعلنى أقرأ كثيرا أو تجعلنى أذاكر، لم يعد لديها أفكار لإملائى، وكانت تمضى معظم أيامها فى الصالة الخالية تشاهد شاشة التلفاز، أو تطلب منى أن أحمل إليها علبة مجوهراتها أو علب فضتها. وذات يوم، أرتنى زوج من قرط ذهبي وقالت لى: "انظرى يا ليلي، هذا القرط سيكون ملكا لكى حين أموت".

ومررت القرط فى ثقبى أذنى، وكان القرط قديما مستخدما، على هيئة أول هلال للقمر المعكوس فى السماء، وعندما لفظت لالا أسماء لى الاسم، هلال، اعتقدت أننى أسمع اسمى، وتخيلت أن هذا القرط كنت أتحملى به حينما أتيت إلى الملاح.

قالت لى: "إنه يناسبك كثيراً، إنك تبدين فيه كبلقيس ملكة سبأ".

فوضعت القرط فى يديها، وثنيت أصابعها، وقبلت يدها وقلت:

"شكراً يا جدتى، إنك عطوفة على".

قالت: " اذهبى!، اذهبى!"؛ وزجرتنى وقالت: "لكننى لم أمت

بعد!".

لم أعرف زوج لالا أسماء إلا من خلال صورة فوتوغرافية له كانت تعترش الكمودينو، وكانت تحتفظ بها فى الصالة، بجوار ساعة حائط متوقفة، كانت هيئته تدل على أنه رجل يبدو قاسياً، يرتدى زياً أسوداً. كان يعمل محامياً وكان ثرياً، ولكنه خائن، ولما مات، لم يترك لزوجته عدا دار الملاح، وقليل من النقود لدى كاتب العدل؛ وكان لا يزال على قيد الحياة حينما أتيت إلى الدار ولكننى كنت صغيرة جداً حتى أتذكره.

كانت لدى أسباب تدفعنى للخوف من هابيل، كنت فى الحادية عشرة أو فى الثانية عشرة من عمرى حينما اصطحبت زهرة جدتى خارج الدار كى ترى الطبيب أو لتبتاع شيئاً، ودخل هابيل إلى الدار دون أن الحظ ذلك، فبحث عنى داخل الدار، ووجدنى فى الغرفة الصغيرة، بجوار الفناء، حيث يوجد المرحاض وحوض الغسيل.

كان ضخماً وقوياً، لدرجة أنه أغلق كل الباب بجسده، ولم أقو على النجاة بنفسى منه، هلعنى، ولم يكن يوسعى أن أتحرك بأى طريقة؛ اقترب

سمكة من ذهب (20)

منى، وكانت حركاته عصبية جنونية؛ ربما كان يتحدث إلى، لكننى وضعت رأسى على أذننى اليسرى حتى لا أسمع. كان طويل القامة، عريض المنكبين، وجبهته عارية تتلألأ فى الضوء؛ ركع أمامى وتحسس أسفل ثوبى، وتلمس أفخاذى وتحسسى، وكانت يدها صلبة من الأسمنت. انتابنى إحساس أن زوج من الحيوانات الباردة الجافة قد اختبأ أسفل ملابسى؛ وأحسست بالخوف لدرجة أننى شعرت بقلبى ينبض فى حلقتى.

وبغته، عاودنى كل شئ، الشارع المبيض والحقيبة والضربات فوق رأسى، ثم أيدى تتلمسنى، وتضغط على جوفى فتؤلنى. لم أدرك ماذا أفعل؛ أظن أننى بُلت على نفسى من الخوف؛ وحينما فرغ من ذلك سحب يديه، فأفلحت فى المرور من خلفه، وتدرجت كالحشرة، فعبرت الفناء وأنا أصرخ، ثم سجدتُ نفسى فى صالة الاستحمام، لأنها كانت الغرفة الوحيدة التى يمكن غلقها بالفتاح؛ وترقبت وقلبى يدق بكل سرعة وأذننى السليمة ملتصقة بالبواب.

جاء هابيل إلى، قرع الباب، فى البداية بلطف بأطراف أصابعه، ثم بشدة بكلية يديه قائلاً: "ليلى افتحى لى الباب، ماذا تفعلين؟ افتحى، لن أفعل بك شيئاً."، ثم رحل؛ أما أنا فمكنت جالسة على البلاط، مولية ظهرى للحمام الرخامى الذى صنعه هابيل لأمه.

وبعد ذلك بوقت طويل، جاء شخص ما خلف الباب، وسمعت صوتاً، ولكننى لم أدرك ما جاء فيه، وقرع الباب ثانية، وهذه المرة عرفت يد

لالا أسماء؛ وعندما فتحت الباب، كان يبدو علىّ الرعب، حتى أنها ضمتني بين ذراعيها وهي تقول لي: "ولكن، ماذا فعل بك؟ ماذا حدث لك؟"، فضممت جسدي إليها، وأنا أمر من أمام زهرة، ولكنني لم أتفوه بشئ، فصاحت زهرة: "لقد غدت معتوهة، هذا كل ما حدث"، ولم تسألني لالا أسماء عن شئ آخر، ولكنها منذ ذلك اليوم، لم تتركني بمفردي متى جاء هابيل إلى الدار.

وذاث يوم، بينما كنت منهكة في غسيل الخضر في المطبخ لإعداد الطعام للالا أسماء، سمعت ضوضاء مدوية في الدار، كما لو كان شئ ثقيل يضرب البلاط ويقلب المقاعد، فأتييت مسرعة، ورأيت العجوز ملقاة على الأرض، ممددة بكل طولها، فظننت أنها ماتت، وفرت أختبئ في مكان ما حينما سمعتها تتأوه وتئن. لقد كان مغشياً عليها، وحينما هوت على الأرض اصطدمت رأسها بزاوية مقعد فسال منها قليل من دم من صدغها، ودارت من الهزة واضطربت عيناها، ولم أدرك ماذا أفعل؛ وبعد مرور برهة، اقتربت منها وتحسست وجهها؛ فكانت وجنتها رخوة، باردة بشكل لافت للنظر، ولكنها كانت تتنفس بكل قوة رافعة صدرها، وكان الزفير يزلزل شفثيها في قرقرة مضحكة كما لو كانت تغط في النوم.

"لالا أسماء!، لالا أسماء!"، هكذا كنت أتمتم بالقرب من أذنها، وكنت على يقين من أنه بوسعها أن تسمعني في حالتها هذه. كانت عاجزة عن الكلام فحسب، وكنت أرى رعشة جفونها المواربة على عينيها البختين، وأعلم أنها تسمعني، وقلت لها: "لالا أسماء، لاتموتي!".

فى أثناء ذلك، جاءت زهرة، وقلقت كثيراً من النفس البطئ الذى لم أعده فى لالا أسماء، وقالت لى:

- "ياغبية! أيتها الجنية الصغيرة!، ماذا تفعلين الآن؟"

جذبتنى بعنف من كم ثوبى حتى أنه تمزق، وقالت لى: "هيا ابحثى عن الطبيب، ألا ترين أن أمى فى أشد ألها!"; وكانت هذه هى المرة الأولى التى تتحدث فيها عن لالا أسماء وتلقبها بأسماء؛ وعندما رأتنى أقف مذهلة على عتبة الباب، اقتلعت سباطها وقذفتنى به قائلة: "هيا، ماذا تنتظرين؟".

حينئذ عبرت الفناء، ودفعت الباب الأزرق الثقيل، ثم شرعت فى الهرولة فى الشارع دون أن أعرف إلى أين أمضى، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أخرج فيها من الدار، ولم تكن لدى أدنى فكرة عن المكان الذى أستطيع فيه أن أجد طبيب، ولم أكن أعرف سوى شئ واحد هو أن لالا أسماء ستموت، وسيكون ذلك خطئى، لأننى لم أتمكن من أن أجد إنساناً ما كى يعالجها. ظللت أهول دون أن ألتقط أنفاسى على طول الأزقة التى أنامتها الشمس، وكان الجو حاراً للغاية، والسماء عارية، وكانت جدران المنازل بيضاء للغاية.

هرولت من شارع إلى آخر، حتى بلغت مكاناً يمكن منه للمرء أن يرى النهر، بل وأبعد من ذلك، البحر، وأجنحة الزوارق. كان المشهد رائعاً حتى أننى لم أخش أى شئ، وتوقفت فى ظل جدار، وشاهدت كل ما تمكنت من مشاهدته؛ كان المنظر هو نفس المنظر الذى كنت أشاهده من أعلى سقف

دار لالا أسماء، ولكنه أرحب سعة بكثير. إلى الأسفل على الطريق، كانت هناك سيارات كثيرة، وشاحنات وسيارات نقل. كان الوقت هو الساعة التي يذهب فيها الأطفال إلى المدرسة بعد الظهر؛ كانوا يذلفون على الطريق، الفتيات ترتدين التنورات الزرقاء والقمصان الشديدة البياض، أما الفتيان فكانوا يرتدون ملابس قليلة الأناقة، محلقون رؤسهم، يحملون حقائبهم المدرسية أو كتباً يحفظها ماسك.

حدث ذلك وكأني أفقت من سبات طويل؛ وحينما مر أطفال المدرسة بالقرب مني، بدا لي أنهم يضحكون ويسخرون مني، وعندما تريتت، بدت على الغرابة كما لو أنني أتيت من كوكب آخر بثوبى ذى النهج الفرنسى، والذى كان كمه ممزق، وبشعرى الطويل المجعد؛ وفى ظل جدار الحائط، بدا على أيضاً أنني جنية.

تعقبت شارعاً عن طريق المصادفة باتجاه تلاميذ المدرسة، ثم شارعاً آخر يعج بالناس؛ فكان هناك سوق وغطاءات تقى من الشمس. وفى مدخل أحد الديار، كان هناك رجل عجوز يعمل فى حانوت مصنوع من الخشب، وكان الرجل يجلس متربعا على شئ يشبه المنضدة المنخفضة تحيط به بابوجات⁽³⁾، وكان يدق مسامير صغيرة جداً بمطرقة من النحاس فى نعل؛ وبما أنني توقفت أنظر إليه، سألتنى: "أتريدين بلغة؟"

(3) البابوج هو الحذاء دون الكعب، والكلمة الفرنسية babouche مأخوذة من العربية والتي نقلتها بدورها عن الفارسية. (المترجم)

فلقد لاحظ جيداً أن أقدامى عارية، وقال: "ماذا تريدان؟ أنت

صماء؟"

أفلحت في الحديث إليه، فقلت له: "أبحث عن طبيب لجدتي".

قلت ذلك بالفرنسية، ثم كررت بالعربية لأنه نظر إلى دون أن

يفهم، وقال لي: "ما بها؟"

— "سقطت على الأرض، وستموت".

أدهشه هدوئي الشديد. وقال لي: "ليس هناك من طبيب في هذه

المنطقة، هناك السيدة جميلة في الفندق؛ إنها مولدة، ربما تتمكن من فعل

شيء".

غادرت مهرولة في الاتجاه الذي أشار به عليّ، وظل صانع الأحذية

لا يتحرك ومطرقته النحاسية مرفوعة، وقال لي شيء لم أفهمه فأضحك الناس.

كانت السيدة جميلة تعيش في دار لم أتخيل هيئته، فكان عبارة

عن قصر مهدوم، حوائطه شاهقة تتكون من التراب المدكوك، وكان يبدو أن

مصارع باب هذا القصر الاثنان مفتوحين منذ زمن طويل، لدرجة أن ما من

أحد يستطيع غلقهما، إذ يحجزهما الطين والأنقاض. وفي واجهة القصر،

كانت هناك قطع من أوراق طلاء الحوائط تدل على أن الدار كان وردي اللون

في الماضي، كانت نوافذه الخشبية ناتئة، وشرفه منخورة بالسوس؛ ورغم

علمي بذلك، إلا أنني دخلت إلى فناءه.

فناء دار لالا أسماء، كان منظماً تنظيماً قاسياً، نظيف إلى حد
المبالغة، وكنت أظن أن أى فناء يكون كذلك؛ ولكن هنا فى داخل الفندق، كان
هناك ركام لا يمكن تخيله، وأناس يخيم عليهم السبات فى كل مكان من
الفندق، تحت ظل الأفاريز أو أشجار السنط الهزيلة؛ وكانت هناك ماعز
وكلاب وأطفال ومواقد تستنفذ قواها بمفردها، وكانت هناك فى كل مكان
أكوام القمامة التى يلوكها الدجاج المشابه للنسور. وفى جدران الحوائط، حول
الفناء تحت ظل أشجار السنط، كان الباعة الجائلون يكسدون حزم بضائعهم،
ولكى يحرسونها جيداً، كانوا يتوسدونها. لم أعرف ماذا كان يعمل هؤلاء
الناس، ولم أكن أدرك المظهر الذى يكون عليه فندق. وحينما عبرت ببطئ
الفناء مترددة فى الاتجاه الذى أتخذه، نادانى شخص ما من أعلى الشرفة
الداخلية فى حركات واضحة؛ وبما أننى فتنت بالشمس فقد بحثت عن ظل
الرواق، وسمعت صوتاً واضحاً يسألنى: "عما تبحثين؟".

فى النهاية، رأيت سيدة متقدمة فى العمر، ترتدى ثوباً فيروزياً
طويلاً، كانت تتكى على سور السلم، وتشعل سيجارة وهى تنظر إلى، فنطقت
اسم السيدة جميلة، فأشارت إلى: "أصعدى السلم فى نهاية الغرفة أمامك".
وعندما بدا على أننى لا أعى ما تقول، قالت لى: "انتظرى".

اقتادتنى عبر غرفة كبيرة مظلمة، حيث كانت هناك حزم أخرى
من البضائع، وأناس يستريحون، وشيوخ يلعبون الدومينو على منضدة قصيرة

سمكة من ذهب 26

القائمة وقد وضع نارجيل بجوارهم، ولم يكن هناك من يبدو عليه أنه يعيرني انتباهاً.

وفي أعلى درجات السلم، كان الرواق مُضاءً من ضوء الشمس حيث لم يكن هناك من مصارع أبواب؛ وكانت تقطن الطابق الأعلى أجنبيات، يبدو على البعض منهن أنهن في سن الشباب، والأخريات في عمر زهرة أو أكبر منها عمراً. كانت هؤلاء النسوة بديئات، سحنهن صافية وشعورهن حمراء من الحناء، وشفاهن مطلية، شديدة السمارة، وأعينهن محاطة بالكحل، يشعلن الغليون أمام أبواب غرفهم، جالسات في أرديتهن على الأرض، وكان دخان غليونهن يخرج من ظل الرواق فيتراقص في الشمس.

قلت: "أريد أن أبحث عن السيدة جميلة".

ظللت أعلى السلم وأقدامى تطأ أرض الطابق، وأظن أن ما منعنى أن أتقهتر مهرولة من هذا المكان هو فقط الخوف من العودة دون الطبيب إلى لالا أسماء، وجمعت النسوة تلتف حولى، يتحدثن بصوت عالٍ ويضحكن، وكان دخان الغليون يشغل الهواء برائحة عذبة قليلاً، كانت تجعلنى أدير رأسى.

كن يداعبن شعرى ويتلمسنه وكأنهن لم يرين مطلقاً شعراً مثله؛ ثم شرعت إحداهن، وهى فتاة شابة يداها فارعتان دقيقتان، محملة رقيبتهما بالجواهر، فى تجديله مخلة الخيط الأحمر بشعرى، لم أجسر على التحرك؛ وقالت: "انظرن، لكم هى جميلة! إنها أميرة حقيقية".

لم أدرك ما قالته، وسألت نفسي عما إذا كان هؤلاء النسوة الجميلات بكل حليهن ومساحيقهن لا يسخرن مني، وعما إذا كن سينهشنني ويتجاذبنني من شعري، كن يتحدثن بسرعة بصوت منخفض ولم التقط كل الكلمات بسبب أذني المصابة.

ثم أتت السيدة جميلة؛ كنت أتخيل أنها امرأة حكيمة طويلة وقوية، وجهها متجهم، فرأيت امرأة قصيرة نحيفة، شعرها قصير، ترتدي ملابسها على النهج الأوربي. ومقتنى للحظة، ثم أبعدت عني النسوة، وعندما أدركت مشكلة أذني، مالت نحو وجهي وقالت ببطء: "ماذا تريدن؟" - "جدتي تموت، ينبغي أن تذهبي لترينها في دارها".

ترددت ثم قالت: "حقاً أننى أعيش هنا من أجل الأطفال والأجداد الذين يموتون أيضاً".

كانت تمشي بخطوات منفرجة في الأزقة، وكنت أعدو عدو الطفل خلفها؛ وبدونها ما كان لى أن أتوصل لمعرفة طريقى، ولكنها كانت تعرف دار لالا أسماء.

وريثما وصلنا الدار، كان قلبي منقبض؛ وظننت أنه فى خلال كل هذا الوقت قد ماتت لالا أسماء، وأننى سوف أستمتع إلى الصرخات المدوية، التى ستطلقها زوجة ابنها. بيد أن لالا أسماء كانت على قيد الحياة؛ كانت تطأ مقعدها المريح فى مكانها المعتاد، تتمدد وأقدامها على مقعد وضع أمامها،

وكان هناك فقط قليل من الدم الجاف على صدغها حيث ارتطمت رأسها لما وقعت.

رأى لالا أسماء، فأشرقت نظرتها، كانت لاتزال ترتعش قليلاً، فشدت على يدي بقوة شديدة؛ لاحظت أنه لديها الرغبة في الكلام، وأنها لم تقو على ذلك. ولم أكن أدرك إنها تحبني كثيراً، وفجأة أسأل ذلك عبراتي، وقلت لها: "لاتحركين ياجدتي سوف أعد لك الشاي كما تحبين".

ثم رأيت السيدة جميلة على عتبة الصالة، وطالما أن لالا أسماء لم تكن على وشك الموت، فلم تكن في حاجة إلى أحد. لم تكن تحب أن يدخل عليها الغرباء، قلت للسيدة جميلة: "إنها بخير الآن، لم تعد في حاجة لك"، واصطحبتهما نحو الباب، وأردت أن أدفع لها ثمن الزيارة من دراهمي التي ادخرتها من أعمال التنظيف، لكنها رفضت، وقالت وهي تتفحص وجهي بدقة: "ربما سينبغي عليك أن تستقدمي طبيباً حقيقياً، هناك شيئاً ما تحطم في رأسها، ولهذا السبب سقطت على الأرض".

تسألت: "هل ستتكلم ثانية؟"

هزت السيدة جميلة رأسها: "لن تكون البتة كما كانت من قبل؛ يوماً ما ستسقط ولن تعود مطلقاً، الأمر كذلك، ولكن يجب أن تظلي معها حتى نفسها الأخير"، كررت الجملة بالعربية ولم أنساها: "خرجت الروح...".

عادت زهرة بعد قليل؛ لم أتحدث إليها عن أمر السيدة جميلة، فلقد كانت ستصغني إذا ما علمت أن كل ما أحضرته لها، هو مولدة بفندق

قديم، فكذبت عليها وقلت لها: "قال الطبيب أن صحتُها ستتحسن، وأنه سيعود الأسبوع القادم"؛ فقالت: "والأدوية؟ ألم يقرر أدوية؟"؛ هزرت رأسي وقلت لها: "قال أن الأمر لا يستدعي ذلك، وأنها ستعود كما كانت من ذي قبل".

كانت زهرة تتحدث بصوت عالٍ بالقرب من أذن لالا أسماء كما لو كانت صماء: "أستمعين يا أماه، لقد قال الطبيب أنك ستغدين على مايرام".

ولكن لالا أسماء لم تتحدث إلى منذ أشهر عن كنتها، ولم تلحظ زهرة أى شئ، وعندما انصرفت، عاونت لالا أسماء على السير حتى فراشها، وكان سيرها غريباً، تقفز كالشحرور⁽⁴⁾، ونظرتها المتفائلة غدت هشة، وحزينة وبعيدة.

فجأة، انتابنى خوف مما سيحدث؛ لم أسأل نفسى حتى هذه اللحظة ماذا ساكون حين ترحل لالا أسماء عن الدنيا، أأكون فى هذا الدار خلف الجدران العالية من الجانب الآخر من الباب الأزرق؟ وهل سأرى المدينة من أعلى السقف حيث أنشر الملابس المغسولة؟ جعلنى ذلك أعتقد أن شراً ما سيحدث لا محالة.

نظرتُ إلى سيدتى، كان وجهها منتفخاً لدرجة أن عينيها كانت بمثابة ثقب فى وجهها، وشعرها القليل جداً أبيض أسفل الحنة.

قلت: "جدتى، جدتى، لن تتركينى؟"، وسرت العبرات فوق وجنتى، ولم أتمكن من إيقافها، ثم رددت: "أليس كذلك يا جدتى، لن تتركينى؟"، أعتقد أنها سمعت ما قلته لها لأننى شاهدت جفونها تتحرك، وشفاها ترتعش؛ وضعت يدى فى يديها حتى تصافحها بقوة، وقلت: "سوف أهتم بأمرك يا جدتى، لن أدع أى أحد يقترب منك ولاسيما زهرة؛ سأعد لك شايك، وسأقدم لك طعامك وسأمضى أحضر لك الخبز والخضر؛ والآن لم يعد الخوف ينتابنى فى أن أمضى خارج الدار، فلن نعد فى حاجة إلى زهرة".

كنت أحدث والدومع لا تتوقف عن السيل، ويمكننى القول أنها ربما كانت هذه هى المرة الأولى، بالنسبة لى أنا التى لم تزرف الدمع أبداً بلا وازع حتى عندما نهشتنى زهرة حتى أسالت دمي.

بيد أن لالا أسماء لم تعد كما كانت من ذى قبل، بل على النقيض، أخذت حالتها تسوء يوماً بعد يوم، ولم تعد تتناول الطعام؛ وحينما كنت أحاول أن أشربها الشاي، كان الشاي البارد يسيل من طرفى فمها ويبلل رداثها؛ وكانت شفتاها مشقتين مصدعتين، وأصبح جلدها جافاً وأكتسى بلون الرمل؛ ويجب أن أقول أنها كانت تبول تحتها، هى التى كانت نظيفة جداً ودقيقة؛ كنت أغير لها ملابسها؛ ولم أرد أن تراها زهرة وهابيل فى الحالة هذه؛ كنت على يقين أن لالا أسماء تستحي من ذلك، وأنها تضع حساباً لكل شئ. عندما جاءت زهرة، سدت أنفها وقالت: "من أين تنبعث هذه الرائحة الكريهة؟"، فقلت لها أن هناك أشغال تُجرى فى الدار المجاور ويتم إخلاء

الحفرة؛ نظرت زُهرة إلى لالا أسماء نظرة ريبة، ونهرتني قائلة: "لأنك لاتقومين بأعمال النظافة بشكل جيد، انظري إلى هذه الفوضى!". كانت تسعى لتعرف ما لايمضى على مايرام فى الدار؛ وحتى لاتستبطن حالة لالا أسماء، قمت بتصفيف شعرها فى الصباح، وطلّيت وجنتيها بالمسحوق الوردى، ووضعت زبدة الكاكاو على شفتيها، ووضعت الطبق النحاسى بجوارها على المنضدة مع إبريق الشاي والأكواب، وسكبت قليلاً من الشاي المحلى بالسكر فى الأكواب كما لو كانت لالا أسماء قد شربت شايًا.

لم أعد اتركها؛ فى الليل، كنت أرقد على الأرض بجوارها مطوقة فى ملاءة فراش؛ وأذكر أنه، ذات يوم، كان هناك ناموس، وكنت أستمع إلى غناؤه فى أذنى طيلة الليل، وفى الصباح عدت إلى غرفتى كى أنام قليلاً، نسيت نفس لالا أسماء الحزين، ورأيت فى نومى، أننا، أنا وهى، نرحل ونستقل، فى نهاية المطاف، الزورق الشهير الذى كانت تتحدث عنه دوما من مليلا⁽⁵⁾، باتجاه ملاجا⁽⁶⁾، وحتى أبعد من ذلك، إلى فرنسا.

ذات ليل، أخذت الأمور كلها تزداد سوءاً؛ لم أضع هذا الأمر فى حسابنى على الفور، كانت لالا أسماء تختنق، كان نفسها يحدث غطاً فى حلقها، ومع نهاية كل زفير، كانت هناك ضوضاء منبعثة من رثتيها، فظلت

(5) أراضى على ساحل البحر المتوسط تطل على المغرب وهى محل نزاع حتى الآن. (المترجم)

(6) ميناء فى أسبانيا على البحر المتوسط وهو موطن بيكاسو، ما زال محل نزاع بين المغرب

وأسبانيا. (المترجم)

جامدة متمددة على الأرض دون أن أجسر على الحركة. كانت غرفتها مظلمة مع بصيص من ضوء القمر في الفناء، ولكن لم يكن بوسعى أن أمضى إلى خارج الدار. كنت أترقب، وأردت أن يكون النهار؛ اعتقدت أنه منذ أن تشرق الشمس، ستستيقظ لالا أسماء، وتتوقف عن الغط، ويتوقف ضيق أنفاسها وضوضاء رثيها.

نمت مع بزوغ ضوء النهار، فلقد كنت متعبة للغاية؛ ربما ماتت لالا أسماء في هذه الأثناء، وهكذا استطعت في النهاية أن أنم.

حينما استيقظت كان وضع النهار، كانت زهرة تجلس بجوار الفراش، وكانت تبكي بصوت مرتفع، فجاءة رأنتى فملاً الغضب فمها، قرعنتى بكل شئ وجدته: منشفة من الإسفنج ومجلات؛ ثم اقتلعت حذاءها كي تضربني به، فلذت بنفسى والفناء. صاحت في: "أيتها الجنية الصغيرة!، لقد ماتت أمي وأنت تنامين في سكرينة! أنك قاتلة". اختبأت في المطبخ أسفل منضدة كما كنت أفعل وأنا صغيرة، ارتعشت من الخوف، ولحسن حظي، جاءت سيدة مجاورة أنبئها الصراخ في هذه اللحظة؛ وجاء هابيل بدوره أيضاً، وسكنوا من روع زهرة. كان معها مديّة في يديها كما لو كانت تريد أن تقتلني، وصاحت ثانية: "أيتها الجنية القاتلة!". أجلسوها في الفناء، وقدموا إليها قدحاً من ماء.

أما أنا فقد تدرجرت خارج المطبخ، وعبرت الفناء على قدمي وساعدى على طول الجدار في الظل، وأقدامى عارية، ولم أكن أرتدى سوى

33 الملاح

الثوب المجدد الذى نمت به، وكان شعرى مُشعث، وكان يبدو على أننى قاتلة بحق.

أفلحت فى الهرب مارة من الباب الأزرق الكبير الذى ظل موارباً؛ ثم شرعت فى الهزولة فى الشوارع مثل اليوم الذى ذهب فيه أستدعى الحكيمة، وكان ينتابنى هلعٌ جارف من أن يلحقوا بى ويودعونى السجن لأننى تركت لالا أسماء تموت.

هكذا تركت دار الملاح دون عودة، ولم أكن أملك أى شئ ولاسو⁽⁷⁾ واحد، وأقدامى عارية وثوبى بال، ولم يكن معى حتى القرط الذهبى وهلال القمر الذى وعدتنى لالا أسماء أن تتركه لى حينما تموت، فشعرت بأننى أكثر عراءً من اليوم الذى باعنى فيه لصوص الأطفال إلى لالا أسماء.



(7) أصغر وحدة من العملة الفرنسية القديمة. (المترجم)

السوق القديم

كان الفندق يختلف تماماً عن كل ما عرفته فى حياته إلى ذلك الحين، كان عبارة عن دار ينفرج على كل الاتجاهات الأربعة، يقع فى شارع يكثر العبور فيه، تربكه الشاحنات الصغيرة والسيارات والموتوسيكلات، وكان السوق على بعد خطوتين منه، وهو مبنى من الأسمنت يجد فيه المرء كل ما يريد، لحوم المجازر، والخضروات، والسجاد، والدلى البلاستيكية.

حينما تركت دار لالا أسماء، لم أعرف إلى أين أمضى؛ فلم أكن أعرف سوى شئ واحد، هو أنه ينبغي على أن أختبئ فى مكان لا يعثر على فيه مطلقاً كل من زهرة وهابيل، حتى وإن أرسلت الشرطة تبحث عني. سرت على طول الشوارع فى الظل، مجاورة للحوائط كالقط الضال؛ وكانت صرخات

زُهرة "أيتها الجنية ! أيتها القاتلة!" تدوى فى رأسى، وكنت على يقين من أنها إذا لحقت بى سوف تدعنى السجن. ورغما عن إرادتى، قادتنى أقدامى إلى الشارع الذى بحثت فيه عن طبيب يعالج لالا أسماء. لما تعرفت على المبنى من خلال بوابته ذات المصرعين المنفرجين على أشدهما، اهتز قلبى من الفرح، ففى ذلك المكان، كنتُ على يقين من أن زُهرة لن تتمكن من العثور على. لم تكن السيدة جميلة فى الفندق، فلقد تم استدعاؤها إلى مكان ما لحالة طارئة، ولذا فقد جلست بهدوء على الشرفة وظهري للجدار وترقبتهما بالقرب من بابها.

فى المرة الأولى التى أتيت فيها إلى هذا المكان، كنت فى عجلة من أمرى، ولم يكن لدى متسعاً من الوقت كى أشاهد ما يحدث فى الفندق؛ أما الآن، فأتفحص كل شئ: الناس الذين يدخلون ويخرجون من الفناء دون توقف، الباعة الجائلين فى أثوابهم الرثة محملين كالعير، والتجار الذين يضعون حزم بضاعتهم أسفل الشرفات المقوسة، تجار خضر، وتجار تمر، وشباب يحملون شحن غريبة، تتأرجح على دراجاتهم علب كرتونية محملة بلعب الأطفال البلاستيكية، وأشرطة موسيقى وساعات ونظارات سوداء. كنت أعرف كل بضاعتهم، ذلك أنهم كانوا يأتون، فى الغالب، يقرعون باب لالا أسماء، وبما أنها لم تكن تقو على الخروج لتقضى مشترياتها، فلقد كانت تجعلهم يفرغون سلعمهم فى الفناء، وتشترى منهم أشياء لم تكن فى حاجة إليها: أقلام وصابون، وكل ما يحمل الغضب إلى كُنُتها التى كانت تقول لها:

"أماه ! ماذا أنتِ فاعلة بهذه الأشياء؟"، وكانت لالا أسماء تهز رأسها وتقول: "ربما سأكون يوماً ما راضية لأننى ابتعت هذه الأشياء". لم أتصور مطلقاً أنه من الممكن أن يتلاقى الباعة الجائلون فى مكان مثل هذا الفناء.

فى الطابق تقطن سيدات فى مقتبل العمر، لم أراهن المرة السابقة. كن أنيقات جميلات إلى حد أننى بسذاجتى حسبتهن أميرات. فى هذه الساعة، كن يرقدن فى الحجرات خلف الأبواب المواربة؛ وعندما تفحصت ثقب الباب رأيت إحدى الأميرات نائمة على فراش كبير؛ وفى رفق، تبينت هيئتها، كانت ترقد عارية تماماً فوق ملاءة الفراش، يوارى شعرها وجهها، وذهلت لمشاهدة بطنها بضاً وعانتها منزوعة الشعر تماماً، فلم أرى قط مثل ذلك، فلم تكن لالا أسماء تصطحبنى إلى صالة الاستحمام، وحتى فى لحظات عمرها الأخيرة، لم ترد أن أراها مجردة من ملابسها. جسدى الهزيل الأسود لا يشبه البتة هذا الجلد الأبيض، وأعتقد أننى تقهقرت خائفة قليلاً والعرق فى كفة يدي.

انتظرت كثيراً أسفل الرواق مولية اهتمامى لغدو ومجئ التجار فى الفناء؛ ولم أكن قد تناولت الطعام ولا الشراب منذ البارحة، فلقد كان لدى شعور جارف بالجوع وأشعر أننى أموت من الظمأ.

إلى الأسفل فى الفناء، كان هناك بئرٌ. لاحظت أسفل الشرفات المقوسة جوالاً مفتوحاً به فاكهة جافة، تأتى العصافير لتنقرها؛ فتدحرجت حتى حزمة البضاعة، استحييت قليلاً، ذلك أن لالا أسماء كانت تقول لى

دوماً، أنه ليس هناك أسوأ من سرقة الآخرين، لابسبب ما نأخذه منهم، بل بسبب خداعنا لهم، ولأننى كنت جائعة للغاية، أبعدت تعاليم لالا أسماء عن رأسى.

جلست القرفصاء بجوار الحقيبة المفتوحة، والتهمت بعض التمر والتين المجفف وحفن من العنب الجاف الذى أخرجته من تعليبه البلاستيكي، وأظن أنه كان بإمكانى أن أكل الجزء الأكبر من حزمة البضاعة لو أن صاحب البضاعة لم يأتى فى صمت من الخلف؛ مسكنى بيده اليسرى من شعرى وبيده الأخرى طوقنى بزُنار⁽¹⁾ وقال لى: "أيتها اللصة الزنجية!، سوف أريك ماذا أفعل بأمثالك من البشر"، وأذكر أن أكثر ما كان يؤلنى هو ليس مباغتته لى، وإنما الطريقة التى كان يمسك بها شعرى بأصبعه وينادىنى "أيتها السوداء!،"، لأن ذلك لم يكن شئ يتلفظ به أحد مطلقاً ولا حتى زُهرة فى غضبها، فلقد كانت تدرك أن لالا أسماء لا يمكن أن تطيق مثل هذا الشئ.

تخبطت، ولكى أفلت منه، ضرسته حتى سال دمه، وجابهته وصحت فيه: "لست لصة، سوف أدفع لك ثمن ما أكلته".

فى هذه الأثناء، أتت السيدة جميلة ومالت سيدات الطابق من الشرفات، وشرعن فى سب التاجر الجائل بشتائم لم أسمعها قط، حتى أن إحدى الأميرات لم تجد قذيفة أفضل من أن تلقى عليه قطعاً من النقود فئة

(1) حزام. (المترجم)

العشرة والعشرين سنتيماً⁽²⁾ صائحة فى وجهه: "هاك أبيها اللص!، ظل التاجر مبهوراً أمام مجون السيدات، أسفل سيل قطع النقود، إلى أن أخذتنى السيدة جميلة من ساعدى واصطحبتنى إلى الطابق، وأعتقد أنه كان بييدى إلى هذه اللحظة حفن من العنب الجاف لم أدعها حتى عندما تناولنى التاجر من شعرى وضربنى بزُناره.

غير أن الهلع تملكنى بغتة، أو ربما كان ذلك ركام كل ما حدث فى هذا الوقت مع لالا أسماء التى سقطت على البلاط، وزُهرة التى طردتنى ناهيةً قرط أذننى، فأخذت أبكى بشدة على السلم حتى أننى لم أتمكن من الصعود. حملتنى السيدة جميلة، التى لم تكن أضخم منى، إلى أعلى كما لو كنت طفلة صغيرة، وكررت فى أذننى: "ابنتى!، ابنتى!، أما أنا فقد أشد بكائى لأننى افتقدت جدتى وعثرت على أم لى فى يوم واحد.

فى أعلى السلم، كانت الأميرات - اللواتى كنت ألقبهن كذلك فى أعماقى حتى حينما أدركت أنهن لسن أميرات بحق - تنتظرننى بألف مداعبة وإشارة ترحيب؛ "وسألننى عن اسمى وكررنه بينهن: "ليلى، ليلى"، وحملن إلى الشاى المركز والحلوى المصنوعة من العسل، فتناولت كل ما استطعت أن أتناوله؛ ثم أعددن لى فراشاً فى غرفة كبيرة، رطبة، بها وسادات ملقاة على الأرض، فرقدت بعد ذلك مباشرة وسط هرج ومرج الفندق،

(2) وحدة من العملة الفرنسية، والفرنك يشتمل على مائة سنتيماً. (المترجم)

يهددنى صوت موسيقى المذيع فى الفناء. وهكذا دخلت فى حياة السيدة جميلة قاتلة الأجنة وأميرات الستة.

تدبرت حياتى بالفندق بشكل هادئ ولافت للنظر، ويمكننى أن أقول غير مبالغة، أن هذه الفترة كانت أكثر فترة من حياتى سعادة؛ فلم يكن هناك أدنى إجبار ولا أدنى هم، فلقد وجدت فى شخص السيدة جميلة وفى شخص الأميرات كل البهجة، وكل المحبة التى حرمت منها حتى ذلك الحين.

حينما كان ينتابنى الجوع، كنت آكل، وحينما كان ينتابنى النعاس كنت أنام، وحينما كنت أرغب فى الخروج - وهو ما كان يحدث بشكل ثابت تقريباً - كنت أخرج دون أن أسأل أحدا، دون أن أسأل عن أى شئ كان. كانت الحرية المطلقة التى حييتها فى الفندق هى حرية النسوة اللواتى كنت أشاركهن عيشهن، ولم يكن لديهن حساب الساعات، طالما أنهن سعيدات، وتبنيبنى كما لو كنت ابنتهن، أو بالأحرى دُمىة، أو أخت صغيرة جداً، وهكذا كن يناديننى. وكانت السيدة جميلة تناديننى: "يا ابنتى"، وكانت فاطمة وزبيدة وعائشة وسليمة وحورية وتغادير يناديننى: "شقيقتنا الصغرى"، لأنهن كن بحق فى عمر أمى، وكنت أنام دورياً فى كل غرفة تشغلها اثنتان من الأميرات، إلا تغادير التى كانت غرفتها دون نافذة، والتى نمت فيها اليوم الأولى. كانت للسيدة جميلة شقة على الجانب الآخر من الرواق، بها نافذة تطل على الشارع، وكنت أرقد هناك أيضاً فى بعض

الأحيان، ولكن بشكل نادر نظراً لانشغال السيدة جميلة في مكتبها المخصص للفحص الطبي، حيث كانت تأوى السيدات اللواتي لديهن مشكلة فى طفل؛ ولما كانت تتلقى المرضى، كنت أدرك أنه لا ينبغي أن أذهب لأطرق بابها. وفى مثل هذه الليالى، كانت تغلق الباب بالملزاج وكنت أرى عبر السجف الفانوس الذى كانت تتركه مشعلاً فى مكتبها، وكان ذلك بمثابة إشارة فهمتها بسرعة.

كانت الأميرات تحببني كثيراً، وكن يشركننى فى مهامهن وشئونهن، وكنت أحضر لهن الشاي فى الفناء أو اشترى لهن الحلوى من السوق أو الغليون، وأحمل رسائلهن إلى مكتب البريد؛ وفى بعض الأحيان، كن يصطحبني معهن لإجراء المشتريات فى المدينة، ليس كى أحمل حقائبهن - فلقد كان هناك دوما صببة لذلك الأمر - إنما كى أعاونهن على الشراء، ولكى أساوم فى الأسعار، فلقد كانت لالا أسماء تعلمنى أن أشتري بمساومة الباعة الجائلين الذين كانوا يطرقون بابها، فاستوعبت دروسها جيداً.

كانت زبيدة تحب أن تذهب معى إلى سوق القماش، وكانت تختار أقمشة من القطن لحياكة ثوب أو لغطاء فراش. كانت فارعة ونحيفة، لونها كالحليب، شعرها أسود فى لون السبج⁽³⁾؛ وكانت تلتف بالمنسوجات وتتقدم

(3) السبج هو مادة قيرية سوداء، وتستخدم اللفظة jais فى اللغة الفرنسية للدلالة على شدة

السواد. (المترجم)

فى الضوء وتقول لى: "كيف تربىنى؟"، وكنت آخذ وقتا حتى أجيبها، كنت أقول مجدة: هذا حسن ولكن اللون الأزرق الداكن يناسبك أكثر."

كان التجار يعرفوننى، ويدركون أننى أساوهمم بشكل لاذع كما لو كنت أنا التى تدفع، ولم يكن بوسعهم أن يخدعوننى فى الجودة، فلقد تعلمت هذا أيضا من لالا أسماء. ذات يوم منعت فاطمة من شراء حُلّية ذهبية فيروزية قائلة لها: "انظرى يا فاطمة هذا ليس بحجر حقيقى، إنما هو طرف معدن مطلى"، وضعتنه على أسنانى وقلت: "أترين؟ ليس هناك من شئ بداخله"، غضب التاجر، بَيّد أن فاطمة وبخته قائلة: "صه، إن أختى الصغرى تقول دوما الحق، انج بنفسك لأننى لن أضعك أمام القاضى".

واعتباراً من ذلك اليوم، ضاعفت الأميرات من انتباههن لى، وكن يقصصن حسن صنيعى مع كل الناس، والآن، حتى الباعة الجائلين فى الفندق، يحيوننى بوقار. كانوا يأتون إلى حتى أتوسط لى هذه وتلك، وكانوا يسعون أن يشتروننى بأن يقدموا لى الهدايا، ولكننى لم أكن أخدعُ، فقط كنت آخذ الحلوى واللوز المسكر من التاجر وأقول لفاطمة أو زبيدة: "احذريه، إنه بكل تأكيد لئيم".

وكانت السيدة جميلة تعرف كل ما يحدث، ولم تكن تتحدث عن شئ، ولكننى رأيت أنها لم تكن راضية. حينما كنت أمضى أجرى المشتريات، أو كانت إحدى الأميرات تصطحبنى للخارج، كانت تتعقبنى بنظرتها، وكانت تقول لفاطمة: "أتصحبىها إلى هناك؟" على سبيل اللوم، أو كانت

تحاول أن تأخذنى وتكلفنى بواجبات أفعلمها، صفحات أكتبها أو حساب أو علوم طبيعية، فلقد أرادت أن تعلمنى الكتابة باللغة العربية. لقد كانت تتوسم فى خيراً.

ولكننى لم أعر انتباها إلى ما كانت تريد أن تقول لى، وكنت ثملة بالحرية، فلقد حييت سجيئة لفترة طويلة، وكنت مهياة للفرار إذا ما سعى امرؤ إلى أسرى.

واليوم أجد مشقة فى الاعتقاد بأن الأميرات لم تكن أميرات، كنت أمزح معهن؛ كانت هناك زبيدة وسليمة اللتان كانتا فى مقتبل العمر، لا مباليات، تضحكان طوال الوقت، ولقد اتيتا من قرى الجبل، هاربتين، وكانتا تعيشان محاطتين بلفيف من الرجال، تمتطيان السيارات الأمريكية الأنيقة التى كانت تأتى تسمى إليهن أمام الفندق. أتذكر أنه ذات مساء، جاءت سيارة سوداء كبيرة زجاجها مطلى، تحمل علمين على جناحيها، علمان من اللون الأخضر والأبيض والأحمر والأسود أيضاً، فقالت تغادير لى: "إنه رجل ذو شأن وثرى"، حاولت أن أنظر إلى داخل السيارة، بيد أن الزجاج الأسود لم يتح لى أن أرى شئ، وقلت لها "أهو ملك؟"، أجابت تغادير دون أن تسخر منى: "إنه إنسان مهم مثل الملك".

كنت أحب وجه تغادير كثيراً، ولم تكن شابة إلى درجة كبيرة، كانت بها بعض التجاعيد الملاحظة فى ركن عينها وكأنها تبتسم، وكان جلدها شديد السمرة، به وشم صغير مخط على الجبين، وكنت أذهب معها

إلى صالة الاستحمام مرتين أسبوعياً. كان ذلك يحدث على مقربة من مصب النهر بالقرب من رصيف الشحن، وكانت تغادير تعطيني منشقة عريضة، وتأخذ معها حقيبة بها أشياء نظيفة، وكنا نمضى سوياً؛ وفي عهد لالا أسماء، لم أكن اعرف أن هناك مكان مثل ذلك، ولم أتخيل قط أن أتجرد من ملابسى أمام الأخريات.

لم تكن تغادير تحتشم البتة، تغدو وتعود أمامى عارية من ملابسها، وتحك جسدها بأحجار نصفة⁽⁴⁾، وتدعك نفسها بقفازات من الساف⁽⁵⁾؛ وكان ثديها مكتنزاً، حلمته فى لون البنفسج، وكان جلدها ينثنى على أردافها وجوفها، وكانت تنزع بعناية شعر عانتها وإبطها وأفخاذها، وكنت أبدو بجوارها زنجية صغيرة هزيلة البنية؛ وبالرغم من كل شئ، لم أكن أتمكن من إخفاء خثلى⁽⁶⁾ بمشقة.

كانت تغادير تحب أن أقوم بتدليك ظهرها وعنقها بزييت لب النرجيل⁽⁷⁾، الذى تبتاعه من السوق والذى يشيع برائحة الفانليا. وفى صالة الاستحمام العامة، كانت غيوم البخار تتدحرج خلف الأجساد، وكانت هناك

(4) أحجار نخرة توجد عادة عند مرمى الموج فى البحار. (المترجم)

(5) الساف هو جلد الحيوان. (المترجم)

(6) الخثلة هى أسفل البطن. (المترجم)

(7) لب النارجيل هو لب يعصر منه دهن النارجيل وهو من السمون النباتية الشهيرة.

(المترجم)

دوما ضوضاء من الأصوات والصراخ والهتافات، وكان هناك صبية عرايا تماماً، يهرولون على طول حوض الماء الساخن وهم يصرخون، وكان كل ذلك يجعل رأسى يدور ويحمل إلى الغثيان، وكانت تقول لى: "استمرى يا ليلى، إن يدىك قاسياتان وهذا ما يريحنى".

لم أكن أعرف ما إذا كنت أحب ذلك، فلقد كنت أمضى فى غلغلة الزيت فى ظهر تغادير، وكنت أستنشق رائحة الفانليا ورائحة العرق؛ ولكى تفيقنى، كانت تغادير تنضحنى بالماء البارد وتضحك حينما أفرّ وشعر كل جسدى منتفش.

غدوت تميمة الفندق، ربما لم تكن السيدة جميلة سعيدة لأجل هذا السبب؛ من الجائز أنها كانت تعتقد أننى كنت مُداعبة وممدوحة لحد أكثر من اللازم لدى الأميرات، وبالتالي كان ذلك ينعكف على خطر قد يفسد طابعى من فرط سماعى لهؤلاء النسوة يمتدحننى طيلة النهار قائلين: "آه لكم هى جميلة!" وبسبب استغلالى فى نزواتهن، انتهيت إلى تصديقهن، وتأقلمت بخيلاء مع نزواتهن. وكن يبهرجننى بأثواب فضفاضة، ويطلين أظافرى بالزجنفر، وشفاهى بالمسحوق القرمزى، ويزين عيناى بالكحل. كانت سليمة التى هى من أصل سودانى تهتم بتصفيف شعرى، كانت تقسم شعرى إلى مربعات صغيرة، ثم تجدها بخيط أحمر أو بعقد ملون، أو كانت تغسله بصابون جوز الهند، حتى تجعله أكثر جفافاً وانتفاخاً مثل لبدة الأسد، وكانت تقول لى أن أفضل شئ فى، هو جبهتى وأهدابى الطويلة المقوسة بشكل

باهر، وعيناي لوزية الشكل، وربما كانت تقول لى ذلك لأننى أشبهها، وكانت تغادير تخط يدي بالحناء، أو تخط على جبيني ووجنتي نفس العلامات التي كانت تضعها هي مستخدمة قذاة مبللة في سواد مصباح، وكانت تعلمني الدق على الدف وأنا أرقص في وسط غرفتها، وعندما كانت الأميرات تنصتن إلى صوت الدف الصغير، كن يأتين لأرقص لهن وأقدمي عارية على البلاط، دائرة حول نفسي إلى أن أترنح.

كنت أنفق السواد الأعظم من فترة ما بعد الظهيرة في هذه التصرفات الصبيانية؛ وفي المساء كانت الأميرات تسرحنني لكي تستقبلن زيارتهن، أو أذهب إلى غرفة من غرف أولئك اللواتي يخرجن في سيارة. وحينئذ، كانت السيدة جميلة تنظفني بطرف منشفة مبللة وتقول لى: "ماذا فعلن بك ثانية، أنهن معتوهات". وبشعرى المنتفش والكحل السائل وأحمر الشفاه الذي يطفح على وجهي، كنت أشبه، على الأرجح، دُمية مجهلة، ولم تكن السيدة جميلة تقوى على إمساك نفسها عن الضحك من مشهدى، وكنت أنام مهددة بإعصار ذكريات هذه الأيام الطويلة جداً، إلى حد أننى لم أعد أتمكن من تذكر كيف بدأت.

ظفرت حورية بإيثارى لها، كانت أكثرهن شباباً، وآخر من أتى إلى الفندق؛ وصلت قبلى ببضعة أيام، قدمت من مدينة بربرية بعيدة من الجنوب، كانت مقترنة برجل ثرى من تنجر، قهرها وأخذها عنوة، فأعدت حقيبة صغيرة ذات يوم وفرت؛ انتشلتها تغادير من شارع بجوار محطة

القطار، وحملتني إلى هنا حتى تتمكن من الاختفاء والفرار من رسل زوجها، وخشيت السيدة جميلة هذا الأمر، ولكنها وافقت شريطة أن تنصرف حورية متى زال الخطر، فلم تكن ترغب في مضايقات الشرطة.

كانت حورية قصيرة ورقيقة، كان يبدو عليها أنها طفلة تقريباً؛ أصبحنا بسرعة أصدقاء، وكانت تصطحبني معها في كل مكان، حتى في المساء، إلى المطاعم والحانات الليلية، وكانت تقدمني إلى أصدقائها وكأني أختها الصغيرة، وكانت تقول لهم: "إنها أختي، ألا تشبهني؟".

كان وجهها جميل الطلعة، متناسق، وأهدابها مرصوفة وعيناها أجمل العيون التي رأيته قطبة؛ لم أطرح عليها سؤالاً عن الطريقة التي تكسب بها عيشها، كنت أعتقد أنها تتلقى هدايا، لأنها تعرف كيف ترقص وتغني، ثم أنها كانت جميلة، فلم يكن لدى أي فكرة عما تكون عليه أي مهنة ما، وما يمكن أن يكون حسناً أو سيئاً؛ عشت كحيوان صغير مستأنس، وكنت أرى حسناً فيمن يمدحني ويداعبني، وسوءاً في كل من كان يمثل خطر على ويخيفني مثل هابيل الذي كان ينظر إليّ كما لو كان يريد أن يلتهمني، أو زهرة التي تسعى إلى بالشرطة قائلة لها أنني سرقت أم زوجها.

أكثر ما كان يخيفني هو الوحدة؛ أحياناً في نومى كنت أعيش ما حدث منذ زمن بعيد حينما أختطففت، وكنت أرى الضوء في شارع مبيض، وأسمع صيحة العصفور الأسود المتوحشة؛ أو كنت أسمع صوت العظمة التي كسرت في رأسي حينما صدمتني الشاحنة.

حينئذ كنت أتحرج فى فراش حورية، وأطبق عليها بشدة وألتصق بظهرها كما لو كان سيغشى على، وكانت هى الأولى التى قصت لى عن جذورى، حينما قصصت عليها القرط الذى نهبتة زهرة، قالت أنها تعرف أين يكون أناس عشيرتى، الهلاليين، ناس هلال القمر على الجانب الآخر من الجبل، على شاطئ نهر عريض جاف، ووددت أن أذهب إلى هناك فى هذه القرية التى دخلتها، فى الشارع الذى فى نهايته تكون أمى التى ترقب قدومى إليها.

غير أن حورية لم تمكث كثيراً فى الفندق، فلقد رحلت ذات صباح، ولم يكن ذلك من جراء زوجها، ولكن بسببى أنا.

ذات مساء، ذهبتُ إلى مطعم على شاطئ البحر مع حورية وأصدقائها، وسرنا كثيراً أثناء الليل حتى أتينا شاطئ عريض خال، وكنت فى مؤخرة مقاعد السيارة المرسيدس بجوار الباب، وكانت حورية تجلس فى وسط السيارة مع رجل، وكان هناك أيضاً رجلان فى الأمام وامرأة شقراء، يتحدثون بصوت مرتفع، وبلغة لم أعرفها، ظننت أنها من الجائز أن تكون الروسية، وأتذكر جيداً الرجل الذى كان يقود السيارة، فلقد كان طويلاً وقوياً مثل هابيل، شعره كثيف وذقنه أسود؛ وأذكر أيضاً أنه كان له عين زرقاء وأخرى سوداء. ظللنا لوقت طويل فى المطعم، ومن الجائز أن الساعة كانت منتصف الليل. كان مطعماً بهيئاً، به ثمة شعل تضى رمال الشاطئ، وكان هناك فتیان يرتدون الحلل البيضاء. أمضيت السهرة أرمق البحر الأسود،

وضوء زوارق الصيد التى تعود وضوء "فئار بعيد. كانت السيدة الشقراء تتحدث وتضحك بشدة، وكان الرجال يحاصرون حورية؛ وكانت الريح التى تمر من النافذة المفتوحة تحمل دخان الغليون. شربت خمراً خلسة؛ أسقاني سائق المرسيدس فى كأسه، خمر لذيذ للغاية، كثير السكر، يشعل الحلق؛ كان يحدثنى بالفرنسية بلكنة غريبة ثقيلة إلى حد ما يجرها على الكلمات، وكنت متعبة إلى حد أننى نمت على مقعد بالقرب من إحدى نوافذ السيارة.

ما إن أفقت حتى وجدتنى بمفردى فى مؤخرة السيارة، والسائق يميل على، ورأيت شعره المجعد المتلألئ فى ضوء المطعم. لم أدرك الأمر فى الحال، ولكنه حينما وضع يده أسفل ثوبى استيقظت؛ كنت ثملة وكان لدى رغبة فى التقيين. صرخت رغم إرادتى لما انتابنى خوف، وحينما أراد السائق أن يضع يده على فمى ضرسته وصرخت فيه وأنا أنشب مخالبى فى جسده.

أتت حورية على الفور، كانت أكثر غضباً منى، جذبت الرجل من الخلف، وضربته بقبضة يديها، وصاحت فيه بالشتائم؛ حاول الرجل أن يرد الشتائم، تقهقر على الشاطئ، وتناولت حورية حجراً غليظاً، وكادت أن تقتله لو أن الآخرين لم يأتوا؛ ظلت تسب السائق حتى بكى، وبكيت أنا أيضاً. ثم أبتعد السائق بنفسه وذهب على الجانب الآخر من السيارة، وأشعل سيجارة كما لو كان شيئاً لم يحدث، وبعد لحظة هدأ روع حورية واستطعنا أن نستقل السيارة. كان السائق يقود السيارة دون أن ينظر إلينا، يضع سيجارته فى فمه، ولم يعد أحد يتفوه بشئ، حتى أن الروسية صمتت..

أودعتنا السيارة فى السويقة، ودلفنا حتى الفندق، وكان هناك حتى هذه اللحظة أناس كثيرون فى الخارج. فى الغالب حدث ذلك فى مساء يوم سبت. كان شارع العشاق العريض ممتلئاً، كان به زوج من البشر أسفل كل مغنولية⁽⁸⁾. ابتاعت حورية فنجانيين للشاي والحلوى. كنا منهكتين، نرتعش كما يحدث على أثر حادثة، ولم نتحدث حورية عما حدث، إلا أنها قالت مرة واحدة: "أبن الكلب هذا قال لى: دعيها تنم وسوف أقوم عليها كأبيها".

علمت السيدة جميلة أمر ما حدث على الشاطئ، ولكنها لم تقر بنفسها أن ترحل حورية؛ ففى الصباح أخذت حورية حقيبتها التى كانت معها حينما التقت بها تغادير بالقرب من محطة القطار، ورحلت دون تبرير، ربما عادت إلى زوجها فى تانجر، لم أعد أعرف عنها شيئاً على مدار أشهر، بيد أن رحيلها جعلنى حزينة جداً لأنها كانت بحق كأختى إلى حد ما.

بعد ذلك اليوم، حاولت السيدة جميلة أن تمنعنى من الخروج مع الأميرات الأخريات، ولكننى مع حورية اعتدت الحرية ولم أعد أمارسها سوى فى رأسى؛ وبصحبتى لعائشة وسليمة اعتدت عادة أخرى: شرعت فى السرقة.

(8) المغنولية نبات زهرى جميل الطلعة أوراقه رائحة. (المترجم)

كان ذلك بداية مع سليمة، عندما كانت تتلقى وصديقتها في الفندق، أو عندما كانت تمضي إلى المطعم، كنت أرافقها، وكنت أتخذ جانباً، متقلصة إلى الباب كالحيوان مترقبة اللحظة. كان صديق سليمة فرنسياً، مدرساً للجغرافيا في المدرسة الثانوية، أو شئ من هذا القبيل، وكان رجلاً حسن الملبس، يرتدى حُلة من قماش الفلانيل الرمادي وصدره وحذاء أسوداً مطلياً طلاءً حسناً.

كانت له عادة مع سليمة، كان يصطحبها في البداية لتناول وجبة الغذاء في مطعم بالمدينة القديمة، ثم كان يحملها إلى الفندق، وكان يقيم في الغرفة التي ليس بها نافذة، وكان يحمل إلى الحلوى ويعطيني في بعض الأحيان قطع النقود، وكنت أظل جالسة أمام الغرفة ككلب حراسة، وفي الواقع كنت أنتظر كثيراً حتى ينهمكان وأدخل الغرفة بخفة متناهية، ثم أُنْدَس في الضوء الخافت حتى أصل إلى الفراش، ولم أكن أهتم بما تفعله سليمة مع الفرنسي، كنت أبحث عن ملابسه، فقد كان المدرس رجلاً يعتنى بهندامه، فكان يطوى البنطال ويضع حبلته وصدرته فوق مسند مقعد، وكانت أصابعي تتدحرج في الجيب كحيوان صغير خفيف الحركة، وتأخذ كل ما تعثر عليه: ساعة بصلية الشكل، خاتم من الذهب، حافظه نقود منسوجة من أوراق البنك ومليئة بالنقود، قلم أزرق مطلق بالذهب، وكنت أحمل غنيمتي إلى الرواق حتى أتفحصها في ضوء النهار، وأختار منها بضعة أوراق

وبضعة نقود؛ ومن وقت إلى آخر، كنت أحتفظ بشئ يعجبني، أزرة حاشية قميص من عرق اللؤلؤ أو القلم الأزرق الصغير.

أظن أن المدرس انتهى إلى الشك في شئ ما، ذلك أنه، ذات يوم، أهداني سواراً من الفضة في علبة صغيرة، وحينما قدمه إلى قال: "هذا حق لك"؛ كان رجلاً عطوفاً معي، فكنت في خجل من نفسي لما فعلت، وفي ذات الوقت، لم أكن أقدر على حبس نفسي عن إعادة الكرة، وكنت أفعل ذلك ليس لروح شريرة بي، وإنما على سبيل اللعب، فلم تكن لدى حاجة إلى النقود، سوى أن أشتري هدايا لسليمة وعائشة أو للأميرات الأخريات، ولم تكن النقود تفيدني في شئ.

ظلمت أسرق بصحبة عائشة في المتاجر، كنت أصحابها إلى وسط المدينة وأدخل معها إلى المتجر، وبينما كانت تنهمك في شراء الحلوى، كنت أملاً جيوبى بكل ما أجد من الشيكولاته وعلب السردين والبسكويت والعنب المجفف؛ وما إن كنت أبليغ خارج المتجر، حتى كنت أنقب سعيّاً عن فرصة، فلم أعد حتى في حاجة إلى صحبتها. كنت قصيرة سوداء البشرة، وكنت أعلم أن الناس لا يعبثون بي، ولا يمكن رؤيتي. ولكن في السوق، لم يكن هناك من شئ أفعله، كان التجار يعرفونني وكنت أحس أن عيونهم ترقب كل حركاتي. كنت أذهب وعائشة إلى مكان بعيد جداً حتى حى المحيط حيث تقام فيلات رائعة وأبنية كلها حديثة البناء، وحوادث. كانت عائشة تحب أن

سمكة من ذهب (52)

تتجول كثيراً في المراكز التجارية، وفي هذه الأثناء، كنت أمضى إلى دار المقابر كي أرمق البحر.

وفي هذا المكان كنت أشعر بأننى فى مأمن، كان الجو ساكناً وصامتاً، لأنرى فيه ازدحام المدينة، وكان يبدو لى أن ذلك هو فضائى منذ الأبد. كنت أجلس فوق أكمة المقابر وأستنشق رائحة عسل النباتات الصغيرة كثيفة الأوراق، ذات الورود الروزية، ثم أتلمس الأرض براحة يدى حول المقابر.

فى هذا المكان، كان بوسعى أن أتحدث مع لالا أسماء، لكننى لم أكن أعرف البتة أين دُفنت؛ كانت يهودية ولهذا السبب لم يكن ينبغى لها أن تدفن بين المسلمين؛ غير أن هذا الأمر لم يكن له أهمية بالنسبة لى، لقد كنت أشعر بأننى على مقربة منها، فى دار المقابر هذه، وأنه بوسعها أن تسمعنى. قصصت عليها حياتى، ليس كل شئ، مقتطفات فحسب، ولم أurd الدخول فى تفاصيل، فقلت: "يا جدتى لن تكونى فخورة بى، أنت التى كانت تقول لى دوما أنه ينبغى أن نحترم متاع الآخرين، وأن نقول الحق، ها أنا الآن أكبر اللصوص وأكبر كاذبة على وجه الأرض".

حزنت للحدث إلى لالا أسماء عبر الأرض، وكنت أزرف الدمع ولكن الريح كانت تجففه فى الحال، كل شئ أصبح طيباً للغاية فى هذا المكان: أكمة المقابر المغطاة بالزهور الوردية الصغيرة، وأحجار المقابر البيضاء التى لا تحمل أسماء، والآيات القرآنية المحاة، والبحر الأزرق الذى يرى من بعيد،

وطيور النورس المعلقة فى السماء، والتي تنزلق على الريح وترشقنى بعين حمراء وماكرة. كانت هناك سناجب بدار المقابر، ويبدو أنها كانت تخرج من المقابر، كانت تعيش مع الموتى، ربما كانت تأكل أسنانهم كما تأكل الجوز.

لم ينتابنى قط الخوف من الموتى، فلأنى رأيت لالا أسماء هاوية على بلاط الصالة تغط وتقرقر، أعطانى هذا الأمر فكرة عن أن الموت عبارة عن سبات عميق، فلم يكن الموتى هم الذين أخشاهم فى دار المقابر.

ذات يوم، ظهر لى عجوز ضارب فى العمر، له لحية بيضاء؛ من الجائز أنه كان يرقبني منذ وقت طويل، تسمر بجوار مقبرة كما لو كان قد خرج منها، وعندما نظرت إليه مرر يده أسفل ثوبه ثم رفعها وأبان عن نفسه. فكر أنه ربما خوف ينتابني وأصيح؛ غير أننى فى الفندق كنت أرى رجال عرايا تقريباً كل يوم، وكنت أنصت لمداعبات الأميرات حول موضوع أعضاء الرجال التي كن يحكمن عليها عامة أنها غير كافية إلى حد ما.

طاب لى أن ألقى بحصوة على العجوز وفرت وسط المقابر، بينما كان يسبني ويمسك ببابوجه محاولاً تتبعى قائلاً: "أيتها الساحرة الصغيرة!"

– "أيها الكلب العجوز!"

فى هذا اليوم فهمت أنه ينبغى ألا ننخدع بالمظهر، وأن عجوز فى ثوب أبيض ولحية أنيقة يمكن فى الغالب ألا يكون سوى جرو لثيم..

كان حى المحيط مكاناً مهيئاً للسرقة، فكانت هناك متاجر رائعة، بها أشياء للأثرياء فقط، كما لو كان المرؤ لا يجدها فى جانب سوق المدينة القديمة. فى السويقة، لم يكن هناك سوى نوع من البسكويت، نوع من المضيقة، وكشراب، فقط الفانتا بعصير البرتقال أو البيبسى؛ أما فى متاجر حى المحيط، كان المرؤ يجد علب من عصير بأسماء مدونة باليابانية والصينية والألمانية، لها مذاق جديد غير معروف، كالتمر الهندى والكيوى⁽⁹⁾ والجوافة، وكنا نجد سجائر من كل البلدان حتى السجائر الطويلة السوداء ذات الطرف الذهبى التى كنت أشتريها لعائشة، والشيكولاته السويسرية التى كنت أسرقها من العرض فى المحلات.

كنت أدخل إلى المتاجر خلف عائشة، وأقوم بجولة، وأخرج وجيوبى ممتلئة. لم يكن الناس يعرفونى، فلم يكونوا يحذروننى. كان يبدو على أُننى فتاة صغيرة عاقلة. فى ثوبى الأزرق ذى العنق الأبيض، والشريط الأبيض فى شعرى الكث، وعينى الساجتتين. اعتقدوا أننى قاطنة جديدة فى الحى، وأننى أصطحب أُمى التى تعمل فى الفلل، ولاحظت أن الكثير من الناس بسطاء، لم يستوعبوا الدرس بسرعة مثلى، كانوا يعتقدون بداية فيما يرون، وفيما يقال لهم، وفيما يجعلهم يعتقدون فيه الآخرون. كنت فى الرابعة عشرة من عمرى، وكان يبدو على أُننى فى الثانية عشرة، وكنت أعلم

(9) ثمرة حلوة المذاق. (المترجم)

من الجن، هكذا كانت تقول لى تغادير، وربما كان لديها الحق فى قولها هذا، وكانت تتشاجر مع سليمة وعائشة وكانت تعاملهن كقوادات.

أعتقد أنه لم يكن لدى أى معنى للتقدير والسلطة، فلقد كنت أخطر بنفسى فى أسوأ المتاعب؛ وفى أثناء هذه الفترة من حياتى، تشكل طابعى وأصبحت غير قابلة للتكيف مع أى شكل من النظام، مائلةً لعدم الإذعان إلا لرغباتى فاكتمست نظرة قاسية.

وضعت السيدة جميلة فى حساباتها أن تلك الأمور لن تدوم، لكنها لم تعتاد الأطفال أو بمعنى آخر، كانت الأميرات بمثابة أطفالها؛ ولكى تصحح الانحدار السئ الذى تركتني اكتسبه، أرادت أن تدون اسمى فى المدرسة، ولكننى لم أكن أتحدث العربية بشكل جيد حتى أتمكن من دخول مدرسة بلدية، وكان عمري متقدماً جداً على الدخول فى مدرسة أجنبية، وإضافة إلى ذلك، لم يكن لدى أى مستند يدل على شخصيتى، فاختارت لى شيئاً من قبيل المدرسة الداخلية، حيث كانت هناك امرأة جافة شرسة تدعى الآنسة روز تأخذ على عاتقها مسؤولية اثنتى عشرة صبية عضال. وفى الحقيقة، كان ذلك المكان بمثابة دار إصلاح على الأرجح. كانت الآنسة روز راهبة فرنسية نزعمت عنها لباس الرهبنة، وراحت تعيش مع رجل أصغر منها سنّاً يكرس وقته للحسابات وأمانة الصندوق.

كان السواد الأعظم من الفتيات لهن ماضٍ محمل أكثر من أى ماضٍ، فكن إما هاربات من منازلهن، وإما لهن عشاق، وإما خطبن وجعلتهن أسرهن

حببيسات الدار حتى تتيقن من خاتمتهن؛ أما أنا فقد كنت حرة بجوراهن غير مهمومة، ولم أكن أخش شيئاً، ولم أبق سوى بضعة أشهر لدى السيدة روز. أساس التربية في الداخلية كان ينص على تكليف الفتيات في أعمال الحياكة والكي وقراءة كتب عن الأخلاق، وأعطتنا الآنسة روز بعض دروس اللغة الفرنسية ودرس لنا المحاسب الوسيم ببخل شديد أهم أفكار في الحساب والهندسة.

عندما كنت أصفُ للأميرات عبودية الفتيات المضطرات إلى كنس وتنظيف أرض الداخلية، أو عندما كنت أقص عليهن أن أصابع الفتيات تحترق بآلات كواء الملابس، أو من مماسك الطناجر، كانت الأميرات تسخطن. أما بالنسبة لي، فلم تكن المسألة أن أزين أى شئ كان، أو أن أقوم بأعمال النظافة، فلقد فعلت كل ذلك للآلاء أسماء، لأنها كانت جدتي، وكنتُ مدينة لها بحياتي، ولم يكن الأمر أن أعيد الكرة كي أثال إعجاب فتاة طاعنة في السن تتقاضى أجرها بصرف النظر عن هذه الأشغال. كنت أسعد بالمكوث جالسة على مقعدى، أستمع إلى دروس الآنسة روز التى كانت تقرأ بصوتها الأبح "الزيرُ والنملة"⁽¹⁰⁾ أو "حلم الياغور"⁽¹¹⁾. ولم أعلم الكثير في داخلية

(10-11) إحدى حكايات لافونتين الشعرية Les Fables ، كتبت في القرن السابع عشر، التي يحاول فيها أن يسرد قصة على لسان الحيوانات للخروج بموعظة أو حكمة، ولقد حاكى فيها المؤلف الإغريقى إيزوب، وهناك دلائل على تأثر صاحب هذه الحكايات بكليلة ودمنة.

الآنسة روز، ولكننى تعلمت أن أقدر حرىتى، وقطعت عهداً على نفسى حينئذ، أنه مهما حدث لن أدع نفسى مطلقاً تُسلب هذه الحرية.

فى نهاية هذا الفصل الدراسى فى الداخلية، أتت الآنسة روز بشخصها إلى الفندق حتى تتبين، بلا شك، الوسط الذى صنع إنسان سى الطباع مثلى، وكانت السيدة جميلة فى جولة خارج الفندق، فقابلتها كل من سليمة وعائشة وزبيدة فى الرواق بملابسهن المنزلية الطويلة المصنوعة من قماش الموصلى الملون وأعينهن مفعمة بالكحل؛ وقلن لها: "نحن عماتنا"؛ وأمامها هى التى لم تصدق بأذنيها وعينيها، أثقلننى بالشكوى فقلن أننى كاذبة، سارقة، سليطة، كسولة، وأننى إذا ظللت لدى الآنسة روز سأعرض كل الفتيات الداخليات للهروب أو أحرق الداخلية بآلة كى الملابس، وهكذا طُردت من الداخلية. آلمنى ذلك قليلاً، بسبب كل النقود التى خصصتها السيدة جميلة لتربيتى، لكنه لم يكن بوسعى أن أعاقب بالأشغال الشاقة كى أرضيها فحسب.

وهكذا بعد شهور انقطاع، عثرت على حرىتى، التسكع فى السويقة، فى حى المحيط الثرى، فى دار المقابر الكبيرة أمام البحر؛ غير أن سعادتى كانت قصيرة الأمد. حينما عدت ذات ظهيرة من غزوة وجيوبى ممتلئة بأشياء غير ذات قيمة لأميراتى، قبض علىّ رجلان يرتديان خُلَى زُرّقاء فى مدخل الفندق، ولم يكن لدى الوقت كى أصرخ أو أطلب النجاة. مسكانى، كلاهما من ذراع ونهضا بى والقيانى فى شاحنة صغيرة زرقاء،

نوافذها محروقة. حدث ذلك الأمر وكأن كل شئ يعيد الكرة، أصبحت مشلولة بالخوف من جديد، كنت أتذكر الشارع الأبيض الذى ينفلق على نفسه والسماء التى تتوارى. كنت مكورة فى قاع الشاحنة الصغيرة، رُكبى ترتفع إلى جوفى ويداي متكئة إلى أذنى وعيناي مغلقتان، أصبحت من جديد فى الحقيبة الكبيرة السوداء التى كانت تبتلعنى.



حى المحيط

لم تكن لدى أية فكرة عما حدث لى، ولكننى فيما بعد، أدركت ما حدث: تعقبته شُرطة زهرة ونصبت لى فخاً. كل المتاجر التى سرقته كانت تبحث عنى. مثلت أمام قاضى الأحداث، كان رجلاً هادئ الطباع، يتحدث بصوت منخفض للغاية؛ وبما أننى كنت أجيب بنعم على كل الأسئلة، بدوت له مذنبة؛ لكنه أراد أن يسألنى أيضاً عن الفندق، عما تفعله السيدة جميلة والأميرات، وبما أننى لم أجب بشئ فى هذا الصدد، غضب ولكن دائماً بلطف جم. كسر فحسب القلم الرصاصى الذى كان يقلبه بين أصابعه وهو ينظر إلى، كما لو كان يريد أن يفهمنى أنه بوسعه أن يكسرنى أنا أيضاً بحركة منه.

وخلال أيام عديدة، تم استجوابى، ثم أرسلت إلى غرفتى التى كانت نوافذها مسيجة، فكانت كمدرسة أو مبنى ملحق بمستشفى.

ثم سلمنى إلى زهرة، ولو كان قد ترك لى الاختيار بين زهرة والسجن، لاخترت السجن، لكنه لم يمنحنى الاختيار.

فى هذا الوقت، كانت زهرة وهابيل عظمة يقيمان فى مبنى جديد فى مخرج المدينة، وسط الحدائق الكبرى؛ كانا قد باعا دار الملاح، ووافقت زهرة على أن تترك أمها وأباها لتأتى وتعيش فى هذا الحى الراقى.

فى البداية، كانت زهرة وهابيل عطوفين معى، وكانا يفعلان ذلك معى وكأنهما قد قررا أن ثمحى الشكوى، وكل الماضى، وأن نبدأ بأسس جديدة، وربما كانا يخشيان أيضا السيدة جميلة، أو كانا يشعران أنهما مراقبين.

بيد أن طبيعتهما عادت بسرعة، فبعد مرور وقت ما، عادت زهرة شريرة معى، فكانت تضربنى، وتصيح فى أننى لست سوى خادمة، خادمة لا تفعل شئ، فى الواقع. كانت تتخذ أقل الزرائع حتى تمضى فى غضبها الوحشى، لأننى كسرت قصعة زرقاء، أو لأننى لم أغسل العدس، أو لأننى تركت أثراً على بلاط المطبخ.

لم تكن تدعنى أمضى خارج الدار، وكانت تقول أنه هناك أمر من القاضى ينص على أن أتوقف عن أى ممارسة سيئة. حينما كان يلزم لها المضى خارج الدار، كانت تحبسنى فى الشقة مع كومة الملابس التى فى حاجة إلى

الكى. وذات يوم، صهبت ياقة قميص من أقمصه هابيل، ولكى تعاقبنى
حرق زهرة يدي بالنار. كانت عيناى مفعمة بالدموع، ولكننى كنت أشد
على أنيابى بكل ما أوتيت من قوة حتى لا أصيح، فكدت أفقد نفسى، كما لو
كان شخص ما ضغط على حلقى، ولكنه لم يغشى على. وحتى اليوم يوجد على
يدى مثلث أبيض لن 'يمحى أبداً من أثر تلك الواقعة.

كنت أظن أننى ساموت من الجوع، ولم يكن هناك شئ آكله، وكانت
زهرة تطهى الأرز لجرو صغير كان لديها، كلب من نوع الشتنرو⁽¹⁾، شعره
طويل، لونه أبيض أقرب إلى الصفرة؛ كانت تسقى الأرز بحساء الدجاج، وكان
هذا كل ما تعطينى إياه، كان طعامى يقل عن طعام جروها الصغير، فكنت
أختلس، من وقت إلى آخر، حبة فاكهة من المطبخ، وكان هناك خوف ينتابنى
من ما يمكن أن يحدث إن لمحتنى. كانت قدمائى وذراعى مدثرة باللون
الأزرق من جراء ضرباتها لى بالزئار، لكننى كنت أتضور جوعاً إلى حد أننى
كنت أسرق من خزانة المطبخ السكر والبسكويت والفاكهة.

ذات يوم، كان لديها مدعوين على الغذاء، أسرة فرنسية يطلق
عليها الدلاهاى، فاشتريت لهم عنقود عنب أسود كبير من متجر كبير فى جى
المحيط؛ وبينما كانوا يأكلون المشهيات، كنت أرقب فى المطبخ وأكل الكرم. ثم
لاحظت أننى التهمت كل الحبوب المتراصة على العنقود. حينئذ، وحتى

(1) جنس الكلب أو فصيلته. (المترجم)

أوجل لحظة اكتشافهم للجريمة، وضعت محاشر من الورق أسفل العنقود بطريقة يبدو بها أنه مكتنز في الطبق، وكنت أعلم أن الأمر سيُكتشف، إن أجلاً أو عاجلاً، ولكن الأمر كان فيه شراً لي، فلقد كان الكرمُ لذيذ المذاق، حلو وشذى كالعسل.

في نهاية الغداء، حملتُ الكرم، وطلب المدعوون أن أمكث معهم، وقالوا لزُهرة عنى: "إنها محميتك الصغيرة".

كانت زُهرة تتصنع، فنزعت عنى ملابسى الرثة والبستنى الثوب الأزرق ذا الياقة البيضاء الذى كان بحوزتى فى دار لالا أسماء. كان الثوب قصيراً إلى حد ما، وضيئاً جداً، لكن زُهرة تركت الزلاقة منفرجة، وربطت ستارة فوقها، ثم إننى أصبحت نحيفة للغاية.

كان المدعوون يقولون: "إنها رائعة؟، إنها جذابة؟، كل تهانينا لكم"، وكان الفرنسيون لطفاء، وكان السيد دلاهاى ذا عينين زرقاوتين شديديتين الصفاء بارزتين على وجهه البرونزى؛ وكانت زوجته شقراء، يشتريها حمراء قليلاً، غضة كثيراً. وددت كثيراً فى أن أطلب منهم أن يحملوننى معهم، ويتبنوننى، ولكننى لم أكن أعرف كيف أقول ذلك لهم؛ أردت أن يطالعوا يأسى فى نظراتى وأن يفهموا كل شئ عنى.

بالطبع، فى لحظة تناول الحلوى اكتشفت زُهرة أسفل العنقود المأكول وحشو الورق، فلفظت اسمى، وكانت أطراف ساق العنقود منزوعة الحببات ومنتفشة كالشعر، إلى حد أن عنقود العنب بدا عليه الخزى.

قالت السيدة دلاهى: "لاتنهرىها، إنها طفلة، ألم نفعل نحن شيئاً من هذا القبيل حينما كنا أطفال؟". كان زوجها يضحك علناً وكان هابيل يطلق بسمة غامضة؛ ولم تتظاهر زهرة بالضحك، ألقت على نظرة سيئة وبعد رحيل الفرنسيين، مضت تبحث عن الحزام الثقيل ذا البزيم النحاسى وقالت لى: "عن كل حبة سوط"، ضربتنى حتى سال دى.

وبفضل عائلة الدلاهى تمكنت من الخروج من الشقة، فلقد هتفت السيدة دلاهى إلى زهرة ذات يوم قائلة لها: "قولى لى ياعزيزتى، أتعيرننى لوقت قصير محميتك الصغيرة، إنك تعلمين لكم أنا فى حاجة إلى من يعاوننى فى الدار، وفى ذات الوقت سيمكنها ادخار قليلاً من نقود جيبتها".

فى البداية، رفضت زهرة متزرعة بأشياء مختلفة، لكن السيدة دلاهى عابتها على ذلك قائلة: "أتمنى ألا تسجنىها"، فانتاب زهرة شئ من الخوف، وظننت أن هناك تهديد وراء مزاح السيدة معها، ولذا تركتنى أذهب إليها، مرة ثم مرتين فى الأسبوع.

كانت أسرة الدلاهى تستأجر داراً أنيقاً فى حى المحيط، وكانت شركة هابيل هى التى قامت بأعمال الدهان والإصلاح للدار. وكان هذا الدار مكاناً هادئاً، به حديقة مزروعة بأشجار البرتقال وأشجار الليمون وسياج دفل⁽²⁾. كان هناك الكثير من العصافير، وأحسست أننى على ما يرام فى دار

(2) الدفل: نبات يغرس بجوار السياج لتزيين أسوار المنازل. (المترجم)

الدلاهاى؛ كان يبدو لى أننى عثرت على الهدوء الذى عرفته فى طفولتى فى الملاح عندما كانت الدنيا تنحصر فى فناء لالا أسماء الأبيض.

كانت جوليت دلاهاى حنونة معى؛ حينما كنت آتى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، كانت تقدم لى الشاى والحلوى الصغيرة من علبة معدنية حمراء، وعلى الأرجح أنها كانت تشك فى أنى لا أكل بشكل كاف لدى زهرة، حينما كانت تلاحظ أننى أسرع نحو الخشكان⁽³⁾. أظن أنها تعرف ماضى، ولكنها لم تكن تتحدث عنه، فعندما كنت أمرر خرقة الأتربة فى غرفتها، كانت تترك كل حليها بشكل واضح على الصوان، وكذلك قطع من النقود الصغيرة، بينها قطع معدنية نقدية؛ وأعتقد أنها وضعتنى تحت الاختبار، فمنعت نفسى من الاقتراب من هذه القطع؛ كانت تحصى النقود بعد مرورى، ومن مرح صوتها كنت أعلم أنها سعيدة لأنها وجدت قطع النقود كلها؛ ولكنها بينما كانت تفعل ذلك، كان بوسعى أن أفتش جيوب حُلّة زوجها المعلقة فى الشراع فى بهو البيت.

كان السيد دلاهاى مسناً إلى حد ما، أنفه عريض، ونظاراته كانت تضخم عينيه الزرقاوتين، وكان حسن الملبس، يرتدى دوماً حُلّة رمادية اللون، غامقة، مزينة بكرة حمراء على العروة، وحذاء من الجلد الأسود مطلى طلاءً حسناً. كان فى السابق رجلاً هاماً، سفيراً أو وزيراً لا أعرف؛ أما

(3) هو البسكويت الخشن. (المترجم)

أنا، فلقد كنت معجبة به، كان يناديني: "صغيرتى" أو "آنستى"، ولم يكن هناك مطلقاً من يخاطبني بهذه الطريقة؛ كان يخاطبني بلغة المفرد، لكنه لم يكن يعطينى أبداً الحلوى ولا النقود. أما هوايته فكانت تتمثل فى التصوير الفتوغرافى، فكانت هناك صور فى كل مكان فى داره، فى الممرات والصالة والغرف، حتى فى المرحاض.

ذات يوم، دعانى إلى مشغل التصوير؛ كان عبارة عن مبنى صغير ليس به نوافذ، يقع فى طرف الحديقة، كان يُستخدم كمقر سيارات قبل أن يهيئه لعمله، وفى هذا المكان، كان يحمض ويستخرج الصور الفتوغرافية.

ما أدهشنى فى مشغل الصور الفتوغرافية، هو صور قرينته المعلقة على الحائط؛ صور قديمة إلى حد ما، كانت تبدو فى ريعان الشباب، تبدو مجردة من ملابسها، بها ورود مغروسة فى شعرها الأشقر، أو فى لباس بحر على شاطئ، لقد التقطت لها هذه الصورة فى بلد آخر، فى جزيرة بعيدة، حيث ترى أشجار النخيل والرمال البيضاء والبحر فى لون فيروزى. ذكر لى الأسماء، يبدو لى أنها مانورافا أو اسم من هذا القبيل، وكان هناك أيضاً على الحائط شيئاً عجباً من الجلد الأسود، مزين بمسامير من نحاس عدته بداية سلاحاً، مقلاعاً أو خطاماً؛ وحينما شاهدت الصور دهشت للتحقق من أن ذلك هو سائر عورة السيدة دلاهاى الذى علقه زوجها هنا على سبيل الغنيمة.

اعتدت أن أرى النساء عاريات، فى صالة البخار مع تغادير، أو عندما كانت عائشة أو فاطمة تتجولان فى الحجر، وبالرغم من ذلك، فقد

كنت أستحي أن أرى هذه الصور باللون الأبيض والأسود لدام دلاهاى، كانت ممددة وعارية تماماً فوق شرفة فى الشمس، وأسفل جوفها، كانت عازنتها تكوم قطعة مثلثية سوداء تتعاكس مع لون شعرها. كان السيد دلاهاى يرقبني من خلف نظارته بضحكة غامضة، اعتقدت أيضاً أن ذلك كان بمثابة اختباراً لى، فأخفيت خجلي، إذ كنت أرغب كثيراً فى نيل رضاها.

عدت إلى مشغل الصور الفتوغرافية مرات عديدة، وكان السيد دلاهاى يشرح لى تقنية استخراج الصور، وحمامات التحميض، وكيف نأخذ الصورة باللقاط ونعلقها بخيط حتى نتركها تجف. كنت أحب كثيراً أن أظهر الأوجه فى الدلو، وببطئ تصبح شيئاً فشيئاً سوداء. كان هناك أوجه نساء وأطفال ومشاهد من الشارع، وفتيات أيضاً فى أوضاع غريبة بالثوب المفتوح الذى يتدلى على الكتف والشعر المتهدل.

كان السيد دلاهاى يقول لى أننى ذكية وأننى موهوبة فى التصوير؛ وتحدث بشأنى إلى السيدة دلاهاى بحماس وقال أنه ينبغي أن نلحقها بمعمل تصوير، وأنه بوسعى أن أأخذ من ذلك مهنة لى. أما أنا، فلقد كنت أنظر إلى هذه المرأة الراقية للغاية وأود لو أذهب عن رأسى قطعة الجلد الأسود التى تتدلى على حائط مشغل الصور، فقلت لنفسى إن ذلك لا يمثل شيئاً، وأنسهما على الأرجح قد نسياه، كما ينسى المرء ويعلق قبعته فى مسمار مثبت على الحائط وهو يمشى.

ذات بعد ظهر ظهيرة، فى بداية فصل الصيف، كان الطقس حاراً للغاية فى خارج الدار، فذهبت كعادتى بعد نهاية مهمامى كى أعمل قليلاً فى

استخراج الصور، وكان السيد دلاهاى منهمكاً وقد علق حُلته على عَلاَقَة ملابس، ولم يكن يشعل الضوء الأحمر وقال: "اليوم لدى الرغبة فى تصويرك"، كان ينظر إلى نظرة غريبة؛ وقال ذلك كما لو أننا اتفقنا على هذا الأمر مسبقاً، لكننى لم أكن أرغب فى أن يلتقط لى أحد صوراً فوتوغرافية، فلم أحب مطلقاً هذا الأمر، أذكر أن لالا أسماء كانت تقول إنه من السوء أن يلتقط صوراً للمرأة، لأن ذلك يهلك الوجه؛ وفى ذات الوقت، كنت سعيدة أن تحزو الرغبة رجل كالسيد دلاهاى فى تصوير فتاة سوداء مثلى..

أشعل مصابيح ذات الكلابية، ووضع منضدة منخفضة أمام ملاء كبيرة بيضاء مثبتة على الحائط بمسامير، ثم أعد كل هذه التجهيزات، وعلى الأرجح أنه فكر فى هذا الأمر منذ وقت طويل، فلقد كان وجهه جاداً عملياً، وجبينه يلمع بالعرق من حرارة المصباح، ثم أجلسنى على المنضدة المنخفضة وجعل نصفى الأعلى مستقيماً جداً.

ثم شرع فى التقاط الصور لى، واضعا آلة التصوير على قدمه حيث كان يسطع ضوء أحمر، وكنت أنصت إلى صوت صمام الآلة، وكان يبدو لى أننى أسمع صوت استنشاقه ونفسه الربوى، فكان ذلك الأمر غريباً. لم يكن ينتابنى مطلقاً خوف منه، وأحسست فى نفس الوقت أن قلبى يدق بقوة كما لو كنت فى طريقى لفعل شئ محرم وخطير.

توقف، رأى أن شعرى لم يكن مصففاً بطريقة حسنة، أو رأى أن شعرى لم يكن متهدلاً بشكل كاف؛ نزع عنى العصابة التى كانت زهرة

تجبرنى على وضعها، ثم بلل شعرى بالماء البارد وجففه بآلة تصفيف شعر من ماركة بابيليس، فأحسست بالهواء الساخن على عنقى والماء البارد الذى كان يسرى على رقبتى، ويبلل ثوبى. فى هذه الأثناء، كان السيد دلاهاى يبدو غريباً بحق، كان يشبه هابيل عندما حاصرني فى حوض الغسيل فى فناء لالا أسماء؛ تصبب عرقاً، وكانت نظراته لامعة متفحصة، وبياض عينيه كان أحمر اللون قليلاً. فكرت فى أن زوجته من الممكن أن تصل بين لحظة وأخرى، وأن ذلك سيغضبها. فى لحظة ما، ذهب نحو الباب، ونظر للخارج، ثم أغلق على الباب وأدار المفتاح فى القفل. كان ذلك الأمر بمثابة شئ غريب يشبه الأشياء الغريبة التى حدثت لى من ذى قبل، من السيدة جميلة إلى الآنسة روز ثم زهرة. ومنذ هذه اللحظة، شعرت بأننى لست على مايرام، وكان قلبى يدق بسرعة شديدة، وأحسست بعرق من القلق الذى استشرى فى جنباتى وعلى طول ظهري.

بداء السيد دلاهاى فى التقاط الصور، وقال لى شيئاً ما حول ثوبى، إنه لا يناسبنى، وإنه مبلى للغاية. كان يريد شيئاً، يتفق مع وجهى، شيئاً أكثر همجية وبربرية وأكثر حيوانية، فكأزرار ثوبى وجوف الرقبة؛ وأحسست بيده على رقبتى وكتفى، وأحسست بنفسى، فكنت أنأى عنه وأميل بنصفى الأعلى. على الأرجح كان الغضب فى عينى، ذلك أنه رجع للخلف وأخذ فى ترديد العبارات مكرراً: "هكذا رائع، إنك رائعة". ومن وقت إلى آخر، كان يمر خلفى، ينزع زر من أزرة ملابسى ويدحرج الثوب قليلاً من على أكتافى، ولكنه كان يلمسنى بالكاد، وكنت أشعر بهواء استنشاقه فى عنقى.

وفى لحظة ما، لم أقو على التحمل، وملكنى الغثيان، فنهضت دون أن أصلح من شأنى، هرولت حتى الباب. وبما أن المفتاح لم يكن فى القفل، عدت. كان السيد دلاهاى متصبلاً أمام آلة تصويره، بدا عليه التفكير، كان على وجهه انطباع غريب عنى، كما لو كان يأسف كثيراً، ولم أعرف ماذا أقول، وبصوت غضوب قلت: "إن لم تدعنى أخرج فسوف أصبح"، ففتح لى الباب، وأبتعد عنى كما لو كنت عقرباً، وقال لى: "ماذا بك؟ ماذا فعلت بك؟ لم أرد أن أخيفك، أردت أن التقط لك صورة فحسب"، لم أنصت إليه، ورحلت مسرعة، وخرجت من الدار دون أن أقول "إلى اللقاء" للسيدة دلاهاى، وكان قلبى يدق بشدة، وشعرت بنيران فوق وجنتى وفوق رقبتى حيث مرر هذا الرجل أنامله.

انتهيت بالعودة إلى دار زهرة، ولم يكن هناك أحد، انتظرت عودتها وأنا على السطح، ولم تضربنى مخالفة لعادتها، ولم تطرح على أى سؤال. وببساطة لم أعد أرى عائلة الدلاهاى، وأعتقد أنه اعتباراً من هذا اليوم قررت أن أرحل، أن أذهب إلى مكان بعيد على قدر استطاعتي، فى نهاية الدنيا وألا أعود مطلقاً؛ وفى هذه الفترة أيضاً قررت زهرة أن تخطبنى إلى شخص ما.

لم أدرك على التو أنها دبرت هذا المشروع، ولكننى لاحظت أننى منذ لم أعد أذهب إلى عائلة الدلاهاى، كانت زهرة أكثر عطفاً على، لكنها ظلت تسجننى فى الشقة، ولكنها لم تعد تضربنى، بل كانت تعطينى كميات أكثر من الطعام، وعلى غير المعتاد كنت أقتسم الطعام مع الشتزو، وكان لدى

الحق فى حبة فاكهة من حين إلى آخر، حبة موز، أو تفاحة، أو تمر محمص؛ حتى أنها ذات يوم أعطتنى العلبة الصغيرة الحجم التى تحتوى على القرط الذهبى وهلال القمر الذى يحمل اسم عشيرتى والذى تركه لى لصوص الأطفال عندما باعونى إلى لالا أسماء، وقالت لى: "هذا لك، كنت أحتفظ به حتى لا تخاطرى بفقده، وهذه إرادة أمى وكيف لا أتبعها؟". كنت أسأل نفسى دوماً لماذا تفعل ذلك، إن التفسير الوحيد الذى عثرت عليه، هو أن لالا أسماء ظهرت لها فى منامها وقالت لها أن تفعل ذلك، فلقد كانت زهرة تتصور أن روحها شريرة.

كانت كثيراً ما تأتى السيدة دلاهاى كى تطلبنى، ولكن زهرة لم تكن تُرد أن أراها، إضافة إلى ذلك، كنت قانعة بزهرة لحد كبير، وتعلمت فجأة أن أمقت هؤلاء الناس الطيبين المذهبين، بسبب قصة ساتر العورة وصورهم الشاذة.

ثم كان هناك هذا الرجل الذى جاء الآن إلى الدار، كان شاباً، موظفاً فى بنك، أو شئ من هذا القبيل، متكلفاً للغاية، وعلى الأرجح أن زهرة قالت له أننى أتحدث العربية بصعوبة، فكان يخاطبنى بفرنسية مهجورة رسمية تولد لى الرغبة فى الضحك. كانت زهرة تقدم له شايًا فى الصالة، وتحضر له طفاة غليون، حتى لا يسقط رماد السجائر على السجاد. كانت له طريقة فى مسك سيجارته بشكل مستقيم وكأنه يمسك بقلم رصاص. الخلاصة، كانت هيئته خرقاء وساذجة.

عندما كنا نعلم أنه سيأتى، كانت زهرة تجعلنى أرتدى قميصى الأزرق ذا الرقبة المثقوبة، ذلك الرداء الذى كان يملكه السيد دلاهاى والذى أراد أن ينزعه عنى يوم التصوير. كنت أحمل إليه الصينية وبها أكواب مطلية بماء الذهب وعلبة سكر، وكان السيد جماح - الذى كنت ألقبه دوماً بأبداً⁽⁴⁾ - ينظر إلى بعينين عطوفتين للغاية، وكان وجهه الرقيق الأبيض ينم عن عاطفة؛ وحينما كنت أجلس أمامه على الوسادات، كنت أبنت بالنظرات الخاطفة التى يصوبها إلى ساقى من آن إلى آخر. ظل هذا الأمر لمدة أشهر عديدة، وانتهيت بأن أمزح ببقاءاته، فكنت أسلك سلوك المتدلة فألفظ الكلمات المضمرة المعنى حتى يفكر فى ما وراء ذلك. وفى هذه الفترة، أصبح هابيل غيوراً، دنيئاً، فكان ذلك الأمر بالنسبة لى لُعبة أتسلى بها، ووسيلة للانتقام من كل ما فعله بى فى السابق؛ كنت ألهو بإيهامه بأننى سعيدة من هذه الخطبة العلنة؛ وعندما كان يأتى من خارج المنزل، كنت أسأل زهرة عن السيد جماح كثيراً، ثروته، ودار أسرته، وموقع أخوته، إلخ..

ذات يوم وهو يمر أمامى، القى على نظرة سامة وقال: "على كُلى، ليس لديك الوقت الكثير الذى ستمكثينه هنا"، ثم قال لى أن حفلة الخطوبة ستكون فى شهر أكتوبر، وأضاف: "طالما أنك تحبين الفنادق فإن الخطوبة ستعقد فى فندق على شاطئ البحر حيث حجزنا الصالة".

(4) فى النص الفرنسى هناك ما يشبه السجع الخفيف أو التقابل الصوتى بين أسم العلم

Jamah والظرف النافى jamais الذى لقبت البطلة جماح به. (المترجم)

لم أقم بإعداد حقائبى حتى لا يفتنوا أمرى؛ وقمت بوضع كل حصيلتى فى ملابسى، كل ماسرقت، وكل ما كسبت وأنا أعمل لدى عائلة الدلاهاى، وكل ما أخفيت تحت قطعة فى أسفل جدار الحائط فى الغرفة التى كنت أرقد فيها. وضعت النقود فى جيوبى وحكت الأوراق النقدية داخل قميصى فى واجهة معدتى، وغرست القرط الهلالى أسفل عصابة رأسى.

ولكى أخرج، انتظرت أن تنتهى زهرة من مساعيها، وألقيت من خلال نافذة مغسل الثياب بعض الملابس فى الفناء، وقلت لزهرة أننى سأذهب لإحضار هذه الملابس. كان قلبى يدق، خشيت أن تفتن أمرى من خلال نغمة صوتى. بعد الظهيرة، انتاب زهرة نعاس، ترددت فى النوم، لكنها كانت متعبة، فأعطتنى المفتاح وقالت: "لا تنتهزى ذلك الأمر فى التسكع خارج الدار".

– "كلا ياخالتي سأعود على التو".

تثاءبت وقالت: "شدى الباب، وأعيدى غسيل كل شئ".

خرجت عن طريق السطح، ولكى أنتقم لنفسى، أخذت معى الكلب، وأغلقت الباب بالمفتاح بسنتين. أما المفتاح الآخر فكان مع هابيل، وكنت أعلم أنه لن يعود قبل أن يأتى المساء.

وفى أسفل السلم، دفعت الكلب الشتزو بركلة قدمى، وألقيت بالمفتاح فى صندوق القمامة، ثم أغرته فى الفضلات حتى أكون على يقين من أن أحداً لن يعثر عليه، ثم مضيت فى الشوارع الخالية، فى الشمس، دون عجلة من أمرى.

دوار تبريكة

كان همى الأول، كما تتصورون، أن أذهب إلى الفندق حتى أرى السيدة جميلة والأميرات، فبعد مضي قليل من الأيام سيكون قد مرَّ عامٌ على اللحظة التي جاءت فيها شرطة زهرة وهابيل للقبض علىّ. عندما وصلت أمام الفندق، لم أعرف شيئاً؛ كان الأمر يبدو وكأن زلزالاً أرضياً قد داهم المكان؛ الحائط السياجى المرتفع، والباب ذو الشقتين تلاشا؛ وفي ساحة الفناء، حيث كان الباعة الجائلون يقفون، طُليت الأرضُ بالقار وتم تهيئتها مقرأً للسيارات والشاحنات التي تأتي إلى السوق؛ أما الغرف السفلى، فقد تسورت أو أُغلقت بالسائتر المعدنية؛ وأما الطابق العلوى، فقد ظل هو فحسب مشابه لحالته القديمة تقريباً، اللهم إلا أنه كان يبدو لا يصلح للإقامة فلقد كان بال

ومهجور. أوراق الحائط فيه كانت تسقط من الواجهة، والمصارع كانت مهشمة، وكانت هناك أيضا البُوم تعيش فى سقف الرواق، لم أتصور المنظر، ودهشت، انتابنى إحساس بأن غدر ما قد أتى على المكان.

فى مدخل مقر السيارات، كان هناك حارس، رجل جاف، وجهه محروق كوجه الجندى، يرتدى بذلة طويلة، شعره مصفف على هيئة العِمّة المتراخية؛ وخلفه فى الفناء، كان هناك صبية صغار منهمكين فى غسيل زجاج السيارات بدلى الماء الممتزج بالصابون ومماسح بالية. فى هذه الأثناء، كان الحارس ينظر إلى نظرة ريبة، ولذا لم أجسر على طرح أسئلة عليه، فربما كان سيوشى بى للشرطة. على أية حال، ماذا يمكنه أن يعرف؟. ما كان يحزننى هو الظن بأننى السبب فى إخلاء الفندق، فلقد نفذ المالك تهديداته، وأخرج السيدة جميلة والأميرات بدعوى سوء الخلق وباع المنزل للبنوك.

قال لى هذه الأخبار العجوز رومانة، التاجر الذى كنت دوما أذهب إليه كى أشتري منه التبغ الأمريكى لتغادير؛ أما السيدة جميلة فقد قُبض عليها وأودعت السجن، ورحلت كل الأميرات؛ لكنه أبلغنى أن تغادير مضت تعيش على الجانب الآخر من النهر فى دوار يطلق عليه تبريكة، وأبلغنى أن حورية تعيش معها. اشتريت منه بضعة سجائر، ولاسيما تذكّاراً للماضى، لكنه لم يكن بوسعى أن أتأخر فى هذا المكان، لأن زهرة ستأتى لتبحث عنى فى البداية فى ناحية الفندق دون شك.

كان النهار يوشك من نهايته، فاستقليت الزورق، كان مرسى المراكب شاسعاً، وقد شرعت مراكب الصيد فى العودة إلى الشاطئ محملة بالأسماك الطازجة، تحلق فوقها طيور النورس وقد أحاطت بها. تلاشت حدود المدينة فى الضباب، وعلى الساحل الآخر، كان الشاطئ مظلماً، وكان هناك ضوء يبرق فى السماء. وللمرة الأولى، أحسست أننى طليقة، ولم يعد لى أى ارتباطات، فأدلف نحو المستقبل. لم يعد ينتابنى الخوف من الشارع الأبيض وصيحة العصفور، ولن يكون هناك من يلقينى فى حقيبة ويضربنى، وتظل طفولتى فى الجانب الآخر من هذا النهر.

وجدتُ مشقةً فى العثور على تغادير، فلقد كان دوار تبريكة نائياً عن النهر؛ كان يقع فى حى مرتفع يغلقه شارع تحت الإنشاء تمر فيه الشاحنات الكبيرة. كان حياً بائساً جداً، لم يكن به سوى الأكواخ الخشبية المغطاة بالصفائح المعدنية المطلية، أو من الفيروسمان⁽¹⁾ المتكئة على الأحجار كى تقاوم الرياح. كانت الشوارع متماثلة، ممرات أرضية مستقيمة للغاية مزووجة بالأتربة، وكان الشارع الكبير بمثابة غيمة كبيرة تميل إلى اللون الأحمر فوق المدينة.

دلفتُ فى الأزقة على غير هدى، وبسبب شعرى الكث وثوبى الرث، جعلت الكلاب تعوى صوبى؛ وأمام صنبور للماء، كانت هناك

(1) مادة بناء صلبة يدخل فى تكوينها الأسمنت. (المترجم)

مجموعة من النسوة والأطفال يعبثون أقداح ماء بلاستيكية؛ وكان هناك أيضاً صبية يمشون على الدراجات في كل مكان، معهم أقداح الماء أو أخشاب النار التي كانت تتوازن على دراجاتهم. أشارت إحداهم إلى منزل تغادير، ثم اصطحبته إلى نهاية الطريق بينما كان قدحها يمتلئ بمفرده تحت صنوبر الماء؛ وفي نهاية شارع، أشارت إلى منزل صغير مطلي باللون الأخضر، وكان هو الدوار.

كان قلبي مشدوداً، لأنني لم أكن أعرف كيف تستقبلني كل من تغادير و حورية بعد ما حدث، وظننت أنهن قد ترفضان لقائي وترمياني بالأحجار.

لم أكن في حاجة لطرق الباب، فلقد أخبرهن عن قدومي على الأرجح شخص ما، إذ خرجت حورية في اللحظة التي وصلت فيها، وعانقتني ضامة جسدي إليها بقوة شديدة وكررت: "ليلي، ليلي"، وكانت هناك دموع في عينيها، لقد تبدلت؛ أصبحت أكثر شحوباً، شهباء قليلاً، بها ازرقاق دائري حول العين من جراء المشقة؛ وكان ثوبها ملوث من الوحل، أقدامها عارية في صندلها الذي لم تربط قدته.

سمعت صوت تغادير الأبح في قاع الفناء، وكان هناك نوع من الأفريز البلاستيكي الأخضر المتموج كذلك الذي نراه في الحداثق، والذي كان يحيط بموقد النار في الدار. جاءت تغادير، كانت ترتدي هي أيضاً اللون الأخضر، لم تتبدل كثيراً؛ كانت التجاعيد الصغيرة التي كنت أعشقها فيها على طرف

عينها وعلى جانبي فيها ملحوظة بشكل واضح، وكانت تعرج قليلاً، إذ كان أحد ساقها محاط بضمادة.

تعانقنا، وسعدت بالعثور عليها واستنشاق رائحتها، وبدأ لي أنسى عثر على قريبات لي، على أسرتي بعد سنوات وسنوات من الغياب. أعدت تغادير كوب شاي لنفسها، به نبات الجونبود الشهير الذي تعشقه والنعناع الذي تزرعه في أواني بالقرب من المطبخ. كانت لدى أسئلة كثيرة أريد أن أطرحها عليها، ولكنني لم أكن أعرف كيف استهلها. حدثتني حورية عن السيدة جميلة: فبعد أن أمضت مدة قصيرة بالسجن، ذهبت إلى مدينة أخرى، ربما إلى ميلالة أو إلى فرنسا، ورحلت الأميرات، كل أميرة في جانب: زبيدة وفاطمة تزوجتا، وتزوجت سليمة من أستاذ الجغرافيا، وعائشة تعمل بالتجارة، وظل الفندق مغلقاً لفترة طويلة ثم هُدم الجدار. عندما كنت أقول لها أن كل ذلك حدث بسبب خطئي وبسبب أنه قد قبض عليّ، كانت تغادير التي تبدو عجوزة تُهدأ من روعى وتقول: "كان لابد أن يحدث ذلك، فلقد مر وقت طويل دون أن تُسدّد السيدة جميلة الإيجار، بخلاف وشايات التجار الذين لم تس لهم، ثم أن الفندق كان داراً لكل الناس، وكان لابد من أن ينتهي هذه النهاية يوماً ما"، فواستنتى، لكنه في نفس الوقت، لم يبعد عن مخيلتي أن شر زهرة كان وراء كل ذلك، فلقد كانت هذه المرأة بمثابة شيطان لي.

قلت لتغادير وهي تبين عن ساقها: "ما بك؟"

هزت كتفها كما لو كان تساؤل قد ضايقها، وقالت: "لا شئ لدغنى عنكبوت، أعتقد ذلك".

وقالت لى حورية الحقيقة بعد ذلك: تغادير معتلة بداء السكر، وفحص الطبيب ساقها فى المستشفى وعهد بها إلى حورية وقال لها: "إنها مُعتلةٌ للغاية، ساقها يتآكل وسيلزم أن تُبتر"، ولكن حورية لم تُرد أن تصارحها بشئ، وقالت لى: "مازالَت تعتقد أنها لدغة عنكبوت، وتضع كمادات النباتات، وتقول أنها تتحسن، لكنها لم تعد تتألم لأن ساقها فى طريقها للهلاك"، وكان ذلك الأمر مخيفاً، ولكن من جانب آخر، كان من الأفضل ألا تعرف الحقيقة طالما أنه ليس هناك أمل فى شفائها.

لم تكن حياة دوار تبريكة يسيرة، ولا سيما بالنسبة لى، أنا التسى لم أعرف قط حياة البؤس، فحتى فى دار زهرة، كنت أتناول الطعام يومياً، وكان هناك الماء والكهرباء. أما هنا، فى تبريكة، فكان ينتابنا الجوع دوماً، وحتى الأشياء البسيطة كانت تنقصنا، كإمكانية الاغتسال كل يوم، أو وجود الخشب الصغير لغلى الماء للشاى. كان هناك أطفال يبيعون الخشب المقطوع، يجلبونه من مكان بعيد، من على الجانب الآخر من الطريق، من التلال. وكانت هناك فتيات صغيرات، ملابسهن رثة، يحملن على ظهورهن حزم الحطب الموثوقة بأحبال أضخم من أجسادهن. ومع ذلك فقد كان دارنا بعيداً عن أن يكون أكثر الديار فقراً.

كانت تغادير فخورة بهذا الدار، ذلك أن ابنها عيسى هو الذى شيده؛ وكان عيسى بناءً يعمل فى ألمانيا. وفى الحجرة التى تُستخدم كصالَة للدار، علقت تغريد صورته، صورة كبيرة مبقعة إلى حد ما، كان يشبهها، كانت عيناه مصدوعتين إلى حد ما كالصينيين.

ولقد اختارت تغادير أن تطلّى البيت باللون الأخضر، لونها المفضل: طلّت باللون الأخضر أوانى الزهور حيث كانت تغرس النعناع والفويصة، وباللون الأخضر المقاعد والمنضدة المنخفضة ووجدت أيضا إبريق شاي إنجليزى فيروزى به أذن درهمية وغطاه مستدير كحب البسلة.

كانت الدار كبيرة بالنسبة للمقيمين فيها، كان هناك بلاط أرضى وسقيفة مائلة للمطبخ، وحجرة تغادير، والغرفة التى كنت أبيت فيها مع حورية على وسادات موضوعة على الأرض، وكان هناك أيضا حجرة لعيسى بفراشها ودولابها، مهينة لليوم الذى يعود فيه دون إخطار. ولقد شيدت تغادير صالة استحمام من ألواح الخشب بجوار المطبخ، حيث يستطيع المرؤ أن يسكب لنفسه الماء عن طريق دلو زنكى ويأخذه فى وعاء بلاستيكى حتى يغسل الملاءات والملابس الثقيلة، وكنت أذهب وحورية لنعأ الدلو من صنوبر الماء بالشارع، وكنا دورياً نترشق بالماء، مُطلقات صرخات كبيرة، ولم يكن هناك بالدوار حمام عام، كان الناس فى فقر مدقع، وكان الماء شحيحاً،

ولكننا بصالة الاستحمام التى شيدتها تغادير والدلو الزنكى، كنا نعيش فى رخاء.

لم تعد تغادير تعمل منذ أن اشتكت من ساقها، فشغلت حورية عملها، إذ كانت تحيك وتكوى الملابس فى مصبغة تعمل لصالح الغنادق، وكانت تمضى كل يوم قبل السادسة، ثم تستقل زورق المعبر حتى تذهب للمدينة. كنت أقول لحورية "جدى لى عملاً"، فكانت تهز رأسها وتقول: "ليس هذا بأمر طيب بالنسبة لك، ينبغى عليك أن تقومى بشى آخر، يجب أن تذهبي إلى المدرسة"، وكانت تشتري لى كتب لغة فرنسية وأسبانية وإنجليزية وكراسات، وكانت تغادير تشاطرها الرأى وتقول لى: "يجب ألا تكونين مثلنا، عليك أن تكونى ذات شأن مثل طالبة وطبيبة، وليس خادمة مثلنا". لا أعرف لماذا كانتا تقلن ذلك، كانت هذه هى المرة الأولى التى لم يُراد بى زوجة لأحد الرجال، وكانت هذه هى المرة الأولى، التى لا يُرى فى خادمة، خادمة من أجل لاشئ، خادمة للطهى لزوجها فحسب. ويمكن أن أقول أن ذلك كان يجعلنى أزرف دمعاً، فلقد كانتا بحق أميراتى الطبيبتين، فعانقتهما.

ولكن لم يكن بوسعى أن أبقى بالمنزل وأتعلم، حيث كان هذا الأمر فوق طاقتى. وكنت أخذ كتفى يمسخها مشبك كالأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة، ثم أبحث عن مكان هادئ حتى أطالع فيه بعضها وأنا مطمئنة.

ذات يوم من أيامى الأولى، وعندما كان الوقت شهر تشرين الرائع جداً، مضيت حتى دار المقابر الكبرى أمام البحر، وهناك كان يمكن للمرء أن يرمى الأفق بوضوح، فأنفقت كل فترة الصباح وأنا أقرأ وسط المقابر. كانت عصفير البحر تتموج أمامى ساكنة فى تيار الريح، أو كانت السناجب الحمراء تخرج من الأكمة وترمقنى فى وقاحة، لكننى لم أكن مطمئنة كثيراً منذ ما حدث مع العجوز ابن الكلب، فلقد كنت أخشى أنه - كى ينتقم منى - سيبلغ عنى الشرطة، ولهذا بحثت عن مكان آخر، واهتديت إلى مكتبة الحى بجوار متحف الآثار القديمة. كانت مكتبة صغيرة، بها فحسب بعض مناضد كبيرة للقراءة ومقاعد قديمة ثقيلة، وكانت تفتح أبوابها كل الأيام عدا يومى الأحد والاثنين وعدا اللحظات التى يأتى فيها طلاب المدارس الثانوية لإجراء واجباتهم المدرسية بعد الخروج من المدرسة، ولذا لم يكن هناك أحد تقريباً. وفى هذه المكتبة، وفى خلال هذه الأشهر، تمكنت من قراءة كل الكتب التى كنت أريد أن أطلعها، دون أى نظام، عندما كان يأخذنى الخيال. قرأت كتب فى الجغرافيا وفى علم الحيوان، وطالعت بصفة خاصة بعض الروايات، "نانا" و "جريمينال"⁽²⁾ لزولا و "مدام بوفارى"⁽³⁾ و "ثلاث حكايات" لفلوبير

(2) نانا وجريمينال من روايات الروائى الفرنسى إميل زولا الواقعية. (المترجم)

(3) رواية فلوبير الشبهة التى شقت اتجاهها فى الواقعية أطلق عليه البوفارية Bovarisme.

و"البؤساء" لفليكتور هوجو و"حياة"⁽⁴⁾ لموباسان و"الغريب"
و"الطاعون"⁽⁵⁾ لابير كامى و"آخر المنصفين" لشوارزبارت و"واجب العنف"
ليامبو اولوجم و"طفل الرمل" لطاهر بن جولون و"بيير الصغير صديقى" لكينو
و"دائرة مورمبير" لأكسبيريت و"جزيرة الخرساوات" لبخلرى و"العشواء"
لفنسنو و"مورافاجين" لسندرس، وقرأت أيضا بعض المترجمات، "خانة العم
توم"، و"ميلاد جلنا"، و"قال لى صابعى"، و"القديسون الأبرياء" و"الحب

(4) رواية شهيرة لموباسان تنتهج البوفارية؛ ولقد عُرف موباسان بنزعتة البوفارية فى الكتابة
تتلمذه على يد جوستاف فلوبير. تدور أحداث الرواية فى إحدى الأقاليم الفرنسية، بين
مدينة روان النورماندية وأريافها حيث تخرج البطلة جان من الدير وتشرع فى ارتياد
حياة جديدة، نائية عن حياة التعبد القاسية، وما إن يطيب لها المقام فى الريف بصحبة
أبويها حتى تتزوج من شاب ماجن تنجب منه طفلاً وما تلبث أن تقع يدها على خيانتها
لها مع خادمتها وحملها منه سفاحاً. ولم يمض وقت طويل حتى قُتل وعشقية أخرى له
بالقرية، وتمضى الكوارث تحديق جان، التى فقدت بعد ذلك أمها، والتى كان موتها
نقطة اكتشاف لخيانة زوجية عبر الماضى من خلال الخطابات التى عثرت عليها جان
فى صندوق أمها التى خانت أبوها. ثم مات أبوها ومضى أبوها يجرى دراسته بعيداً عنها
فى مدينة أخرى، فعاشت وخادمتها حياة بائسة، تشقيها سلسلة الذكريات المحزنة
الكئيبة. حاولت عبثاً استعادة أبوها. وفى خضم الفقر، أجبرت على بيع قصر أبيها
والذهاب للعيش وخادمتها فى مكان آخر. حاولت ثانية العثور على أبوها فى باريس،
وقطعت المسافات ولكنها توجت بالفشل عائدة إلى ريفها. وتنتهى الرواية بمعرفتها لمجنى
مولود أبوها ورغبة الأخير فى إرساله إلى جدته. (المترجم)

(5) روايتان من روايات البير كامى Albert Camus الشهيرة. (المترجم)

الأول" لتورجينوف الذى كنت أحبه كثيراً. فى خلال هذه الفترة، كان الجو لايزال ساخناً فى الخارج بينما كانت المكتبة مكاناً هادئاً ورطباً، وكان لدى إحساس بأن أحداً لن يأتيها لبحث عنى. وفى المكتبة عرفت رُشدى الذى كان يعمل مدرساً للغة الفرنسية فى مدرسة ثانوية؛ وعندما كان الإنهاك من القراءة يبلغ نصيباً منى، كنت أخرج أمام المكتبة وأجلس على حائط قصير فى الحديقة الصغيرة المتربة، وكان يأتي بجوارى السيد رُشدى ويشعل سيجارته متحدثاً إلى. لم يكن يرمى إلى نيل شئ منى، لكننى أظن أنه كان يندهش حينما يرانى أطلع الكثير من الكتب، فنصنحنى آنذاك وقال لى عما يجب أن أقرئه فى البداية، كما حدثنى عن الكتاب العظام، عن فولتير وبيدرو⁽⁶⁾ والمحدثين، وأيضا عن كوليت⁽⁷⁾ وشعر رامبو⁽⁸⁾ الذى لم أكن أفهمه، مع أننى

(6) روائى وفليسوف فرنسى ولد عام 1713-، ومن أشهر أعماله روايته "جاك القدرى ومعلمه" Jacques le fataliste et son maître عام 1796، وله بعض الكتابات الفلسفية مثل "خطاب حول المكفوفين" Lettre sur les aveugles فى عام 1749، ويرجع إليه الفضل فى تأسيس "الموسوعة" L'Encyclopédie عام 1715 رغم كثافة المشكلات التى تعرض لها آنذاك، وفى ميدان المسرح، حاول تأسيس الدراما البورجوازية وذلك من خلال مسرحيته "الابن الشرعى" Le Fils naturel عام 1757 ومسرحية "أب الأسرة" Le Père de famille عام 1758، وفى مجال النقد الأدبى والفنى، له محاولات أهمها "الصالونات". (المترجم)

(7) سيدونى جابريل كوليت Sidonie Gabrielle colette هى روائية فرنسية ولدت عام 1873 ومن أهم أعمالها الروائية كلودين Claudine والقمع فى العشب Leblé en herbe، ورحلت عام 1954. (المترجم)

كنت أراه شعراً رائعاً. كان السيد رُشدى فقيراً، ولكنه كان أنيقاً فى حلقه الكستنائية المكوية دوماً، وقميصه الأبيض، ورباط عنقه الأزرق الداكن. كان يدخن بشراهة، وكان شاربه الرمادى يميل إلى اللون الأصفر من أثر التبغ، ومع ذلك فلقد كنت أحب طريقته فى مسك السيجارة بين الإبهام والسبابة كما لو أنه يمسك بمسطرة..

عندما كان ضوء النهار ينحدر، كنت أعود للدوار؛ ولما كان زورق المعبر يدلّف فى الماء الشاحب لمصب النهر، كانت رأسى جلّها مضطربة بالكلمات التى انتهيت من قراءتها، ومن الشخصيات والمغامرات التى عشتها. وكنت أدلف بعد ذلك فى شوارع مساكن الإيواء كما لو كنت آتية من عالم آخر. كانت تغادير تعد الحساء والتمر البُكرى الصلب والجاف المشابه للسكر المصفى، وتطهى رغيف خبز مستدير فى الفرن المشتعل المغلق بوضع إطار من الصفيح. ويبدو أننى لم أذوق أفضل من ذلك فى حياتى، ويبدو أننى لم أعش حياة غير مهمومة كتلك، فلقد نسيت مع هذه الحياة زهرة وما حدث من ذى قبل.

كانت حورية لا تعود إلى الدار إلا فى الليل، مُضنية، وجنتاها محروقتان ببخار النار، وعيناها حمراوان من الحياكة طيلة اليوم؛ وكانت تننّ قليلاً ثم تحتسى عدداً من أكواب الشاي وترقد، لكنها لا تنام؛ وكنا نتحدث سوياً فى الظلام مثلما كنا نفعل فى السابق بالفندق، بمعنى أننى كنت أتحدث بمفردى ذلك أننى لم أكن أسمع ما تقوله لى ولا يمكننى أن أقرأ ما على شفقتها.

وكانت تخرج خارج الدار من وقت إلى آخر مساء يوم السبت، فلقد كان هناك من يأتي يسعى إليها، لكنها لم تكن ترغب في أن يعرف أصدقائها أين تُقيم، فكانت تنتظر أسفل شجرة سنط هزيلة في مدخل الدوار، وكانت السيارة تحملها في غيم من التراب، يعقبها أطفال يلقون عليها الأحجار.

ذات مساء، بينما كانت تغادر منهمكة في خارج الدار، همست حورية في أذن السليمة بما تنوى أن تفعله: عندما ستكون لديها النقود الكافية سوف تستقل المركب إلى أسبانيا ومنها إلى فرنسا، ثم أبانت لى عن بعض مدخراتها، حزم من الدولارات ملفوفة ومربوطة في ماسك تخفيه في حقيبة أدوات زينة تحت الوسادة، وقالت لى أنه لا ينقصها سوى بعض النقود لدفع أجر السفر والمهرب. كانت تتحدث إلى بصوت منخفض وبحمية كما لو كانت قد شربت خمراً، وأنقبض قلبى حينما رأيت كل هذه النقود، لأن ذلك كان يعنى أن حورية سترحل عما قريب.

قالت لى: "ماذا بك؟"، فلقد ضايقتها لأننى قطبت وجهى كما لو كنت على وشك البكاء، فقلت لها: "إذا ما رحلتى، فما مصيرى أنا؟ لا أريد أن أبقى هنا مع تغادير". ضمتنى إليها، وحاولت أن تواسينى بكلمات رقيقة، ولكننى أيقنت أنها قررت كل شئ، وقلبها لم يعد معنا.

كانت تبدو واثقة من نفسها من خلال طالعها المتفعم بالدم. ولقد كانت حورية رقيقة جداً، يداها الصغيرتان، ووجهها ذو الجبهة المكتنزة يحتفظ بتعبير الطفولة المرح. قررت أن تفلت من كل شئ، الشوارع المترية،

وهذا الشارع الذى يزأر من الشاحنات، وأن تفلت من السقف الفيروسمانى الذى يجعله المطر يحدث ضوضاء كضوضاء جرف ثلجى، ومن حيث تحرقك الشمس كحرق الحديد الأحمر، وأن تفلت من الحوائط التى تفوح برائحة البول العفنة، ودلو الماء الأسود السام، والأطفال العربا الذين يلعبون فى أكوام القمامة، والفتيات الصغيرات بوجوههن الملوثة من السناج، منحنيات أسفل حمولهن كالنساء الطاعنات فى السن، وأن تفلت من كل ما يذكرها بطفولتها: الفقر فى الريف حيث حتى ماء الشرب له مذاق الفقر؛ وأرادت أن تفر بصفة خاصة من الحفلات مع سادة المجتمع الراقى بسياراتهم اللموزية السوداء ذات الزجاج المطلى، حيث ينبغي عليها أن تتظاهر بالضحك وأن تكون مرحة وسعيدة، لأن الحزن لا يعجب أحداً، وأن تفر إلى الأبد من رسل هذا الرجل المخبول الذى يعتقد أن له كل الحقوق على جسدها ولو حق تعذيبها.

ذات مساء، عادت حورية إلى الدار ثملة، وكانت نظرتها شاردة، مخبولة تقريباً، فأخافتنى؛ وفى ضوء مصباح الكيوسين، رأيتها تنقب فى وسادتها، وتحصى حزم دولاراتها التى جلبتها من البضاعة المهربة، ثم لاحظت أننى غير نائمة وأننى أتفحصها، فاقتربت منى وقالت لى: "لن تحولى بينى وبين الرحيل، لا أنت، ولا أى مخلوق"، فنظرت إليها دون أن أقول لها شيئاً، وقالت لى: "سوف أقتلك، سوف أقتلك إذا حاولتى، سوف أقتل نفسى إذا ما اضطررت أن أمكث هنا"؛ قالت لى ذلك ثم وضعت فوق حلقها

المدينة الصغيرة التي كانت تحملها بشكل دائم معها حتى تذود عن نفسها ضد القوادات.

بعد ذلك لم تعد تتحدث عن ذلك الأمر، وبدورى أيضا لم أقل لها أى شئ، فقد كنت على يقين من أنها سترحل وأنها التقت بمهرب؛ وحينئذ أتقنى أنا أيضاً فكرة الرحيل والعبور والذهاب إلى الجانب الآخر من البحر، إلى أسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو حتى بلجيكا، أو أمريكا أيضاً.

لكننى لم أكن مهياً للرحيل، إذا ما رحلت، يجب أن يكون ذلك للأبد حتى لا أعود. كنت أفكر فى هذا الأمر فى ليلى ونهارى، وكنت أسير فى ممرات دوار تبريكة وروحي فى مكان آخر، كنت أقفز من فوق الحفر ومستنقعات الوحل، وألتف حول مجموعات الأطفال أو أعبأ الوعاء البلاستيكي من الصنبور فى نهاية الشارع الرئيسى، ولكننى كنت أفعل كل ذلك وكأنى فى حلم.

بدأت أطلع الأطالس الجغرافية كي أعرف الطرقات وأسماء المدن والموانئ؛ وقمت بتسجيل اسمى فى دروس اللغة الإنجليزية بمعهد UDPSIS وفى دروس اللغة الألمانية بمعهد جوته وبالطبع كان الأمر يستوجب أن أسدد مصاريف الدراسة وأن أحصل على التصاريح وأن أقدم بياناتى الشخصية؛ لكننى ارتديت ثوبى الأزرق الشهير ذا الرقبة البيضاء والذى أطلته بشريط قماش ونقلت أزرقته، وشددت شعري الكث الضارب إلى الشقرة أسفل عصابة حسنة بيضاء، وقصصت على المسؤولين قصتى: أننى

يتيمة، دون مال، لا أسمع، وأننى على استعداد لأى شئ كى أتعلم، ولكى أسافر ولكى أكون شخصاً ما. كان بوسعى أن أسدد المصروفات عن طريق القيام بأعمال النظافة أو عن طريق كتابة المظروفات أو ترتيب الكتب بالمكتبة أو بالقيام بعمل أى شئ. بهرتُ سكرتيرة قطاع الثقافة الأمريكى، كانت سيدة سوداء الهشرة يبدو عليها الثراء، وحينما دخلت عليها فى مكتبها صاحت: "يالهى! إننى مولعة بشعرك!", ثم مررت يديها على خصلات شعرى الهائجة التى كانت تدفع العصاة المشبكية فوق رأسى، ثم سجلتنى دون أن تطلب منى أى شئ آخر.

وعند الألمان، كان هناك السيد جورج شون الذى كان يستلطفنى، وكان شاباً طويل القامة، نحيف، شعره أشقر ومجعد، وكانت نظرتة صهباء جادة وحزينة، وكنت أسليه، فقَبَلَنى على سبيل التجربة فى فصله. كنت أردد أمامه قوائم من الكلمات الألمانية وأقوم بتصريف الكلمات؛ وكنت أقرأ ذلك بصوت واضح جداً كما لو كنت أسمع ما أقول، وكأنه الشعر؛ وكان السيد شون يقول لى أن لدى ذاكرة لا تُقارن، ربما كان ذلك بسبب أذنى المصابة.

فى المساء، كنت أحمل دروسى إلى منزل تغادير، وأستذكرها على ضوء شمعة، وأنجز واجباتى الدراسية. وذات يوم، أمام كل الفصل، أبان شون عن كراستى، وكانت هناك بقعة كبيرة تتمدد فى أسفل ورقة منها، فقال لى: "ما هذا؟ هل تناولتى الطعام وأنت تستذكرين؟"

فضحك التلاميذ، وقلت له: "كلا ياسيدى، إنها بقعة من الشمع."

ولم يبدو على السيد شون أنه قد أدرك ما قلت له، واستطردت:
 "كل ما في الأمر، أنه ليس في منزلي كهرباء، ولذا فأذاكر دروسي على ضوء
 الشمعة، هل تريد أن أعيد كتابة كل شيء في كراستي؟"
 نظر إلى نظرة حيرة وقال: "كلا، كلا، حسن".

ولكنه فيما بعد، أصبح غريب الأطوار معي إلى حد ما، فكان ينظر
 إلي وكأنه يفكر دوماً في أمر هذه البقعة التي كانت على كراستي، ولم أفهم ما
 كان يضايقه. كان يطلب مني أن أنتظره بعد الدرس ثم يطرح على تساؤلات
 حول المكان الذي أعيش فيه، وعن الناس الذين يعيشون معي، ولم أكن أدرك
 ماذا كان يريد بذلك. خفت أن يخبر عني الشرطة، فلقد كان له نظرة غريبة
 غامضة، دوماً حزينة، وعندما كان يحدثني، كان يشبك يديه ويقلب أصابعه،
 فكان يذكرني بالسيد دلاهاى، ولكنه كان أكثر منه رقة وحناناً، مع أنه كان
 له نفس الأسلوب في النظر قليلاً من طرف عينه رافعاً جفونه؛ كان يقول لي
 أنه سيحصل لي على منحة دراسية كي أذهب إلى ألمانيا في مدينة
 دوسلدورف⁽⁹⁾، مسقط رأسه؛ وكان يريد أن أذهب إلى هذه المدينة ثم أبحث
 عنه هناك، وكان يقول أنه سيكون بإمكانى فعل الكثير هناك بلا شك، وأننى
 سأكون شهيرة وثرية، وستنشر صورتى الفوتوغرافية في الصحف.

(9) Düsseldorf مدينة ألمانية تقع على نهر الراين وتشتهر بالصناعة ولاسيما صناعة

السيارات وبها جامعة ومتحف للفنون الجميلة. (المترجم)

كان السيد رُشدى يرقب كل ذلك، ولم أعد أذهب كثيراً إلى المكتبة بسبب دروس اللغة الألمانية والإنجليزية، ولكننى عندما كنت أذهب، كنت أراه هناك، كنت أجده يطالع كتباً فى الفلسفة فى نهاية قاعة المكتبة؛ وبعد مرور لحظة، كان يخرج إلى خارج المكتبة ليدخن سيجارته، فكنت ألحق به فى الحديقة الصغيرة. عندما حدثته عن أمر شون، هز كتفيه وقال: "إنه عاشق لك، هذا كل ما فى الأمر"، ونظر إلى نظرة قاسية قليلاً وقال: "وأنت يا آنستى؟ هل تحبينه؟"، فأضحكنى سؤاله لى، ثم ختم حديثه قائلاً: "أنت التى تقرر، إنك شابة وأمامك الحياة"، ثم أشار على بقراءة "ضمير زنو" للكاتب إيتالو سفو⁽¹⁰⁾، وقال لى على سبيل اللغز: "من لم يطالع هذا الكتاب، فكأنه لم يطالع شيئاً!". وبعد ذلك الموقف، كان يحدثنى بلا مبالاة، كان يلقي على شعر الشهادى وأدونيس. وحتى أضيقة، قلت له ذات يوم: "أعتقد أننى سوف أتزوج من السيد شون"، وحينئذ بدا عليه الغم فجأة، ثم قال لى: "لا أشير عليك به"، وكان ذلك بمثابة فخر بنفسى، فلقد كنت أعلم أن السيد رُشدى عاشق لى، وكنت أمزح برؤية وجهه يتبدل عندما كنت أحدثه عن أمر زواجى.

(10) كاتب إيطالى عاش بين 1861 و1928، من أهم أعماله الأدبية: ضمير زنو 1923

و"المجوز الطيب" و"الطفلة الجميلة" وهى أعمال نُشرت بعد موته فى عام 1929.

(المترجم)

استمرت حياتي الدراسية هذه ستة أشهر كاملة حتى فصل الربيع؛ ثم قررت ألا أذهب إلى المعهد الألماني، فلقد كانت هناك صعوبات وأوجهها في الدار: كانت تغادير تتشاجر طول الوقت مع حورية، واهتمتها أنها تبتزها وأنها لا تعطيه النقود وأنها تسطو عليها أيضاً، فكانت حورية تغضب حينئذ وتلقيها بشتائم غليظة، ثم تخرج ضاربة الباب. كانت تختفى ليالي بأكملها، وكنت أظل غير نائمة أترقبها كما لو كنت سأسمع وقع أقدامها في الزقاق.

ثم كان هناك ما حدث بعد ظهيرة يوم ما في قاعة الفصل: ظللت كالعادة بعد الدرس عندما كانت السماء تمطر، أسترجع دروس التصريفات النحوية، وكان السيد شون واقفاً خلفي، فوضع يده فوق كتفي، وكنت أرتدى ثوباً أسوداً أعارته إياي حورية وكان يكشف عن ظهري قليلاً، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرتدى فيها هذا الثوب لأننا كنا في فصل الربيع، وكان لدى الكثير من الثياب المسردة والمعاطف. وفجأة تقدم السيد شون نحوي وقبّلني في عنقي بخفة شديدة، وتم ذلك بسرعة شديدة إلى حد أنه لم يكن لدى الوقت كي ألحظ ذلك جيداً. على الأرجح، كان هذا الأمر بمثابة ذبابة توقفت فوقّي ثم رحلت، ولكنني عندما نظرت إلى السيد شون خلفي، كان كله خجل، فكان يزفر كما لو كان قد فرغ من الجري؛ أما أنا، فقد تصرفت وكأن شيئاً لم يحدث، رأيت أن ذلك من الهزل، وأن السيد شون غريب الأطوار على الأرجح: رجل حزين جداً وبارد جداً يتصرف فجأة كالصبيبة الصغار. تقهقر،

وجهه كله شاحب، كان حزيناً للغاية، وكان ينظر إلى من بعيد من بين شجر السوسن الرمادي كما لو كنت شيطاناً. لا أعلم ما همَّهم به، فلم أسمع كلماته ولكنني أدركت أنه ينبغي علي أن أنطلق بسرعة، فلقد كان ما حدث أمراً لا يُصدق: هذا الرجل العظيم، ذو الشأن، أستاذ اللغة الألمانية في جامعة ديسدورف ترك نفسه يُقبلُ جيد فتاة صغيرة شديدة السواد من دوار تبريكة. حينئذ، جمعت كراسي وكتبى وفررت تحت رزاز المطر الذي كان يقرع ظهري من خلال ثوبى المكشوف والذي كان له عظيم الأثر على السيد شون.

وبعد ذلك ببضعة أيام، التقيت مصادفة عندما كنت أتنزه في بورت دي فان ⁽¹¹⁾ بالين بوسوترو - والتي كانت تدرس الألمانية معي - فقالت لي أن السيد شون يأسف كثيراً على انقطاعه عن دروس اللغة الألمانية، وأنه يتمنى أن أعود إليها، لأنني على قائمة الطلاب الذين سيعاونهم في الحصول على منحة دراسية في ألمانيا. لم أعرف لماذا قصت عليّ كل ذلك، ربما خرجت ذات مرة مع السيد شون فمنحها ثقته، ولكنها كانت تبدو لي طيبة وساذجة، ولا أعتقد أنه قد قص عليها ما فعله معي.

قلت لها: "نعم، بالتأكيد، أنني سوف أعود في أقرب وقت ممكن، ولكنني في هذا الوقت مشغولة للغاية". أردت أن أتخلص منها، ونظرت في كل الاتجاهات من حولى وقلت لنفسى لو ظللت في وضعي هذا، فسوف يأتي

(11) اسم مكان. (المترجم)

عسكر زُهرة كى يقبضوا علىّ. قرأت الين شئْ ما فى نظرتى لها، شيئا من الحذر، من الخوف، فمالت إلى وقالّت: "ليلى، الديك مشكلات؟". كانت ابنة لأحد كبار التجار الفرنسيين والذي كان يحتكر تجارة الدراجات الصينية فى أفريقيا؛ هل بوسعها أن تدرك شيئا عن حياتى ؟ كنت أخشى، بصفة خاصة، أن يرانى أحد بجانب هذه الفتاة الشقراء جداً والأنيقة جداً، فقلت لها: "كلا، كلا، كل شئ يمضى على ما يرام"، ثم انصرفت وتواريت وسط الزحام، ودرت دورة كبيرة للوصول إلى العبارة المائية.

بعد هذه الحادثة، توقفت عن عبور النهر، أحسست أننى فى مأمن على هذا الجانب الآخر من النهر، وتوقفت عن كل الدروس، وقاطعت مكتبة المتحف والسيد رُشدى. وعلى مدار عدة أسابيع، لم أجسر على الخروج من دوار تهریکه، فبقيت فى منزل تفسادير، فى الفناء، تحت الأفريز البلاستيكى، أنصت للجح المطر على الفيروسمان وأنظر للأمطار وهى تملأ الدفاف.

كانت هذه الفترة طويلة ومُحزنة؛ كانت حورية تنتظر مولوداً، ولهذا السبب، كانت فى شجار دائم مع تغادير، ولم أكن أسأل عن السبب، ولكننى أعتقد أنه بسبب صديق حورية الذى كان يأتى إليها فى سيارته. وفجأة اشتدت حالة تغادير سوءاً، فلقد أصبح الألم الموجود فى ثنية قدمها يحرق بها ليلاً ونهاراً فى هذه الفترة، وأصبحت غددها جافة سوداء فى لون الزيتون؛ وكانت ساقها رماية اللون ومنتفخة، ولم تعد تشعر بها كما لو

كانت هذه الساق مصنوعة من خشب. كانت تمضى يومها جالسة فى مقعدها تنظر إلى ساقها، تلعن العنكبوت الذى لدغها، وتتهم أيضا الفتيات الأخريات، سليمة وفاطمة وعائشة بسبب تشاجرهن المستمر، وتقول أنهن جنيات وساحرات، وكانت تكرر نفس الكلمة التى كانت ترددها زهرة فى الماضى: سَحَرَةٌ؛ وكانت تُسَبُّ وتَدَّعى أنهن وضعن شوكة فى حذاءها، فاعتقدت آنذاك أنها سوف تتهمنى أنا أيضاً إن أجلاً أو عاجلاً.

وللمرة الأولى أصبحت لدى رغبة فى الرحيل بعيداً، الرحيل للبحث عن أمى وعشيرتى فى بلد الهلال خلف الجبال؛ ولكننى لم أكن مهياة لهذا الأمر؛ ربما لم يعد لذلك المكان وجود وأننى فكرت فيه حين النظر إلى قرطى. ذات ليلة، التصقت بجسد حورية وأسندت أذنى إلى بطنها كما لو كنت سأنصت إلى جنينها وهو يتحرك، وسألتها: "متى سنرحل؟"، فلم تجب، ولكننى عن طريق تحسسى لها بيدي أدركت أنها تبكى أو كانت تضحك فى صمت؛ ثم همست لى فى أذنى: "عما قريب، عندما يكون هناك مقعدين فى الزورق المتجه إلى ملاجا".

الآن نحن متآمرتين؛ فبعد ظهيرة يوم ما، وبينما كانت تغادير تستريح فى غرفتها، وبدلاً من أن تقوم بالمهام المنزلية، كنا نحيك مؤامرات، فكانت حورية تذكر لى المدن التى سذهب إليها والناس الذين سنراهم، أما أنا فلم أكن أعرف سوى أسماء الكتاب أو المطربين، فذكرت لها أسماء جوزيه كابىنى وكلود سيمون وأيضاً سرج جنسبور بسبب أغنيته إليزا، فقالت لى:

"إذا شئت فسوف نراهم أيضاً"، كانت تظن أنهم إناس مثلها ومثلى، بشر
يمكننا أن نراهم.

خرجت تغادير من غرفتها تعرج، فسبتنا، فلقد أدركت أننا
سفر حل، وصاحت: "اذهبين إلى حيث تردن، إلى فرنسا، إلى أمريكا، إلى
الشياطين إن أردتن ولكن لاتعودن إلى هنا".

وعن طريق مدخراتي، تمكنت من شراء مذياع من سوق البضائع
المهربة الواقع بقرب النهر؛ كان مذياعاً صغير الحجم، أسود اللون، كان فى
الماضى بحوزة دَهان على الأرجح، ذلك أنه كان ملطخاً بالدهان الأبيض. وفى
المساء، كنت أستمع منه إلى جيمى هاندركس بإذاعة تانجيبه؛ وكان هناك فى
نهاية بعد كل ظهيرة برنامج لديجاما، وكنت أعشق صوتها الشاب، الرطب،
الساخر قليلاً. كان يبدو لى أنها صديقتى وأنها تشاركنى حياتى. كنت أقول:
"كنت أود أن أكون مثلها". كنت أدون دوماً كل أسماء المطربين الذين تقدمهم
فى بطاقة، وأحاول أن أكتب كل كلمات الأغنيات الإنجليزية "فوكس لايدى".
كان عجباً فصل الربيع هذا، ربيعى الأفريقى الأخير: ففيه كان المطر يتساقط
على الإفريز البلاستيكي فى الفناء ويفيض عن الأروقة الأسطوانية الصغيرة؛
وفيه كان صوت دجاما يقرع أذنى وموسيقى المذياع ونسنا سيمون وبول
مكارتنى وسيمون وكارفونكل وكات ستفنز الذى كان يغنى "الزوارق الطوال"،
فكان كل ذلك بمثابة انتظار طويل؛ وفيه كانت حورية تنتظر أيضاً وهى
تتمدد على الوسادات ويدها فوق بطنها، وكانت تمشى مترنحة كالبطة مع

أنها كانت بالكاد فى شهرها الأول من الحمل، وفيه كان دوار تبريكة حولنا - والذى كان يبدو شاسعا بلا نهاية - ينتظر شيئاً ما، شيئاً لن يحدث مطلقاً، وفيه كان الأطفال رثو الثياب يتشردون فى المستنقع، وفيه كانت أصوات النساء الصائحات، وفيه كان النداء إلى الصلاة فى المساء ينطلق أمام النهر فيختلط بأصوات طيور النورس لحظة عودتها من الصيد، وفيه كان خلطنا - فى الليل المترب - الطريق الذى تتقدم فيه الشاحنات التى تشبه حشرات مؤذية.

و ذات مساء، كانت تغادير فى أسوأ حالاتها الصحية، فأرسلتنى حورية كى أهدف إلى ابنها، فلقد كنت أتحدث الألمانية. وعندما عدت إلى الدار، كانت تغادير قد رحلت إلى المستشفى حيث سئبتر ساقها، وتم كل شئ على عجل. وفى اليوم التالى، بعد الظهيرة، هيئنا أنفسنا للسفر. كان من المفترض أن تنقلنا شاحنة إلى ميلالة وفى ذات الليل يبجر بنا المهرب فى زورق مالا جا.

أحصينا النقود فى توتر، واحتفظت حورية بما ينبغى أن يُسد للمهرب وأعطتنى المبلغ المتبقى، حزمة من ألفى دولار مربوطة بمشبك كبير، وعندما هممت أضع الحزمة فى جيبى، قالت لى حورية: " لاتضعيها فى هذا المكان، سئسلب منك كل النقود"، وأخذت أحد رافعى نهدى وضيقتها محيكة حملاتها، حاشية جيبوها بالحزم النقدية المحاطة بالناديل، ثم ألبيستنى رافعة النهدين، وقالت: "الآن يبدو عليك أنك امرأة حقيقية، وسيتهافت عليك كل الرجال"، فانتابنى إحساس أننى أحمل حقيبتين ثقيلتين على

صدرى، وكانت والحملات تنشر كتنفى، فقلت لحورية: "لن أستطع أبداً، إن ذلك يؤلمنى، سوف آخذ نقودى". غضبت حورية وقالت: "توقفى عن التباكى، يجب أن تعتادى ذلك، أنت التى ستحمل النقود، ليس هناك من وسيلة أخرى".

قلت: "ربما يجب أن نمضى نعود تغاديرفى المستشفى؟"، وعندما كنت أفكر فى أمرها كان ينتابنى الندم، وكنت على استعداد لإلغاء فكرة رحيلى، ولكن حورية كانت لها نظرة قاسية ومحددة، وكان تعبيرها مطابق لتعبيرها يوم أن وضعت المديّة فوق حلقها، وقالت: "كلا سنبلغها أن تتبعنا متى اتخذنا موقعاً".

ترقبنا الشاحنة الصغيرة فى نهاية الطريق حتى الليل، وكان التراب يغطينا فكان يبدو علينا أننا متسولتان.

وفى لحظة ما، مرت أمامنا الشاحنة، وقللت سرعتها، ثم توقفت بعيدا عنا إلى حد ما، وانطفأت كل الأضواء، فكنت خائفة، ولكن حورية جذبتنى بخبل، وهبط السائق، ثم قال لحورية وهو يدفعنى إليها: "هل بلغت سن الرشد؟" فردت عليه حورية قائلة: "أرأيت صدرها؟ أم أنك كفيف البصر؟"؛ أعتقد أنه كان مندهشا خاصة من لون بشرتى، ربما ظن أننى من السودان أو السنغال. وضعتنى حورية إلى مؤخرة الشاحنة الصغيرة، ثم صعدت بدورها. ولم تكن لدينا حقائب، فلقد كان ذلك اتفاق بيننا، وكان معنا فقط حقيبة صغيرة بيد كل منا، بها قليل من الملابس ومذياعى الشهير.

وبما أن السائق لم يدر محرك السيارة على الفور، قالت له: "ماذا تنتظر أيها الغبي؟" فتذمر السائق شطراً بالأسبانية وشطراً بالعربية. قالت لي حورية: "هم كذلك في ميلالا".

وصلنا إلى الميناء حوالى الرابعة صباحاً؛ وفي لحظة عبور الجمارك، قرع السائق مربع الزجاج الخلفى وأشار لنا أن نرقد. كانت الشاحنة مليئة بكراتين الملابس التى كُتب عليها بلانكو، فكان ذلك الأمر مضحكا لأننى وحورية كنا سمرات البشرة⁽¹²⁾.

مرت الشاحنة الصغيرة ببطى من أمام مكتب الجمارك، ومن خلال الزجاج الخلفى رأيت المصابيح التى تعطى ضوءاً أصفر اللون تتباعد عنا، ثم أصبح كل شئ أسوداً بعد ذلك، فنهضت حتى أرى شيئاً: فرأيت أنها مدينة حديثة وقبيحة، بها مباني شاهقة معقدة، وكانت السماء تمطر.

على الرصيف، كان هناك الكثير من الناس ينتظرون الزورق، رجال بصفة خاصة وأيضاً بعض النساء اللواتى كن يتدثرن بمعاطفهن، وكان الهواء بارداً، ولم يكن هناك ثمة أطفال.

أما أنا وحورية فقد كنا جالستين متكئتين إلى حوائط المرفأ نحتمى من رزاز المطر. نامت حورية واضعة رأسها فوق كتفى، منذ زمن بعيد وهى

(12) الأمر مضحك لأنه لم يكن هناك تطابقاً بين ما كُتب على الكراتين "بلانكو" أى اللون

الأبيض ولون بشرة البطلتين. (المترجم)

تنتظر هذه اللحظة، ثم بغتة لم تتمكن من مقاومة الإضاءة. حاولت أن أشعل مذياعى ولكن فى هذه الساعة لم تعد تتحدث ديجاما، ولم تكن هناك بالإذاعات سوى فرقعات كانت تجعلنى أقفز وكأنها حشرات أنتت من آخر العالم. قبل الفجر بقليل، أرتكن قارب إلى الشاطئ، وكان عبارة عن زورق ضخم لونه أبيض له معبر مغطى بساتر؛ وشرع الناس فى الصعود، وكانوا يهرولون لكى يحصلون على مقعد فى حجرة القبطان، وكنا آخر الصاعدين، فجلسنا فوق جسر القارب أمام حائط الدرايزين.

كان المهرب يمر بيننا دون أن يقول شئ، ويبسط يديه، وكان كل واحد يضع له ما تبقى عليه من نقود؛ وكان يلتهم الأوراق النقدية على عجل، ويردد من آن إلى آخر بصوته الأذن: مضبوط، مضبوط. لم يكن هناك من يريد أن يتحدث، فكان الجميع ينصت لاهتزاز محرك الزورق بانتظار اللحظة التى يرتفع فيها للرحيل.

وفى خلال بضعة دقائق، كان كل شئ معداً، فالتقى القبطان القلس وتدرج الزورق ببطنى نحو الممر المائى راقصاً فوق تموج الماء، وهكذا رحلنا. مضينا ولم نكن نعلم إلى أين نمضى، ولم نكن نعلم متى سنعود؛ كل ما كنا نعرفه ولى، فكرت فى منزل الملاح الصغير جداً، الواقع وسط كومة المنازل على شاطئ النهر النأى جداً حيث ينبثق النهار فوقه، وفكرت فى دوار تبريكة، والنساء اللواتى كانت تتطوبرن أمام صنبور الماء البارد. ربما سنموت هناك على الجانب الآخر من البحر، وهناك لن يعرف أحد عن ذلك شيئاً.



كيف أمضينا بقية سفرنا حتى باريس، ذلك ما لا أعرف أن أقصه عليكم، فانا التي لم تخرج تقريباً من مكانها، والتي أمضت كل طفولتها في فناء لالا أسماء، والتي كان أبعد مكان ذهبت إليه بعد ذلك هو نهاية شارع كبير في حي المحيط، والتي استقلت قارباً حتى سالي⁽¹⁾ ودوار تهريرة، ها أنا أستقل زورقاً كبيراً وسريعاً، وأعبر أسبانيا في عربة حتى فال دي ارن⁽²⁾ - وهو اسم لن أنساه مطلقاً - ثم أسير على قدمي في الجبل المغطى بالثلج مادة يدي إلى حورية التي كانت تلهث.

(1) ضاحية في الرباط اشتهرت بالتجارة منذ العصور الوسطى. (المترجم)

(2) Valle de Aran وادي أسباني يقع في جبال البيرينييه. (المترجم)

كنا نسير دون أن نعلم إلى أين نمضي، مترنحات على الطريق عبر الجبل بصحبة أناس آخرين لا نعرف حتى أسمائهم، فكل إنسان كان يتأمل في شأنه. كان المرشد صبيّاً صغيراً يرتدى الجينز وحذاءً رياضياً، وبشرته أكثر سواداً ممن يقتادهم. وبالرغم من التعليمات التي تلقيناها، كان بعض الناس يحملون أمتعة وحقائب أو حقيبة سفر بحمالة.

تجاوزنا الممر الجبلي مع هبوط الليل، وكان قاع السطح مفروشاً بالضباب اللبني، الذي كان بمثابة ركامة دخان دون نار. همست إلى حورية: "انظري! ها هي فرنسا، إنه لمنظر بديع..!". بدت حورية شاحبة اللون للغاية، فلقد أنتابها ألم في بطنها، فجاء الصبي ونظر إليها وقال لي بالأسبانية: "هل تنتظر مولوداً لها؟"، فقلت له: "لا أعرف، إنها متعبة"، فهز كتفيه. وتركست حورية الآخرين يسيرون بمفردهم، فرأيتهم كالقطيع الصغير يهبط إلى تعرج الطريق؛ كانوا لا يتحدثون، ولا يحدثون أية ضوضاء. كان الوادي الرحب والنهر الذي يكونه الضباب يجعل المنظر بديعاً، حتى أنني فكرت في أننا لو متنا هناك، لن يكن لذلك أهمية لأننا سنكون هنا في أعلى الجبل وسنرى هذا الوادي الشاسع الذي يشبه البوابة.

لا أدري لماذا فكرت - للمرة الأولى - في بلدتي كما لو كانت تقع هنا في هذا الوادي الذي لم أمض بعيداً فيه والذي أتركه يتواري رويداً رويداً خلفي. ظللت في مؤخرة السائرين وأبطأت من سيرى، إذ سحرتني عذوبة

منظر الضباب والليل الذى كان يقترب مجيئه، فتعجلتنى حورية وقالت:
"هيا سنضل طريقنا".

فى أسفل الجبل، كانت المجموعة تنتظر فى طرف غابة صغيرة،
كنا نصت لصوت سيل أخفاه الليل عنا؛ وعندما وصلت إلى المجموعة، توجه
إلى الأسبانى كما لو كان يرقب قدومى كى أقوم بالترجمة للآخرين، ثم قال:
"سننام فى هذا المكان، ينبغي عليكم ألا تحدثوا صوتاً وألا تشعلون النار ولا
السجائر، متفقون؟"، فكررت ما قاله بالعربية، ثم أضاف: "غدا تنقلكم
شاحنة إلى مدينة تولوز⁽³⁾، حيث القطار"، ثم مضى دون أن ينتظر إجابة
منا، فوجدنا أنفسنا فرادى فى الغابة.

أتذكر هذا الليل، فبعد حرارة النهار التى لمسناها عندما ارتقينا
الجبل، هبط برد قارس ومبلل تخلل كل أجسادنا حتى العظام؛ وحاولت أنا
وحورية أن ننام بين جذور شجر التنوب المجتثة، ولكن البرد الصاعد من
الأرض كان يقرق أسنانى؛ ولم يكن لدينا أى شئ، حتى الغطاء. وفى لحظة،
جلسنا الواحدة فى واجهة الأخرى حتى لا نشعر ببرد الأرض؛ وحتى لا
ننام، كنا نتقاص حكايات، أى شئ مما كان يحدث فى الفندق أو عن الخنازير
البرية أو عن الوشايات، وكنا نخترع حكايات. لا أتمكن من تذكر ما كنا
نقلوه، أتذكر فحسب أننا كنا نتحدث الواحدة تلو الأخرى هامسات

(3) مدينة فرنسية فى الجنوب على مقربة من أسبانيا. (المترجم)

ضحكات، وأحياناً كنا ننسى ونرفع من صوتنا، فكان الآخرون ينهضون قائلين: "سكوت! سكوت!".

كان الآخرون لا ينامون أيضاً، ومن خلال الضوء الخافت للسماء المليئة بالنجوم، لاحظت أنهم قد نهضوا وأرتركوا إلى الأشجار؛ ومن آن إلى آخر، كنا نسمع وقع أقدام في جذوع أشجار الصنوبر وشخص ما يجلس القرفصاء ليبول.

تمكنا من أن ننام في الشاحنة الصغيرة التي كانت تحملنا إلى مدينة تولوز، فمع مطلع النهار، كانت الشاحنة تقف على الطريق في طرف الغابة، حيث جعلنا الأسباني نصعد بسرعة فائقة، ثم مضى ناحية الجبل دون نظرة أو حتى إشارة وداع. في الشاحنة الصغيرة نمت على كتف الشاب الجزائري هابيل، كنت متعبة للغاية وكان الطريق يدور ويدور؛ ومن بين فتحة غطاء السيارة، شاهدت للحظة أشجار التنوب الشاهقة السوداء، وشوارع القرى، ومعبر؛ ثم كانت محطة قطار تولوز، البهو الكبير بسقفه العالي، الأرضية حيث كان الناس ينتظرون القطار المسافر إلى باريس. أعطانا السائق بطاقات السفر والتعليمات التالية: لا تبقوا معاً، أذهبوا كل منكم في جانب، لا تسعوا بعضكم على البعض الآخر. أخذت حورية من يدها واقتدتها حتى نهاية الرصيف حيث كان الزجاج ينتهي إلى هذا الحد ويسمح بمرور الشمس، وحينما رأيت السماء الزرقاء شعرت بالراحة. تناولنا ما تبقى لدينا من خبز تغادير مع التمر ونحن جالستين فوق مقعد. عبثاً بذلنا ما في وسعنا حتى لانلفت انتباه الآخرين، وكان الناس ينظرون إلينا؛ ويمكن أن أقول أنه على

الأرجح كان لا يبدو علينا أننا ككل الناس، فحورية فى ثوبها الطويل الأزرق ووشاحها الأبيض وأنا ببشرتى السوداء وشعرى المتهدل من النوم، كنا متشردتين بحق.

جاء طفلٌ وتسمر أماننا حتى يتفحص جيداً وجوهنا، وكان يبدو عليه سوء الخلق، فنكست حورية رأسها، أما أنا فلم أغضب، وقلت له "ماذا تريد؟"، وبما أنه لم ينصرف، تظاهرت بأننى أتقدم نحوه فولئى على الرصيف، كان هناك إناس يبدون غرباء مثلنا، من رجال ونساء بشرتهم سوداء، وشعرهم حالك السواد كالسج، وكانت ثيابهم غير مهذمة، وكانوا يتحدثون لغة غريبة بها بعض الكلمات الأسبانية. همست إلى حورية: "هؤلاء هم البوهيميون، إنهم يسافرون دوماً، فليس لهم من ديار"، ثم أراهم مطلقاً من ذى قبل، كانت هيئتهم بائسة، ويشوب نظراتهم شئ من الفخر. دقق أحدهم النظر فى، وكان شاباً طالعه حاد، ونظر إلى نظرة كما لو كان لا يستطيع عنها فكاكاً؛ وللمرة الأولى منذ وقت طويل، دق قلبى من الخوف، من الرعب أو شئ من هذا القبيل؛ فجذبتنى حورية من ذراعى وقالت لى: "لا ينبغي أن تنظري إليه، سيضايقنا". اقترب البوهيمى منا وقال: "من أى البلاد أنتم؟ هل ستسافرون إلى باريس"، كانت أسنانه البيضاء تتلألأ فى وجهه الأسود، وكان يقف متواركاً كداعر، فاقتادتنى حورية إلى الطرف الآخر من الرصيف، ثم استطردت: "إنك معتوهة، إنه مؤذ". ثم وصل القطار واحتجزنا زحام الناس حول أبواب القطار، وعثرنا على مقعد فى عربة خالية

وأخذ القطار طريقه ببطئ تاركاً المحطة، ورأيت المنازل تتقاطر إلى الخلف، ففكرت في كل ما تركته، الشوارع الضوائية، منازل تبريكة المتكدسة، أو فناء بيت لالا أسماء، أو أيضاً الفندق بتجاره الذين كانوا يشغلون الحجرات في السابق، والأروقة المُنظرة بحزم بضاعتهم وحقائبهم المليئة بالفاكهة الجافة. فكرت في أننى ربما أعود يوماً ما، ولن يبقى لي شيئاً من ذكرياتي ولا أى إنسان أعرفه. كان قلبي مشدوداً، وكانت لدى رغبة في البكاء وأنا أفكر في تغادير في غرفتها بالمستشفى وساقها المبتورة، ويبدو لي أننى حينما رحلت فقدت آخر شخص لي في عائلتي. نامت حورية أمامي على المقعد متوسدة حقيبتها، وكان ضوء الشمس يضيء للحظات وجهها وعينيها المغلقتين ذى الأهداب الطويلة جداً وفمها حيث تبرق قواطع أسنانها البيضاء.

ذهبت إلى الممر كي أشعل سيجارة، فلقد شرعت في التدخين في الزورق ذلك أن السجائر الأمريكية كانت تُباع دون ضرائب في ميلالا، وكنت أحب أن أدخن في الخارج وأنا أنظر إلى الدخان يتراقص في الريح، وكنت في خجل من أن ترانى حورية وتقول لي: "أتشعلين السجائر الآن؟".

كان القطار طويلاً، لم يكن يحمل الكثير من الركاب، وشرعت في التنقل من عربة إلى أخرى مارة بين العربات، وفجأة رأيت البوهيمى، وكان من المفترض أن يتبعنى لأنه كان بمفرده في نهاية الممر، تصرف كما لو أننى لا أعرفه، وأردت أن أعود إلى العربة التى بها مقعدى، فأغلق الممر أمامي؛ كان فارعاً، وبشرته داكنة، وكانت حواجبه الحالكة السواد تتراص

فى وسط جبينه. أبتسم لى، وأعتقد أنه قال لى: "ما اسمك؟". كانت له لكنة فرنسية غريبة كلكنة رجل من جنوب أمريكا، وقال لى أيضا: "هل تخافين منى؟"، ولما كنت لا أحب المزهوين بأنفسهم، قلت له: "ولما أخاف منك، إذا سمحت لى؟". وفى ذات الوقت مررت هكذا من أسفل ذراعه خافضة نفسى إلى أسفل كالطفلة، فسار خلفى. ولم أرد أن يعرف أين تجلس حورية، فتوقفت فى الممر بجوار المرحاض وأشعلت سيجارة أخرى. ظل البوهيمى بجوارى، وكان ينظر من نافذة باب القطار. كاد اهتزاز القطار أن يلقينا على الأرض، وكانت الضوضاء التى تنبعث من الريح مُصمة، وقال لى وهو شبه صائح: "اسمى بنيكو، وأنت؟"، دفعت الريح شعره، وكانت له خصلة شعر تخفى جبهته، وفى ومضة، أدركت أنه يضع سِنَّة من الذهب فى فكه وحلَّق ذهبى صغير فى أذنه، ولا يبدو عليه أنه مؤذ. قلت له اسماً وهمياً، أعتقد أنه "ديزى" وأخذنا نتحدث معاً قليلاً. فقد كنا فى نفس القطار، كنا فى طريقنا إلى باريس، ولكى نقتل الوقت، كان من المناسب أيضا أن ننظر من النافذة أو نطالع مجلة. ولم يكن النعاس ينتابنى، بل على النقيض، أحسست بنفسى غير متعجلة، مليئة بالحيوية. أما هو، فقد كان يتحدث عن الموسيقى لأنها كانت مهنته، كان يعزف ويغنى؛ وفى لحظة ما قال لى: "انتظرينى"، ثم دلف إلى مقدمة القطار وعاد بألة جيتار، ثم وضع أحد قدميه على حافة الباب وشرع فى العزف؛ كان يعزف موسيقى غريبة تشبه درجة ممتزجة بضوضاء القطار، ثم مدونات موسيقية تتفجر وتتحدث بسرعة. لم أستمع

البتة إلى مثل تلك الموسيقى من ذى قبل، حتى ولو على موجات مذياعى القديم. كان يعزف ويتحدث فى ذات الوقت، أو بالأحرى كان يتمتم بكلمات من لغته أو بهمهمات مثل: هوم، أهم، هم، شئ كهذا؛ ثم توقف وقال: "هل هذا يعجبك؟ هل تحبين موسيقاى؟"؛ وكان هناك من الناس من قديم ليرى العزف، كما كان هناك أطفال يخرجون من الطرف الآخر للعربة ليشاهدوا المنظر، وجاء أيضا مفتش قطار يرتدى حلة زرقاء داكنة وقبعة، وتوقف لحظة ثم مضى. توقف البونيكو لحظة وقال على عجل: "أترين؟ عندما أعزف لايسألوننى عن بطاقة سفرى"، كما لو أنه أحضر لى جيتاره لهذا الغرض. أما أنا فقد انتابتنى رغبة فى الرقص، وتذكرت عندما كنت أرقص للأميرات بالفندق فى الأيام الماضية، وأقدامى عارية على البلاط البارد فى الغرف، بينما كانت الأميرات تغنين وتصفقن. ولقد كانت موسيقى البوهيمى هكذا، كانت تتخللنى وتعطينى قوى جديدة.

جاءت حورية، وكما يمكن لك أن تعتقد، لم تكن سعيدة وهى ترانى فى هذه الصحبة، فقالت لى بالعربية وهى تكشف عن أنيابها: "هيا لا ينبغي أن تبقى مع هذا الرجل". كانت قد خرجت من العربة تحمل حقائبنا ومذياعى خوفاً من أن يتم سرقتهما؛ وفى قميصها الصوفى الكستنائى وثوبها الطويل الأزرق الذى يجعلها تبدو كالحبلى بحق، كانت تبدو بانسة تثيرُ الشفقة فى نفسى، فلقد كانت حورية فى الواقع هى أسرتى الوحيدة وأخت لى. جذبتنى من يدى ونظر إلينا البوهيمى ونحن نمضى وراح يضحك. كنت

أبغضه لاندرائه لى ولحورية، فلقد كان فخوراً بنفسه جداً. ولم تكن حورية تخشى على من أضل طريقى، فلقد استيقظت فوجدت نفسها بمفردها فى العربة، وكان ذلك الأمر بالنسبة لها شيئاً مرعباً. ضمنتها إلى على المقعد حتى أهدأ من روعها، وقلت لها: " أتعلمين ؟ إنك فى فرنسا، والآن أنت لا تخاطرى بشئ، فما من أحد يستطيع أن يعثر عليك ". كنا فى موقف واحد: هى يبحث عنها زوجها، وأنا تبحث عنى كنة سيدتى. وكانت كل خطوة لعربة القطار على شريط الطريق الحديدى تبعدنا عن جلادينا، وتبعدنا عن البحر الذى يفصلنا عنهم.

كنت أغط فى النوم حينما توقف القطار فى باريس، أما حورية فكانت مستيقظة آن ذاك، وقالت لى فى لطف: "استيقظى يا ليلى، ها نحن قد وصلنا". كان الوقت ليلاً، كنت أشاهد عبر الزجاج أضواءً تتراقص بينما كان القطار يهتز وهو يحدث صريراً على ملتقى الطرقات؛ وكانت السماء تمطر، فنظرت بإمعان إلى القطرات التى كانت تتساقط على الزجاج دون أن أبدى أى رد فعل؛ كنت على الأرجح متعبة إلى حد أن حورية خافت وغضبت قائلة: "ما بك ؟ استيقظى، يجب علينا أن نهبط من القطار ". لم أستطع تصديق أن كل شئ تم، وأن ذلك كان بمثابة نقطة النهاية فى سفرنا؛ وبالرغم من إنهاكى، وددت لو أعطى أى شئ حتى يمضى القطار أبعد من ذلك، وحتى أتمكن من أن أنام فى هدوء. هكذا كنا فى باريس، فأدلفنا تحت المطر متقلصات أسفل مطرية حورية المنثنية، ومعنا حقائبنا وسلّة برتقال والمذيع

الشهير ريالستيك. وعلى طول الرصيف، حول محطة القطار، بحثاً عن مسكن نمضى فيه الليل، فى شارع جان بوتون حيث شقة الآنسة ماير التى لم يعد لها وجود الآن.

فى البداية، كانت باريس رائعة، فكنت أهرول فى الشوارع، ولا أتوقف، أما حورية فقد ظلت حبيسة الشقة، تظهى الطعام، وتنتظر قدمى؛ كانت تخشى كل شئ، ومثلما كان يحدث فى الفندق فى السابق، كنت أقوم بالمشتريات وأذهب فى كل مكان. كنت أخرج صباحاً فى السابعة أو الثامنة ومعى حقائبى البلاستيكية لأشتري البطاطس (كنا نأكل البطاطس المسلوقة بصفة خاصة)، والخبز، والطماطم، والحليب، فلقد كانت اللحوم باهظة الثمن، ثم أن حورية لم تكن تثق فى شئ، وكانت تخشى أن يدعها الآخرون تتناول لحم الخنزير.

كانت حورية تقتصد، فكانت الغرفة تكلفنا خمسمائة فرنكا أسبوعياً، إضافة إلى مصاريف الكهرباء، وكنا لانستخدم آلة التدفئة، وكان المطبخ عاماً بين المستأجرين جميعاً، الذين كانوا جميعهم من السود، كانت تضعهم الآنسة ماير رباعى فى غرفة واحدة، حتى أنها كانت تقيم فوق السطح، وكانت تهبط فى كل لحظة تراقب ما يحدث فى الشقة. وبعد مرور بضعة أيام، تعرفت على مارى هيلين الجوادلوبية⁽⁴⁾ والتى كانت تعمل فى

(4) Guadeloupe من بين الجزر التى تخضع للسيطرة الفرنسية، مساحتها 1704 كيلو متر مربع، ويتكون غالبية سكانها من العنصر المختلط، كما توجد أقلية من السود وأخرى من الفرنسيين الأصل، ولغة الجزيرة الرسمية هى اللغة الفرنسية. (المترجم)

مستشفى بوسيكو⁽⁵⁾ وصديقها جوزيه أيضاً، وهو من جزر الأنتيه⁽⁶⁾، كما تعرفت على كل الأفارقة، نامبي ومادى وانتوان ونونو الذى كان يصغرنى عمراً، وكان شديد السواد ويلعب الملاكمة. كنت أحبهم كثيراً، كانوا غرباء فى سلوكهم، وكانوا يلهون بأى شئ ويتحدثون عن المالكة، الأنسة ماير ملقبين إياها بـ "المرأة المسنة"، أو كانوا يلقبونها بـ "شيبانية"، ذلك أن هذا الاسم هو الذى لقبها به فاطمة التى كانت تقيم قبلنا فى الغرفة؛ وكانت الأنسة ماير تقول لنا عندما ترانا: "لدى مبدأ ألا أؤجر شقتى للعرب مطلقاً"، ولكنها قامت بهذا الاستثناء ربما للون بشرتى.

فى البداية، أحببت هذه المدينة بشدة، وأخافتنى قليلاً لأنها شاسعة جداً ولكنها مليئة بالأشياء الخارقة، والناس الغرباء فى سلوكهم... نهاية، هكذا رأيتها.

فى بداية الأمر، دهشت للكلاب، فلقد كانت فى كل مكان. كانت هناك كلاب كبيرة وكلاب صغيرة وقصيرة تنتصب على أرجلها، وكلاب شعرها طويل جداً إلى حد أننى لم أكن أعرف أين رأسها، أو أين ذيلها، وكلاب شعرها متموج كما لو كانت قد خرجت من لدى مصفف الشعر، وأخرى مُجتزة على شكل الأسود والثيران والخراف وكلاب البحر. كان بعضها صغيراً جداً إلى حد أنه يقال عنها أنها فئران، ترتعش مثل الفئران

(5) من المستشفيات الشهيرة بباريس. (المترجم)

(6) جزر تخضع للسيادة الفرنسية. (المترجم)

وتبدو شريرة مثلها؛ وكان بعضها الآخر، فى براطيلها الملطخة وأجانبها المتراخية، كانت فارعة كفحول العجول وكالعر، وعندما كانت تهز رؤوسها كانت تلوث كل شئ بروالها⁽⁷⁾. كان هناك بعضها الذى يقيم فى شقق الأحياء الراقية، ويسير فى سيارات أمريكية وإنجليزية وإيطالية. وكان هناك بعضها الآخر الذى يخرج بين ذراعى صاحبتين مزينين على أكمل وجه ويرتدون صدياتهم الصغيرة من القماش ذى المربعات، حتى أننى رأيت أحدهم يتنزه فى سلسلته التى ربطتها صاحبتة فى السيارة.

لا أريد أن أقول لكم أنه لم يكن لدينا كلاب، كان هناك الكثير ولكنها كانت تتشابه جميعها، لونها ترابى وعيونها صفراء اللون وبطنها مقعر وكأنها حشرة الزُّنبور. وتعودت آنذاك أن أراقب هذه الكلاب، فعندما كنت أرى كلباً يقترب منى كثيراً أو حتى لا يبتعد كثيراً عن طريقي، كنت أنتقى حجراً حاداً جداً، ثم أرفع يدي فوق رأسى، وعامة ما كان ذلك كافياً لإبعاد الكلب عنى، وكنت أفعل ذلك دون تفكير، واعتدت ذلك الأمر، حتى أننى فى المرة الأولى التى ذهبت فيها إلى حديقة النباتات⁽⁸⁾، اقترب منى كلب طويل ونحيف مربوط بسلسلة طويلة مذودة بزنبرك، وأراد اشتتام كعب

(7) الروال هو لعاب الحيوان. (المترجم)

(8) حديقة النباتات jardin des plantes هى من المعالم السياحية فى مدينة باريس بفرنسا وتضم مجموعة نادرة من الزهور والنباتات وبها حديقة حيوان شهيرة. وتقع حديقة النباتات بالقرب من نهر السين ومعهد العالم العربى. (المترجم)

حذائي ففعلت الحركة إياها، ولم يكن معى حجر، لأنه فى باريس لا يمكن للمرء الحصول على حصى بسهولة فى الشوارع، فنظر إلى الكلب بدهشة كما لو كنت ألقى بكرة، ولكن صاحبتة أدركت الأمر فسبتنى كما لو كنت قد هممت أن أرميها هى بذلك الحجر.

وبعد ذلك الموقف، لم أعد أفعل ذلك، فقل اهتمامى بالكلاب، إذ كانوا جميعاً ملكاً لأناس يجرونهم فى سلاسل وبالتالى لم يكونوا مؤذيين، عدا البراز الذى كان من الممكن أن يجعل الإنسان يغزلق على الأرض أو تهشم عظامه.

كانت شوارع باريس تبدو لى دون نهاية، وبعضها كان بحق دون نهاية، فهى شوارع عريضة، وطرقات مشجرة تضيع وسط مد السيارات التى تتوارى بين المباني. وبالنسبة لى أنا التى لم تعرف سوى عالم الملاح وضاحية تبركية الصفائح أو الشوارع الصغيرة فى حى المحيط المزدحمة بالياسمين، كانت هذه المدينة شاسعة غير مستنفذة. فكرت أننى حتى لو أردت أن أجوب كل الشوارع، الواحد تلو الآخر، فإن حياتى لن تكفى للقيام بهذا الأمر، ولن أستطيع أن أرى سوى قطاع صغير وعدد محصور من الوجوه.

كنت أنظر إلى أوجه الناس بصفة خاصة؛ وكالكلاب، كانت هناك طواع من كل الأنواع، كان هناك البُدناء، والشيوخ، والشباب ذوى البشرة التى تشبه لون سلاح المدية، وكانت هناك أوجه شاحبة للغاية فى لون الأرض البيضاء، وأوجه داكنة جداً، أكثر اسودادا منى، بها أعين تبدو مضاءة من الداخل.

فى الأوقات الأولى، لم أتوقف عن تفحص الوجوه، وكان لدى إحساس أحياناً أن نظرتى مأسورة، تمتصها نظرة الآخر، وأنه ليس بوسعى أن أتخلص منها؛ وحينئذ جربت النظارات السوداء كقناع أضعه على وجهى، ولكن لم تكن هناك من شمس كافية، وكنت لا أحب أن يفوتنى تفصيل وجه ما، تعبير ما، أو لعان نظرة ما.

وبسرعة، واجهتني مشكلات عديدة، فلقد كان هناك رجال كنت أتفحصهم فكانوا يتعقبوننى، وكانوا يظنون أنني عاهرة، مهاجرة صغيرة من الضواحي تسعى إلى الذهب فى وسط المدينة، فكانوا يقتربون منى، ولكنهم لم يكونوا يجسرون على مس جسدى، فلقد كانوا يخشون الخدعة. ذات يوم، مسكنى رجل عجوز قليلاً من ذراعى وقال لى: "هل تأتى معى إلى سيارتى؟ سنشتري حلوى طيبة"

جذب ذراعى بشدة، وكانت عيناه مثل عيني الرجل الذى ضايقنى فى المطعم سابقاً مع حورية، وكنت أعرف ماذا يريد منى، كما تعلمون، فنهرته بداية باللغة العربية (كلب - قواد - ملعون دين أمك)، ثم باللغة الأسبانية "غبى، جبان، لواطى"، فأدهشه ذلك حتى أنه ترك ذراعى وتمكنت من الفرار منه.

وبعد ذلك الموقف، كنت أدرك الأمر على الفور حينما كان يهم رجل يتعقبنى، وكنت ماهرة فى اقتياد الرجال إلى ذلك؛ ولكن كانت فى حياتى نساء أيضاً، ولكنهن كن أكثر مكرراً من الرجال، فكانت الواحدة منهن ترتب

حتى تلقاني في مكان لا يمكنني أن أفر منه، في ممر مسور أو في سلم كهربائي بمتجر أو في عربة مترو مثلاً، كان هؤلاء النسوة يخيفنني، فلقد كن فارعات الطول، بيضاوات، يضعن قلنسوات من الشعر الأسود والبذل الجلدية وأحذية صغيرة، وكان صوتهن خفيض مستنفذ قليلاً، ولم أكن أقدر على سبهن، فلقد كنت أبتعد عنهن وقلبي يدق ثم أعبر الشارع بين السيارات وأهرول بجنون.

ذات يوم، انتابني هلع في مرحاض مقهى؛ فلقد كان هناك بهو كبير تحت الأرض أنيق به مرآة ومصابيح صغيرة حولها، وكنت أغسل يدي وأمرر قليلاً من الماء على جبيني كمادتى حتى أملك شعري المتهدل، وجاءت امرأة عن يساري، على الأرجح أنها كانت شابة بدينة بشكل ملحوظ، أنفها عريض ووجنتاها تخطهما تشققات خفيفة، وشعرها أشقر مصفف على طريقة الشينيون⁽⁹⁾؛ وحينما شرعت في تزيين نفسها، نظرتُ إليها مرة أو مرتين بسرعة في المرآة فحسب، الوقت الذي رأيت فيه أن عينيها لونها أزرق يميل إلى اللون الأخضر، ولاحظت أنها وضعت لوناً أسوداً على أهدابها عن طريق مرقاش صغير.

وفجأة ثارت، وسمعتها وهي تقول لي في نغمة غريبة وخبيثة وصلبة، تشبه نغمة صوت زهرة في غضبها: "لماذا تنظرين إلي؟ ماذا تراني أفعل؟"، فالتفتُ إليها، ولم أفهم ما كانت تقوله لي، واستطردت قائلة:

(9) تسريحة شعر يطلق عليها في بعض اللهجات العربية ذيل الحصان. (المترجم)

"أجيبى أيتها العاهرة، لماذا تنظرين لى هكذا؟".

كانت عيناها جاحظتين قليلاً وشاحبتين، وكان يبدو لى أن عينيها تفتح وتغلق كأنها قط. تمتمت قائلة: "لم أنظر إليك"، ولكنها تقدمت نحوى مفعمة بحنق بارد أروعنى، وقالت لى: "كلا، لقد نظرت إلى أيتها الكاذبة، وكانت عيناك مصوبة إلىّ، وحينما كنت لا أنظر إليك شعرت بعينيك تلتهمنى"، فتتهقرت إلى الطرف الآخر من المرحاض، بينما كانت تسير نحوى؛ مسكت شعرى بكلتى يديها وأمالت رأسى إلى الأمام نحو الحوض، فظننت أنها ستقرعنى وتصدم رأسى فى القاعدة الرخامية فصرخت، فتركتنى: "هذه قذارة، هيا أيتها القذرة الصغيرة"، ثم تناولت أشياءها وقالت لى: "لا تنظرى إلىّ، اخفضى عينيك، قلت لك اخفضى عينيك، إذا نظرت إلىّ سوف أقتلك"، ثم خرجت. كنت خائفة حتى أننى لم أتمالك ساقى، وكان قلبى يصطدم بصدرى، وتقيأت، ولم أعد بعدها مطلقاً إلى مراحيض تحت الأرض.

وهكذا تعلمت شيئاً فشيئاً حياتى الجديدة، فلم تكن حورية تتمكن من متابعتى، فبما أنها مثقلة بحملها، كانت لا تتحرك تقريباً، ولا تبرح الغرفة إلا لى تذهب إلى المطبخ عندما لم تكن هناك مارى هيلين، فلقد كان الأنثيون يخيفونها، وكانت تقول إنهم سَحَرَةٌ، ولكننى أظن أنها كانت تقول ذلك لأنهم سود مثلى. كانت حورية تحصى كل مساء ادخاراتها، فإذا كنا لم

نغادر ميللا إلا منذ ثلاثة أشهر، فقد نقصت المدخرات إلى النصف تقريباً، وبهذه الطريقة لن يكون معنا أى شئ قبل قدوم فصل الربيع.

كان يبدو على حورية الحزن الشديد إلى حد أننى كنت أواسيها على قدر استطاعتي، وكنت أعانقها قائلة لها: "كل شئ سيكون على ما يرام وسترين"، ووعدها بألف شئ، وعدتها أننا سنجد عملاً وشقة جميلة على شاطئ بحيرة أورك⁽¹⁰⁾ وسنستطيع أن نحيا حياة طبيعية، بعيداً عن كوخ الأنسة ماير القذر.

انتشلتنا مارى هيلين، في حين كنا لا نجد شئ نسدد به الإيجار في نهاية الصيف، فبينما كنت أخطط لأعيد مزاولة مهنتي كطبيبة، سألتني ذات يوم في المطبخ: "هل يناسبك عمل في المستشفى؟"، سألتني ذلك لا مبالية، ولكنني في عينيها وجدت أنها قد استنبطت كل شئ في حياتنا، وأدركت أنها كانت تشفق علينا.

كان عملاً طيباً لى فلقد كنت أعمل في صالة مطعم، وعُينت على الفور، ولأنى سوداء البشرة فقد قدمتنى مارى هيلين على أننى ابنة أختها وقالت إن لدى مستندات دالة على شخصيتى وإننى من جزر الجوادلوب، فأندهش الآخرون من أننى لا أتمكن من التحدث بلغة المستعمرات الفرنسية، ففسرت مارى هيلين لهم كل شئ وقالت: "ولدت هناك، ثم جاءت أمها بعد

(10) منطقة فى شمال باريس. (المترجم)

ذلك إلى فرنسا، ولذا نسييت كل شئ"، وبذلك لم يتم تغيير حتى اسمي "ليلي"، فهو اسم من الأسماء المعروفة بهذه الجزر، وقامت مارى هيلين بتسجيل اسمي العائلي مطابقاً لاسمها العائلي "مانجان".

كنت أعمل من السابعة وحتى الواحدة ظهراً في مستشفى بوسيكو، وكنت أتقاضى نصف راتب، ولكن كان ذلك يسمح بتسديد الإيجار والقيام ببعض النفقات، فكان من الممكن أن تبقى إذا مدخرات حورية لوقت ما، إضافة إلى ذلك، كان بوسعى أن أتناول طعامي في مطعم المستشفى، فلقد كانت مارى هيلين تحجز لي مقعداً بجوارها، وكانت تعبأ طبق طعامها لي، فلقد كانت وديعة للغاية، وكنت أحب نظرتها الحنونة قليلاً. في يوم من الأيام، عاتبت الآنسة ماير حورية في أمر لا أعرفه، وهددت بأن تطردها، فتناولت مارى هيلين مدية جزار من المطبخ وسارت إلى المالكة وقالت لها: "أنصحكِ ألا تحاولي أن تطردى أى شخص مهما حدث، وبرغم كل النقود التي ندفعها لك، فإنك عجوز فاسقة".

كنت أحب بصفة خاصة الأعياد، فمن آن إلى آخر، في عيد ميلاد أو في أى مناسبة أخرى، كان السود يفلقون الستائر، وكانت الشقة تغوص في الغيبش، وكان الأفريقيون يضربون الدف، وهو طبل كبير من الخشب مغطى بالجلد، وكانوا يدقونه بلطف شديد بأطراف أصابعهم؛ وعلى ضوء الشمع، كان الصبية يرقصون، وكان نونو، الملاكم الكاميروني الأصل، يرقص شبه عارياً أو عارياً في بعض الأحيان، وفي وسط ممر الشقة، كنا نسمع الضحكات

تنبعث من الغرف، وكانت ماري هيلين تنطلق بصوتها في لغتها الكمنجية، وكان جوزيه رفيقها يخرج من الغرفة بآلته الموسيقية ويعزف موسيقى الجاز وموسيقى هادئة مع هتاف ناشز من وقت إلى آخر. أما الآنسة ماير فكانت تحبس نفسها في هذه الأيام، ولم تكن تجسر على الخروج طالما أن الحفل مستمر. وكانت حورية أيضا لا تخرج خارج الغرفة، ولكنها كانت تنصت للموسيقى، وكنت أمضى وقتي بين الخروج والدخول إلى غرفتنا، وكنت أشتم رائحة الدخان، ومن المطبخ كنت أتسلل إلى وسط من كانوا يرقصون، وكنت أساعد ماري هيلين في جمع الأطباق، وكنت أحمل إلى حورية أطباق الطعام، وأرز مخلوط بجوز الهند، ويخن من السمك، ولسان الحمل المقلّى. وكنت أرقص أيضا مع الأفارقة، أو مع شاب فارغ عينيّه خضرواتين، اسمه دينيس؛ وعندما كان يجذبني إليه بشدة، كانت ماري هيلين تدفعه بلطمة مفاجئة قائلة له: "انتبه، هذه الفتاة شريفة، إنها ابنة أختي". وعندما كان الاحتفال ينتهى، كنت أعاون ماري هيلين في عملية التنظيف، فلقد كانت تجد مشقة في الانحناء لجمع الأطباق الورقية. ذات مرة، ضحكت هازئة وقالت: "إذاً لن أكون الوحيدة"، وبما أننى نظرت إليها دون أن يبدو علىّ أننى أدرك ما قالت، استطردت: "نعم الوحيدة التى لديها رضيع، ماذا، ألا تشكين فى هذا الأمر؟"، ونظرت إلى باحتفاء وقالت: "حقيقة إنك ساذجة، أنك لا تعلمين شيئاً عن الحياة، ماذا علمتك أمك؟"، فأدركت أنها تتحدث عن حورية،

فقلت لها: " كلا، ليست هي بأمرى، تعلمين ذلك"، فانطلقت ماري هيلين فى الضحك، وقالت: "نعم، أيا كان الأمر، فسوف يأتيها طفلاً من قبلى".

كانت هذه هى المرة الأولى التى نتحدث فيها عن هذا الأمر، وأحسست كثيراً أنه كان لزاماً على أن أحدثها بكل شئ وأعترف لها، ولكننى لم أكن قادرة على ذلك، ولم أكن أعرف سوى تأليف الحكايات، لأننى منذ أن فقدت سيدتى، كان ذلك كل ما كنت أستطيع أن أفعله. وذات مرة قلت لها: " ألم أقل لك أنه ليس لى آباء؟"، غير أن ماري هيلين قطعت حديثى إليها فجأة ثم قالت: " اسمعى يا ليلى، لا تقولى لى ذلك الآن، فيوم ما، سوف نتحدث عن ذلك الأمر، ولكن ليس الآن وقته، ليست لى رغبة فى أن أستمع إلى ذلك، كما أنه ليس لديك الرغبة فى الحديث عن ذلك"، وكانت على صواب، وربما أدركت أننى لا أقول الحقيقة.

مضيت أكتشف باريس طوال الصيف، وكان الطقس رائعاً، وكانت السماء زرقاء دون غيمة واحدة، وكانت الأشجار شديدة الخضرة لامعة، وضخمت عواصف أغسطس من نهر السين؛ وفى فترة بعد الظهر وأنا أخرج من المستشفى، كنت أسير على طول النهر، وأذهب حتى المعبر الذى يربط الشاطئين أمام الكنيسة الكبيرة. لم أكن مطمئنة بعد للسير فى الشوارع الكبيرة، والآن أمضى بعيداً، فكنت أرتاد فى بعض الأحيان المترو، وفى غالبية الأحيان كنت أستقل الأتوبيس، ولم أتمكن من التعود على استقلال المترو. كانت ماري هيلين تسخر منى وتقول لى: "إنك غبية، هذا أمر جلى،

سمكة من ذهب

فالطقس منعش في فصل الصيف، وفي فصل الشتاء الطقس حار، ليس علي إلا أن تجلسي في ركن من العربة ومعك كتاب، ولن يعيرك أحد انتباهاً ولكن لم يكن خوفاً من المترو مبعثه الناس، فكوني تحت الأرض، ك يشعرني بالدوار، وكنت أرقب خروج المترو من تحت الأرض لأرى ضج الجو، وكان صدري يطبق عليّ، ولم أكن أحتمل سوى الخط الجوي بجوار محطة اوستيرليتز⁽¹¹⁾ أو من جانب محطة كامبرون⁽¹²⁾. كنت أسته الأتوبيس وأذهب حتى نهاية محطاته، وكنت لا أطلع أسماء الشوارع، فلك كنت أسمى كي أرى بقدر المكان الناس والمباني والمتاجر والميادين.

ثم أننى سرت في كل الأحياء التالية: الباستيل، فدرج شالييني لاشوسيه دانتن، الأوبرا، مدلاين، سباستبول، لاكونترسكرب، دنفي روشرو، سان جاك، سانت انتوان وسان بول؛ وكانت هناك أحياء بورجوازي أنيقة تنام في الثالثة من بعد الظهر، وكانت هناك أحياء شعبية ضواحي لها حوايط طويلة قرمدية حمراء تشبه سور السجن، وسلام ومطالع وساحات خالية، وحدائق ترابية تكتظ بأناس شواذ، وميادين في ساعة تناول أطفا المدارس لطعامهم، ومعابر طرق حديدية، وفنادق مريبة تكتظ بفتيات ترتدي الجلد الأسود، ومتاجر فخمة تعرض ساعات ومجوهرات وحقائب يد وعطور وعندما وصلت إلى باريس، كنت أنتعل صندلا من الجلد، وفي فصل الخريف

(11) محطة مترو وقطار شهيرة بباريس. (المترجم)

(12) محطة مترو بالدائرة الثالثة عشرة بباريس. (المترجم)

تمزق إربا، فابتعت حذاءً رياضياً أبيضاً بلاستيكيًا حقيرًا جداً من متجر بجوار بورت ديتالي⁽¹³⁾، ورغم ذلك فقد استطعت عن طريقه أن أسير لعدة كيلومترات.

كنت أسير دون أن أتحدث إلى أى شخص؛ ومن آن إلى آخر، كان هناك أناس ينظرون إلى ويتظاهرون أنهم يقتربون منى، ومنذ ما حدث فى مرحاض منطقة ريجانس، لم أعد أنظر إلى الناس فى أعينهم، وكنت أسير غائبة، وكأني لا أعرف إلى أين أمضى، وعندما كنت ألحظ أن أحدا ما يتعقبني، كنت أدخل المبنى وأنتظر فى الظلام، وفى عمق ممر، أعد حتى مائة ثم أرحل.

كانت هناك مناطق غريبة، لاسيما بجوار محطات المترو: ففى شارع جان بوتون وعلى رصيف المحطة، كان هناك شباب يرتدون أقمص عريضة للغاية، وفتيات نحيفات ترتدين الجينز والسترات القصيرة، شعورهن مغسولة بالكلور، وطالعهن مُدبب، ونظرتهم غائبة فارغة. ذات يوم، وأنا فى طريق عودتى إلى المنزل، فوجئت بمشاجرة، كان الأمر غامضا وغير مفهوم؛ أولاً، كان هناك رجال ونساء يهرولون متدافعين ويطلقون صيحات أجشة، أظنهم أتراك أو روس، لا أعرف، ثم كانت هناك مجموعة صغيرة من الشباب الذين يرتدون أقمص جلدية، وكانوا يمسون فى أيديهم بمطارق

(13) حى ومحطة مترو بباريس. (المترجم)

ومضارب لعبة البسبول⁽¹⁴⁾، فمروا جميعهم من أمامي، وعندما مكثت خائفة على طرف الرصيف، دفعني أحد الصبية بكلية يديه، ورأيت وجهه مقضباً، وفمه وعينييه التي تفحصتني لبرهة قاسية كانت جافة كأعين السحلية، ثم رحلوا، وهويت على الأرض على ركبتى أمام مجرى الماء، ولم أتمكن من التحرك، وعندما سمعت سرينة الشرطة كان لدى فحسب الوقت الذى أهول فيه إلى باب المبنى الذى تقع فيه شقة الآنسة ماير.

كانت حورية ترتعش فى الشقة، عندما دخلت إلى الغرفة المظلمة، أشعلت الضوء ولم أعرف نظرتها، نظرة حيوان مُطارِد، فأحدث ذلك الأمر فى شيئاً ما، ذلك أننى عرفتها غير مبالية مرحة.

قلت لها: "ما بك؟"، فلم تجب، كانت تنظر إلى ساقى، ولاحظت أن ما تدقق النظر فيه هو بنطالى الممزق من على الركبة، وكانت هناك بقعة دم تتمدد على النسيج، فقلت لها: "وقعت على الأرض، زلت ساقى على درجة السلم"، ولكننى كنت أعلم أنها لاتنخدع بقولى، وقالت بصوت مختنق: "أريد أن أرحل عن هذا المكان، لم أعد أقوى على ذلك"، فقلت لها قاطعة حديثها قبل أن تتحدث عن الرحيل: "إنه أمر مستحيل، لن يمكنك أن تعودى إلى بلادك، فأنت وأنا سنتعرض للسجن، وربما لاترين طفلك أبداً، فسوف يسلبونك إياه"، كنت أقول لها ذلك من أجل نفسى أيضاً، وحتى

(14) لعبة يتنافس فيها فريقان، يتشكل كلاهما من تسع لاعبين، ويشترط فيها إحراز أربعة

أهداف لتكوين نقطة فى صالح الفريق. (المترجم)

لا أنسى ما فعلوه بى حينما كنت طفلة وحينما أختطفنت وعُلبت فى حقيبة ثم تم بيعى، حتى لا أنسى هذه الأيادى التى كانت تمر بى والحريق فى بطنى، فعادت لى الذكريات فجأة كحامض فى حلقومى، واستطردت قائلة لها: "الأفضل أن نموت" قلت ذلك كما قالته هى عندما كنا فى تبريكة، وهى تضع المديّة على حلقها.

فى نهاية فصل الصيف، تعرفت على الطبيبة فرومجا؛ أظن أنها على الأرجح قد رأتنى عندما كنت أرفع أمامى عربة الغسيل فى ممر المستشفى. كانت الطبيبة فرومجا تعمل كطبيبة أعصاب، كانت تفحص مرضاها فى الطابق الثالث، ولكنها كانت تغدو وتعود من قسم إلى آخر بلا توقف. سألت عن اسمى من مارى هيلين وعن معلومات أخرى، وذات يوم، أخذتنى مارى هيلين على انفراد فى ساعة تناول الطعام، وكانت تتحدث إلى نفس صوتها البطئ الغنائى، ولكن فى عمق عينيها الذهبيتين، تمكنت من أن أطالع احساساتها: القلق، شئ من السخرية أو الحذر، وقالت: "تعلمين يا ليلى، كما يطيب لك، ولكن أردت أن أبلغك أن شخصاً ما فى وضع مرموق يهتم بك"، فلما نظرت إليها دون أن يبدو على الفهم، قالت: "الطبيبة فرومجا التى تدير قطاع طب الأعصاب تريد أن تساعدك، إنها على استعداد أن تجد لك عملاً، إذا شئت، يمكنك أن تقابليها"، كنت متحفظة، ذلك أننى لم أكن أرغب فى معرفة أحداً أيا كان، أو التقى بأحد من جديد مهما كان الأمر، وكنت أود أن أمضى بين الناس وبين الأشياء كسمكة تصعد سبلاً.

ثارت ماري هيلين وقالت لى: " ينبغى عليك أن تفكرى فى مستقبلك أيضاً. لا يمكننى أن أستمّر فى المجئ بك إلى هنا دون أن يكون لك مستندات شخصية، إنه أمر مخاطر فيه، فأنا أخاطر بفقد موقعى فى العمل ". كانت هذه هى المرة الأولى التى أفهمتنى فيها أنها أدت إلى خدمة، ولو كان الأمر بيدى لتركت ببساطة المستشفى، ولكن حورية كانت مُعدمة ووحيدة وكنا فى حاجة ملحة للنقود، فقلت: "ماذا يجب علىّ أن أفعله؟"، فلطمتنى ماري هيلين، وقالت: "نهايةً، ماذا تتصورين؟ هذه المرأة تعرض عليك أن تعملى لديها فى التنظيف وفى القيام بالمشتريات فقط، هذا كل ما فى الأمر، وستعملين كل يوم، وسيكون بوسعك أن تتناولى الطعام فى الظهيرة لديها، سوف تنتظرك فى منزلها غداً بعد الظهيرة ويمكنك أن تزاوى عملك لديها مباشرة، أليس ذلك ما تبحثين عنه؟"، خففت رأسى، ولم أرد أن أعارض ماري هيلين، فلقد فعلت الكثير حقاً من أجلى، لأنها كانت حنونة، ولأنها كانت تحب شعرى وبشرتى السوداء وعينى اللتين كن كعينيها، فعينى كعيون غزالة كما كانت تقول سيدتى. عانقتنى وقالت لى: " اسمعى، إذا أردتى، يمكننى أن أذهب معك حتى أقدمكِ لها، وأطلبُ من سيسيل أن تعمل بدلاً منى غداً فى فترة ما بعد الظهيرة ".

فعلتُ مثلما قالت لى، ولا أظنُّ أنها كانت سيئة النية، فكانت تعتقد أنها تمد لى يد العون، وربما كانت فى الحقيقة حاسدة، وربما أرادت هى أيضاً أن تلتفت نظر شخصاً ما فى وضع مرموق. كانت ماري هيلين متواضعة

للفاية، مخدوعة كثيراً فى الحياة بصحبة أبنيتها والسنوات التى كان زوجها السابق يضربها خلالها كل مساء، فلقد افقدها أحد قواطع أسنانها ذات يوم حينما دفعها إلى الأمام فى واجهة دولاب به مرآة، فأرادت أن تخلصنى من حياة كهذه، وقالت لى: "انظرى لى، حياتى لا تساوى شيئاً"، وأرادت أن أترك حورية، وأن أصبح آنذاك إنساناً ما.

كان منزل السيدة فرومجا يقع فى ضاحية باسى فى شارع صغير هادئ، وكان له بوابة كبيرة من الحديد وعمودين، وكان رقمه "8" مدون بالحديد، وكانت واجهته بيضاء وسقفه مدبب، وثافتة صغيرة على السطح الذى أحببته على الفور.

قدمتنى مارى هيلين للطبيبة فرومجا، ولقد سمعت الحديث عنها بكثرة، وكنت أخشى لقاءها، وظننت أننى التقى واحدة من سيدات المجتمع كالسيدة دلاهاى فى الرباط بحليها الذهبية وثوبها الرمادى الرائع، وطالعها الشاحب وعينيها البارديتين. كنت قد هَبَّئْتُ نفسى لفكرة أن أفر مع أول كلمة غير مناسبة توجهها لى، ولكن السيدة فرومجا كانت على النقيض من ذلك، فلقد كانت قصيرة ونشيطة، بشرتها سمراء للفاية، وعيناها برأقتان من الدهاء، ومع ذلك، كانت ترتدى بشكل غريب بنطالا أصفر اللون يميل إلى السمرة، واسع للفاية، وقميص طويل لونه أزرق زرقاء السماء وكأنه وشاح ريفى. عندما رأتنى عانقتنى، وقالت فى تعجب: "ولكنها جذابة"، ثم أعدت لنا شايا وقدمت لنا الحلوى، ولم تبق فى مكان ثابت، فقلد كانت تتقفز فى

الشقة كعصفور دورى، وقالت لى: "يا ليلى، عليك أن تهتمى بى، هل تريد ذلك؟ ليس لدى أطفال فستكونين كابنتى، أنت التى ستتنظمين كل شئ فى هذا المنزل، ولقد قالت لى مارى هيلين أنك كنت تهتمين فى السابق بسيدة عجوز قعيدة، حسناً، إننى فى حاجة إلى أن تعاملينى كما لو كنت كذلك، أتدركين ما أقوله لك؟". "أَحْسَيْتُ الشاى، وقلت نعم، ووجدت صعوبة فى الظن أنها تحدثت هكذا عن سيدتى كما لو كان ذلك بحق عملى أن أنشغل بسيدة عجوز قعيدة. وفى الواقع، أدركت أن ذلك الأمر كان أمراً حقيقياً، لقد كان ذلك بحق عملى منذ أن كنت صغيرة.

أحببتُ العمل لدى السيدة فرومجا، فكنتُ أبقي لديها طيلة النهار، وكنتُ أقومُ بتنظيفِ المنزل، عدت للممارسات التى كنت أرتادها فى السابق فى منزل الملاح لدى لالا أسماء، فكنتُ أبدأ بمسح الفناء ثم الرواق، وكنت ألتقط أوراق أشجار الكستناء التى كانت تتساقط والزغف وحُثالات المبانى المجاورة، ثم كنت أغسلُ البلاط وأنفض السجاد، وكنت أنظف الموكيت بمكنسة ذات يد وجدتها فى القبو. وذات يوم جاءت السيدة ورأتنى فانطلقت فى الضحك قائلة: "ولكن، كلا يا ليلى، عليك أن تستخدمى آلة التنظيف". كنت خائفة من هذه الآلة التى كانت تدوى وتصفر، والتى كانت تبتلع كل شئ حتى الأشياء التى كانت أسفل ستائر التول⁽¹⁵⁾، وانتهيت بالتعود عليها.

(15) التول هو قماش قطنى أو صوفى شفاف يستخدم عادة فى نسج الستائر والكلمة مأخوذة

من أسم ريف فرنسى. (المترجم)

كنت أقوم ببعض المشتريات فى الحى ، وبما أن متاجر المنطقة كانت أسعارها مرتفعة ، كنت أستقل الأتوبيس وأذهب إلى سوق "اليجر " حيث كنت أشتري البرتقال فى حزمة بها اثنين من الكيلوهات ، وكنت أشتري الطماطم والقرع والشمام . كان المطبخ يمتلئ بالفاكهة ، وكانت السيدة منبهرة بى . كانت تترك ورقة مالية فئة المائة فرنك على المنضدة الصغيرة فى حجرة الاستقبال ، وكنت أضع النقود المعدنية القليلة فى صحن صغير ، فلقد كنت أجاهد نفسى على إنفاق أقل شئ بقدر الإمكان . كنت أعد طبق السلطة بشكل مختلف كل يوم عن اليوم الآخر ، بالزيتون التونسى ، بالكرم الجاف والتين واليقطين الأقرع والكيوى وثمره المحامى والاوكرامبول ، وأوراق الخلس البلدى وفريزيه وباتيفيا وخس النعجة وطرخشقون وقرع وشيوت وكرنب أحمر اللون . كنت أملئ طبقا كبير الحجم أبيض اللون ثم أضعه على المنضدة فى منتصف مفرش السفرة الكبير الأبيض الفضى اللامع بجوار إبريق معبا بالماء الطازج ، ثم أنصرف . وعندما كنت أعود إلى شقة الأنسة ماير ، كان كل شئ يبدو لى قاتماً ، حزيناً ، تعساً . كانت حورية تتمرغ على الأريكة ، وتقرض الخبز ، كانت حزينه فتقول لى : "أتتركينى ، تتركينى وحيدة ، فأمضى حياتى فى البكاء ، هل لهذا السبب أتيت بك إلى هنا؟ " ، كانت حورية غيورة حاسدة ، وكانت تقول : "والآن ولم تعد لك حاجة إلى ، والآن وقد وجدت من هو أفضل منى ، فتذهبين ، وتتناسيننى وأنا أموت فى هذا الثقب الأسود دون أن أجد من ينقذنى " . فكنت أحاول أن أهدأ من روعها ،

وعدها أنني بمجرد أن أقتصد النقود الكافية سنذهب نحو الجنوب، إلى مارسييا، إلى نيس؛ كنت أحدثها وكأنى أتحدثُ إلى طفلة.

ربما كانت حورية على صواب، فقد كنت أرغب فى الرحيل، وأريد أن أبتعد على قدر الإمكان عن شارع جان بوتن وعن الفنادق البائسة وعن متاجر الكوكاكيين على الرصيف وعن عصابات الشباب التى كانت تهرول بعصيانها كى تضرب العرب والأفارقة لحظة مرورهم.

كنت أشعر بالسعادة حينما أدفع البوابة الحديدية للمنزل رقم "8" وأدخل إلى المنزل القديم الهادئ حيث رَتَبْتُ كل شئ وزينت كل شئ، وكان لالا أسماء كانت لا تزال حية وكأنها السيدة الحقيقية للمنزل.

أظن أنني منذ أن كنت طفلة لم يتوقف الناس عن وضعى فى شباكهم، فكانوا يوقعوننى فى شباكهم، ويمدون إلى شراكهم عن طريق عواطفهم وضعفهم، فلقد كانت هناك لالا أسماء، ثم كنتها زهرة، والسيدة جميلة، وتغادير، والآن حورية؛ كان لدى شعور بأننى أختنق. ولم يكن بوسعى أن أفلت من حورية، كان على أن أعود وأعيش من جديد فى دوار تبريكة، سجينة فى دار تغادير، كى أعيش فى أفق وحدوى يشكله كل من طرف الزقاق المثقوب ومعبى الطريق الحديث السريع، والفئران التى تحدث أريزا على السقف.

أتفق معكم على أن هذه الفكرة لم تكن طيبة من جانبى، ولكننى لم أعد أقدر على العيش هنا، ولذا ففى الساعة التى كان ينبغى على فيها أن أعود

إلى منزلنا فى شارع جان بوتن، كنت أمكثُ لدى السيدة، وكنت أستمر فى تنسيق المطبخ، فأجلى الأوانى، البلاط الصينى والصنابير، وكنت أفعلُ ذلك حتى لا أتأمل فى حياتى، وكى لا أفكر فى أمرى.

ذات يوم، عادت السيدة فرومجا مبكرة عن موعد قدومها قليلاً؛ وعندما رأتنى، فطنت كل شئ، فراحت تعانقنى قبل أن تنزع واقى المطر من على ملابسها، وقبل أن تنزع مفاتيحها من باب المنزل، قالت: "إن ذلك يسعدنى يا عزيزتى، كنت أنتظر هذا اليوم، وكنت على يقين من أنه سيأتى"، ولم أدرك كثيراً ما كانت تريد أن تقوله لى، ثم أشارت إلى الغرفة التى تقع فى نهاية المنزل، إلى جانب المطبخ، تلك الغرفة التى كان لها مخرج إلى سلم الخدم؛ وفى هذا المكان، كنت قد وضعت حقيبتى ومذيعى القديم وكل ما أملك، ولم تطرح على السيدة أسئلة، فعلتُ كل ذلك على الفور كما لو كان ذلك أمراً متفقاً عليه بيننا، كما لو كنت أقيم لديها منذ أشهر وأعوام. كان ذلك الأمر مريحاً لى من حورية؛ وحتى مارى هيلين كانت مُضنية، كانت تريدُ أن تعرف كل شئ فى حياتى وتتدخل فيها؛ ولم أفكر حتى فى نونو آنذاك، فحتى هو كان يسجننى فى شبكة صيده، كان يود أن نخرج معاً، ويريد أن اقبَلَه خطيباً لى، وكان عطوفاً علىّ وله بسملة طيبة، وكنت أمزح معه كثيراً، ولكننى كنت أخشى أن تلتقطه الشرطة لأنه كان كاميرونيا لا يحمل مستندات شخصية، وكان لدى إحساس أنه، إن أجلاً أو عاجلاً، سوف يُقبَضُ عليه فلم أرد أن يقبض علىّ معه.

وفى منزل هذه السيدة كانت السكينة، وهناك، كنت على يقين أنه لن يحدث شئ، فلقد كان منزلها يقع فى حى هادئ، فى شارع صغير منحنى، به منازل صغيرة لها حدائق، وكانت المباني مباني أثرياء، وكان هناك أطفال شقراء يرتدون ملابس موحدة، فلم يكن للشرطة أن تأتي وتعسكر هنا. فى البداية وبعد إقامتى فى باسى، كنت أنام طول الوقت، وكان يبدو لى أننى لم أنم منذ سنوات، ذلك أننى كنت أعيش تحت وطأة الهروب، أو كنت أخشى أن تقبض على شرطة زهرة؛ وفى شارع جان بوتن، كانت مشاجرات السود، والآنسة ماير، والعصابات الملقبة "بالبانك"⁽¹⁶⁾ والتى كانت تهول فى الأزقة مسلحة بالعصى كى تضرب العرب، وكانت هناك أيضاً صفارة البوليس التى كانت تنطلق غالباً، وصوت عربات الإسعاف المأحزن.

أما الآن فأنام حتى التاسعة أو العاشرة صباحاً، وفى بعض الأحيان، كانت السيدة تيقظنى، كانت تجذب الستارة، لينزل ضوء الشمس بين جفونى، وكنت أرى من خلال النافذة الكرم الأحمر، وأسمع العصافير تُزَفِّقُ، فأجلس كالكرة على الفراش حتى أواجه لحظة نهوضى، فى حين أن السيدة كانت تجلس على طرف الفراش تمرر برفق راحة يدها على وجنتى كما لو كنت قطاً صغيراً. حتى صوتها أيضاً كان يداعبنى، فكانت تلفظ بكلمات عذبة جداً تتدحرج كالحلم، وتقول: " لا تتحركين يا عزيزتى، وظلى هكذا،

(16) هى مجموعة من الناس الذين يعرفون بمعارضتهم للنظام الاجتماعى بشكل ثورى

هنا منزلك، دعيني آهدهدك، إنكِ ابنتي الصغيرة، أنتِ الابنة التي كنت أنتظرها، فدعيني أذودَ عنكِ، ومعى لن تخشى شيئاً، سوف أعتنى بك، فأنتِ ابنتى، يا طفلتى الصغيرة...". كانت تقول كلمات كهذه بالقرب من جسدى، فى أذنى وأشياء أخرى بصوتها الأجش الحنون، وكانت يديها الدافئة الجافة تنزلق على وجهى وتداعب شعرى فى رقبتى، وكانت تخلل أناملها فى قرطى؛ ولا أعرف إن كنت أحب ذلك، فلقد كان أمراً غريباً، كان بمثابة حلاًماً ينبسط، فيبدو لى أننى أنموجُ فوق غيوم، وكنت أرتعش وأشعر بموج يتجول فى ظهري، ويصعد بطنى، وأشعر بكل عصب فى جلدى، من أقدامى حتى يدي، ولم يكن بوسعى أنتحرك، فكنت أنام فى هذه الحالة، وعندما كنت أفتح عيني ثانية، كنت أرى النهار ساطعاً تكون السيدة قد مضت إلى عملها، حينئذ كنت أنهض وأذهب إلى صالة الاستحمام وأخذ حماماً منعشاً لكى أستيقظ.

لم أعد أذهب بعيداً من أجل قضاء المشتريات، فالآن أخشى أن أفقد هذا الحى، وأخشى أن أبعد عن هذا الشارع الهادئ، فلا أرى علامة الرقم "8"، فكنت أذهب إلى متجر الخبز فى طرف الشارع، وبالقرب من محطة المترو، كنت أشتري الفاكهة والخضر والجبن، ولهذا كانت النقود لا تكفى، وحتى لا أطلب من السيدة، كنت أنفق من مدخراتى الخاصة، فلقد كنت أظن أن السيدة فروماجا جعلتني أعمل لديها لأننى حاذقة وأننى أعرف الشراء، ولم أرد أن تعلم عنى أننى أصبحت كسولة، وأننى لم أعد أدرُ لها؛

إلى حد أننى - ولرات عديدة - لم يعد لدى النقود الكافية للشراء، فسرقتُ أشياء، غلب سمك السيمون المحفوظ، وبسكويت ومساحيق غسيل للمنزل، فلم أفقد خفة يدي، وكنت ماهرة دوماً، وكان تُجارُ الحى سُدَجْ، فلم يكونوا على حذر منى. مرة واحدة فحسب، تعرضتُ لمشكلة، لم أدرك على التو ماذا حدث، ولكن تَرَكَ هذا الأمرُ لدى انطبعا غريباً كما لو كان هناك سرّاً أو مَعْنُاً سرياً لم أتوصل إلى فهمه: كانت هناك بائعة من بائعات المتجر الصغير، شابة عظمية الهيكل، شعرها مُصْفَرٌ، عندما مررت من أمامها نظرت إلى بإمعان، وظننتُ أنها رأتنى وباغتتنى وأنا أهم بسرقة طفءة تبغ، فأخرجتها من جيبى حتى أدفع ثمنها، ولكنها قالت وببطئ شديد مركزة على كل كلمة: "إذا، أنت الجديدة ؟"، فتمتمت: " الجديدة ماذا؟"، فأمعنت النظر فى بعينيهما الشاحبتين الباردتين، وقالت: "نعم، نعم أيها القلب الجميل"، ووضعتُ كل شئ فى الحقيبة ومدتها إلى دون أن تأخذ منى نقود، ففررت مهرولة لئلا تنادبنى.

وفى بعض الأحيان، كنت أهتف إلى حورية بعد الظهر، وحتى تمرر لها الأنسة ماير المكالة التليفونية، كنت أقول لها أننى أهتف من مكان بعيد، من إنجلترا أو أمريكا، فكانت تقول " أحقا؟ " بصوتها المزمارى المنخفض؛ وبعد لحظة كنت أسمع صوت حورية الخفيض الأجش، وكانت تحدثنى بالعربية وأجيبها بالفرنسية.

— أين أنت؟

- فى باريس وليس فى أمريكا.
- متى ستعودين؟
- لا أعرف، أسمعى: أننى منهمكة فى عملى.
- أواه.
- بلى، أوكد لك ليس لدى مطلقاً الوقت، ثم أننى بعيدة فى الطرف الآخر من المدينة.
- أواه، أواه.
- لماذا تقولين أواه، أواه، ألا تصدقيننى، اسمعى سوف آتى كى أراك متى استطعت أن أفرغ نفسى، أليس لديك حاجة إلى شئ؟ هل مازال لديك نقود؟
- حسناً، مازال هناك القليل.
- يجب أن أتركك الآن، سوف أحدثك ثانية.
- لماذا تكذابين على؟ لن تأتى حتى موتى.
- اسمعى أنا لا أكذب عليك، لن أستطيع أن آتى الآن. سوف أحدثك ثانية.
- حسناً.
- إلى اللقاء.
- كُنْتُ فى خزى من نفسى، فلقد كانت نصف ساعة فى المترو تكفى كى أكون هناك مع حورية، ولكن لم يكن هناك من سبب سوى أن فكرة

سمكة من ذهب 134)

الدخول إلى شارع جان بوتن كانت تجعلنى أتقيأ، فلقد كان ذلك بمثابة حائطاً يفصلنى عن هذا المكان.

جاء نونو إلى ذات صباح، لا أعرف كيف عرف المكان، أظنه قد انتزع الإجابة من أنف مارى هيلين، رغم أنها كانت قد حذرتنى منه، أو يكون على الأرجح قد استفهم عن المكان من المستشفى، فعندما كنت ماضية لقضاء المشتريات، وجدته. على الأرجح أنه أنتظر لوقت طويل بزاوية باب مرتدياً قميصه الجلدى فحسب فى برد الخريف، فكان ينخر، وكان مزكوماً، وبدت عليه السعادة حين رآنى، ولم يكن يوسعى أن أصرفه، فلقد كان خائفاً. قال: " لقد تغيرت "

– أحقا ؟ إلى الأفضل ؟

فضحك وقال: " يبدو عليك الآن أنك امرأة ".

كان ذلك بسبب الملابس التى كانت السيدة فروماجا قد ابتاعتها لى: بنطالاً لونه أسود، وقميصاً من الصوف على هيئة حرف فيه⁽¹⁷⁾، ووشاح أحمر طوقت به رقبتى.

أظن أننى كنت فى هلع من مقابلة أحد من حياتى الأخرى، ولكننى كنتُ مندهشة لأننى فى الواقع كنت فرحة بلقاء نونو.

(17) وهو ما نقول عنه فى اللهجة المصرية وبعض اللهجات العربية على هيئة رقم 7.

اصطحبني أثناء إجرائي للمشتريات، وكان يحمل العلب، فلقد كانت مناكبه عريضة ورقبته سميكة، وكان وجهه وجه طفول، وكنت مندهشة من حجمي أمامه، فكان يبدو لي أكثر قصراً مني. رآه التجار لطيفاً، فكانوا يمزحون معه، وكان هناك من قال لي: "أهو أخ لك؟". وللمرة الأولى منذ عدة أسابيع، كنت أمزح، وكأنني أخرج من حلم.

قال لي نونو بعض الأخبار عن شارع جان بوتن: الآنسة ماير في متاعب، فلقد دخلت الشرطة إلى منزلها، فلأنها لم تصرح بكل سكان الكوخ، هددتها الشرطة بدفع غرامة، وقال نونو: "كانت العجوز الشمطاء تبكي وتقول: إن ذلك ليس خطئي، هؤلاء السود يشبه بعضهم البعض الآخر، فأنا لا أعرفهم" وقلت له: "وخالتي".

كنت ألقب حورية كذلك، وكانت لا تقول شيئاً، كانت توارب غرفتها وتغلقها على الفور، فلقد كانت تخشى الشرطة، وتظن أنه سيتم القبض عليها وإرسالها إلى زوجها، بيد أن العسكر كان همهم الأفارقة، أما نونو فقد هرب من السقف، ولهذا السبب جاء إلى هنا. قلت لنونو:

"وأين تقيم الآن؟"

فالتفت نحو المدينة الأخرى، كما لو كان من الممكن رؤيتها من المكان الذي كنا فيه، وقال: "أعارني صديق مبيت سيارات، وهناك أنام فيه..."

— "وأين يكون ذلك؟"

فتأمل، وقال: "إنه أسم غريب، يسمى شارع جافلو"، ثم اظهر لى طرف ورقة حيث كان مدوناً على عجل: "28 شارع جافلو"، فاعتقدت أن ذلك اسم محارب كامبيرونى. وقال نونو: "فى الليل، تمضى الأمور على ما يرام، أما فى النهار فالأمر محزن جداً، فأذهب لتدرب فى المعهد الرياضى، لأننى سوف أشارك فى بطولة الشهر المقبل، ويقول مدربى أنه سيكون يوسعى أن أمتهن لعبة الملاكمة، وسيعطينى كل الأوراق اللازمة للإقامة".

عندما عدنا إلى المنزل رقم "8"، أدخلت نونو حتى يحتسى القهوة، فكان معجباً بهيئة المنزل، وكان يسير برفق كما لو كان يخشى أن يفرقع أرضية البيت؛ عبرنا الصالون حتى المطبخ الضخم الأبيض، وكانت دهشته تسرنى، فلقد عرفت منذ وقت طويل بيوت الأثرياء، فبعد فيلا السيدة دلاهاى، لم يبدو أى شئ خارقاً، أما نونو فقد كان كالطفل أمام اللعب الجديدة، فكان يتفحص ماكينة القهوة الكهربائية، وحماصة الخبز، ويشد الأدرج التى تسير على كرات، وكان يدور السلال الغير قابلة للصدأ، ويقول: "حقاً هنا الثراء".

- "أبحق يعجبك ذلك؟"

فضحك ضحكته البراقة، وقال: "هذا أفضل من مبيت السيارات الذى أقيم فيه"

وضعت زراعى حول رقبتة، وقلت له: "إذا ما غدوت ملاكماً شهيراً سيمكنك أن تشتري منزلاً مثله فتأمل وقال: "إذا ما حدث ذلك، سوف أتزوجك أنت".

كان يبدو عليه الجد إلى حد أنني انطلقت فى الضحك، وقلت له: "توقف عن خداعك، عندما تصير ملاكماً شهيراً، ستفكر فى أن تتزوج من عروس جميلة شقراء"، فنظر إلى فى عتاب، وقال: "لماذا تقولين ذلك، سوف أتزوج منك أنت".

اعتاد نونو أن يأتى كل صباح تقريباً عدا أيام عطلة نهاية الأسبوع، ذلك أن السيدة فروماجا كانت تبقى فى المنزل، وكان يساعدنى فى حمل المشتريات وكنت أعد له وجبة إفطار بالبيض ومزبدات محمصة وأكواب كبيرة من الحليب الساخن.

لم تكن السيدة فروماجا تقول شئ، ولكن على الأرجح أن شخصاً ما قال لها ذات يوم عن شئ ما، ذلك أن وجهها تبدل وأصبحت عنيفة وشريرة معى، فكانت تزجرنى إذا ما قلت لها نعم أو لا، وكانت تعود فجأة فيبدو عليها الغضب كما لو كانت قد نسيت شئ، حزمة مفاتيح أو ملف أو أى شئ؛ ولكنها كانت تفعل ذلك حتى تعرف إن كنت مع نونو فى المنزل، فأدركتُ ذلك الأمر على الفور، وقلت لنونو ألا يأتى إلى المنزل وأن ينتظرنى فى الشارع، فسخر منى قائلاً: "إن سيدتك غيورة".

ضايقتنى ذلك الأمر، بالرغم من أنه أصبح كذلك، وكان لدى إحساس أن شيئاً ما يتم تدبيره، ولم أكن أعرف ما هو. وفى غضون هذه الفترة، سلمتنى السيدة فروماجا خطاباً غامضاً. كان مدوناً فى أعلاه: "الشرطة القومية. مكتب شرطة الدائرة السادسة عشرة"، وكان ذلك استدعاء لى بغرض

تسوية حالتي، وكانت السيدة فرومجا تعرف ذلك الأمر، فدبرت كل شيء، إن كانت صديقة لمدير مكتب الشرطة، فقدمت شهادات الإقامة وإقرارات على الشرف، وكان كل شيء مُعد. تظاهرت بأنها تحاولُ أن تُدرك الأمر، فقالت: "أظن أنهم سيقبلون طلب تسوية حالتي، ثم سيكون بإمكانك الحصول على الجنسية"، فكنت كالصعوبة، ولم أقدر على قول: "ولكنني لم أطلب شيء"، ثم تذكرتُ زهرة وزوجها وشقتهم، حيث كانوا يسجنونني على مدار أشهر، ودوار تبريكة، والفئران التي كانت تعدو على السقف وتحدثُ صوتاً بمخالبها على الصفيح، فقلت شكراً لسيدتي، فعانقتني.

عندما عدت من مكتب الشرطة، بشرتي حمرة، بداية بسبب الطقس الذي كان حاراً، ولأن المُستخدم في مكتب الشرطة كان ملاطفاً كثيراً تجاهي، فاستوجب الأمر أن أقص عليها كل شيء، الأوراق التي وقعتها والبصمات الإصبعية، والإملاء⁽¹⁸⁾ وقصة اسمي الذي كان قد اختارهُ لي المُستخدم: ليز هنريت، فلقد رأى أن ذلك الاسم يناسبني. ضحكت السيدة فرومجا وضربت يديها، وكانت متحمسة وكان كل ذلك كان لها هي. وبالطبع، لم أقص عليها حكاية المُستخدم الذي مال إلى، وأضعاً يده فوق عنقي، ثم سألتني برفق: "كيف نقول كلمة أحبُّكِ بالعربية؟"، فأجبته "كفى.."⁽¹⁹⁾، وهي أغلظ كلمة كنت

(18) من بين شروط الحصول على الجنسية الفرنسية إجادة الإملاء. (المترجم)

(19) الكلمة التي وردت في النص الفرنسي هي saafi وهي كلمة دارجة تُستخدم في العربية

المغربية (صافي) لحث المحاور على التوقف عن حديثه. (المترجم)

أعرفها، لأنها كانت الكلمة التى تصيح بها حورية فى وجه الرجال الذين كانوا يضايقونها فى تبريكة. ولم أقص عليها ذلك لأنه لم يكن بوسعها أن تدرك ما أقول، وكانت لن تدرك كم كان الأمر سيان بالنسبة لى، فلقد حدث فى وقت متأخر للغاية، وأنه ما كان لى أن أمنح هذه الأوراق، بل كانت هذه الأوراق ينبغى أن تُعطى لحورية.

رقت السيدة قليلاً وقالت لى: "لا ترحلى؟ قولى لى أنك لن تتركينى أقع على الأرض"، كانت تتحدث كحورية وتغادير، الناس كلهم متشابهون.

كان من الممكن أن أمكثُ معها كثيراً، وكان من الممكن أن أبقي معها حتى هذه اللحظة، لو لم يحدث ما حدث تلك الليلة، وأعتقد أنه حتى لو أننى لم أصير فى هذا الوضع الجديد، وحتى لو لم يحدث هذا الشئ، كنت سأمضى أيضاً الليل معها. وجدت صعوبة فى فهم كيف تم ذلك الأمر؛ وبعد العشاء تحدثنا سوياً. منذ وقت قليل وأنا أشغل معها السجائر الأمريكية ونحن نتحدث؛ كنا نشاهد قليلاً التلفاز بطرف أعيننا دون أن نوليّه اهتماماً حقيقياً، وكان الطقس لايزال حاراً، كان ذلك فى نهاية سبتمبر، وكانت نوافذ المنزل منفرجة على أشدها، وكان هناك قليل من المطر يتساقط على أوراق الأشجار، وكان كل شئ هادئاً فى شارع مريونييه، ولم يكن يتصور إنسان أن أشياء مخيفة تحدث فى مدينة كبيرة جداً مثل هذه.

أعدت السيدة فروماجا كوب شايبا المسائى، وازعة فيه أوراق وزهور بمذاق الفلفل والفانليا المنفرة قليلاً، واستلقيت على الأريكة، وكان

لدى إحساس بأننى أتموج، كلا لم أكن نائمة، ولكننى شعرت بجسدى خفيف جداً، ولم يكن بوسعى أن أحرك ذراعى ولا ساقى، وكان يبدو لى أن وجه السيدة دان منى، براقاً كالنجم، وضحككتها غريبة، وكانت عينيها السوداويين الممتدتين تشبهان عين قطّة؛ كانت تتحدث وتكرر بعذوبة: "يا طفلتى الصغيرة!، يا طفلتى الصغيرة!" كما لو كانت تمؤ. أحسست بيدها الجافة والحارة تتدحرج على جلدى من خلال قميصى المفتوح، وأخذت تعبت فى أزرة ثديى، فكان قلبى يدق ويتحطم، وكنت أنصتُ إلى صوتها الذى كان يخرخر قائلاً: "يا طفلتى الصغيرة!"، وأردت أن تتوقف وأن تصمت وأن تختفى، أردت أن أعود إلى مكان لا يكون فيه أحد، كنت أبغى دار المقابر التى كنت أذهب إليها أمام البحر، عندما كانت الشمس تبرق فى النصب التذكارى، فى العشب، النصب التذكارية التى لاتحمل اسماً، والعصافير المعلقة فى الريح بأجنحتها الحادة المشابهة للمناجل الكبيرة.

عندما استيقظت فى الصباح، كان فمى جافاً وكنت أشعر بألم فى وجهى، ولم أتذكر جيداً ما حدث، فلقد نمت على أريكة الصالون وتدثرتُ بقميص حمام السيدة المصنوع من الحرير اليابانى وما أزعجنى بداية، هو رائحة الجلد الروسى التى كانت تصدعُ رأسى، فجلت هنا وهناك عبر المنزل الخالى مصطدمةً بالأثاث، ولم أكن أعرف عما أبحث، فلم يكن بوسعى أن أفكر فى شئ. أعددت الماء الساخن لقهوتى، ثم دخلت الشمس إلى المطبخ، وفى

الخارج كان الجو رائعاً، فالكرمة الخالية من الثمر أخذت تصهب من خلال إطار النافذة، وكانت هناك مجموعة مؤلفة من عصفير الدوري تعقق.

وفجأة، وبينما كنت أحتسى قهوتي، أصبح كل شيء واضحاً أمامي: ينبغي عليّ أن أرحل عن هذا المكان، وكنت أشعر بقلبي يدق بشدة، وكان ألم جبهي يشتد، وعدت للخلف فقلبت مقاعد، وكنت أردد: "العجوز الشمطاء! العجوز الشمطاء!" مثلما كانت تقول ماري هيلين عندما كانت تتحدث عن الآنسة ماير.

الآن أتذكر ما كانت تقصه عليّ لالا أسماء، فلقد كانت تقول: لاتشربي من شاى شخص لا تعرفيه لأنك بهذا تشربين شيئاً لاتريديه"، وكانت تحدثني عن رجل كان يدعو الفتيات لاحتساء القهوة ويجعلهن تشربن دواء حيوانات، وعندما كن ينمن، كان يحملهن لديه ويغتصبهن ويقطع رقابهن.

وتذكرت الشاى الذى كانت السيدة تعدده لى وعينيها السوداوين اللتين كانتا تبرقان بينما كنت أترنح برأسى. بالأمس، على الأرجح، أنها أكثرت من دواء الروهيبنول ففقدت الذاكرة، كنت أمقتها، فلقد خدعتنى، ولم تكن صديقتى، بل كانت شخصاً ما كالآخرين، مثل زهرة والسيد دلاهاى ومثل المستخدم فى مكتب الشرطة، فكنت أبغضها، وكان من المفترض أن أقتلها، " الغبية، الغبية العجوز".

ارتديت ملابسى، الجينز والقميص الصوفى الذى جئت به، ثم ألقيت بلا تريث كل ما ابتاعته لى السيدة فروماجا: السلسلة الذهبية الصغيرة مع الشارة التى حُفر فيها اسمى، وألقيتها فى المرحاض وجذبت طرادة الماء، ولكن نفير المياه لم يفلح فى ابتلاعها، ثم بحثت عما يجب أن أفعله كى أنتقم لنفسى، ولم أرد أن أسرق شئ، لم أرد أن أخذ أى شئ من عندها، وأردت فحسب أن أمحوها من ذاكرتى، هى وزرائعها. ذهبت إلى مكتبها، وشرعت فى إلقاء كل كتبها على الأرض، وكنت أخذ الكتاب من على المكتبة، وأنظر فى العنوان، ثم ألقيه فى وسط الغرفة، ثم أصابنى جنون، فمضيت فى تطهير الكتب تدريجياً بسرعة، فأحدث ذلك ضوضاء شديدة، ضوضاء أوراق تتمزق، وكانت الكتب تصطدم بالحوائط. فعلت نفس الشئ فى صورها وفى خطاباتها وفى أوراقها، وأظن أننى كنت أتلفظ بكلمات فى ذات الوقت، كنت أصرخ وأسبها بالعربية، وبالفرنسية وبكل ما أعرف، فجعلنى ذلك على ما يرام. عندما فرغت من هذا الأمر، أصبح مكتب وصالون السيدة يشبهان حقلاً بعد إعصار، وحينئذ أخذت حقيبتى ومذايعى القديم ورحلت.





كان شارع جافلو بمثابة المكان الأكثر غرابة فى مدينة باريس؛
 فى البداية لم أصدق أنه موجود؛ وعندما جاء نونو يستقل دراجته النارية
 ليبحث عنى (أو بالأحرى بالدراجة التى استعارها) ثم دخلنا تحت الأرض،
 ظننت أنه يأخذ طريقاً مختصراً وأننا نعبّر نفق، ولكن الشارع كان مستديراً
 تحت الأرض فى رواق مبنى بالخرسان، تقع على جانبه أبواب مبيت
 السيارات، وكان صوت الدراجة يدق كالجسيم؛ وكانت هناك سيارات تسير
 فيه مشعلة فوانيسها مستخدمة منبهاتها. وبسبب ما حدث، كنت منهكة،
 فالتصقت فى قميص نونو، وانتابنى إحساس بأننى مشردة، فلم أعد أعرف إلى
 أين أذهب وماذا سيحدث لى، وأظن أن دواء الروهيبنول لم ينتهى تأثيره بعد
 حتى هذه اللحظة.

بعد ذلك، هويت طريحة الفراش؛ وكانت شقة نونو الكائنة أسفل الأرض صغيرة، ولم يكن بها ضوء على الإطلاق، اللهم إلا شعاع يمر من خلال جُب فيصل حتى المطبخ؛ وفي الواقع لم تكن بشقة، إنما كان مبيتاً للسيارات أو قبواً تم تهيئة مرحاض فيه لكل الدور تحت الأرضى وكذلك مطبخ. أما بقية المساحة، فكانت موزعة إلى خلايا من الأسمنت بها أبواب ثقيلة من الحديد المخطط بالخدش وأسقف من القُنب، ولكن ذلك كان شيئاً حسناً بالنسبة لنا، لأننا لم نكن نستمتع إلى الضوضاء، إلا صوت شبكة المجارى من آن إلى آخر، أو صوت مراوح التهوية. لم أكن أدرك ماذا ألم بى، فظللت راقدة طول الوقت تقريبا على الفراش الذى وضعه نونو فى غرفته من أجلى وحدى؛ أما هو فكان ينام فى الصالة. كان ذلك بالأحرى مبيتاً للسيارات، أرضيته الأسمنتية مطلية بلون رمادى، وعليه باب كبير بمصراعين. فضلاً على ذلك، كان يودع فيه دراجته، وكان ينام على الأرض على فراش من الكرتون الورقى. كان نونو عطوفاً، فلقد أعطانى غرفته، وكان يأسف لرؤيتى فى حالتى هذه جامدة على الفراش؛ وكنت أشعل الغليون، ثم أسعل. كنت خائفة القوة، ولم أكن أقدر حتى على تحريك ذراعى أو على أن أدير رأسى؛ ولم أعد أتناول الطعام، فلم أكن أشعر بالجوع على الإطلاق. فى بعض الأحيان كان الرضب يملأ فمى، فكان على أن أميل إلى جانبى حتى أبصق، ولم تكن الدورة الشهرية قد أتتني بعد، ولقد حدث كل ذلك وكأن كل شئ توقف فى داخلى.

كان نونو يقول إن ذلك قدرٌ، كان يبدو عليه أنه يدرك أمرى، قال لى ما يجب فعله: إلقاء الملح فى النار، وضع ريش أو قذاة، رسم علامات على الأرض، النفخ فى الدخان؛ فكنت أستجيب لكلامه، وأصدق أى كلام يقوله وأى ضحكة يطلقها، فلقد كان هو الشخص الوحيد الذى يربطنى بالعالم. عندما كان يعود من التدريب، كان يشتم الشارع، العرق وغاز الدراجات، فكنت أمسك بيده، يده المربعة بأناملها القاسية وجلد كلية يده الناعم كالأكرة المستنفذة وأقول له: "قص على كل ما رأيته بالخارج، وكل ما يحدث فى الشوارع"، فكان يقول لى أنه رأى حادثة، أو أن شاحنة اصطدمت بسيارة بالية فاقتلعت جناحها، وكان يقص أنه رأى اسكوتلنديين يعزفون مزمارة القربة، وأنه رأى مارى هيلين، وكان يأتينى بأخبار عن شارع جان بوتن، وكنت أسأله: "وخالتي حورية؟"، فكان يهز رأسه ويقول: "لم أراها، ولكن يبدو أن السيدة فرو...". ولم يكن يقدر على ذكر الاسم، فلقد كان ذلك يضحكه، ويستطرد: "ربة عملك، يبدو أنها تبحث عنك، إنها تحنق عليك حتى الموت، إنها هى العجوز الشمطاء التى ألقت اللعنة عليك، سوف أقتلها". لم يقل نونو لأى شخص حتى لمارى هيلين أننى أقيم لديه. ولو أن السيدة كانت قد عثرت علىّ لألقتنى من باب فرنسا وكأنى مجرمة، رغم أننى لم أسرق منها أى شئ، بل هى التى سلبتنى شيئاً ما وكذبت علىّ.

كانت تأتيني كوابيس فى نومي، ولا أعلم إن كانت تأتى فى الليل أو فى النهار، فكنت أرى أننى فى بطن حيوان كبير يهضمنى ببطنى، وذات

يوم، صحت وجاء نونو، فداعب طالعى، وكان يحدثنى برقة كأنه يحدث طفلة، وعندما أراد أن يعود إلى كراتينه، مسكته وضممته إلى بقدر ما استطعت، فشعرت بعضلات ظهره كأنها أحبال، اتجه إلى وأطفأ المصباح، وكنت أطوق كل جسده، وكان يرتعش ولم أعرف لماذا، فبدأ لى ذلك الأمر غريباً، فهو يرتعش ولست أنا التى يفتابها خوف، ولم تفعل شيئاً هذه المرة، رقدت فقط وجهى إلى وجهه، ولم يكن نونو يتحرك، فلقد طوقنى بذراعه وراح يتنفس فى رقبتى. وذات مساء، ضاجعنى برفق، ثم اعتذر لى وقال: "هل آلمتك؟"، وكانت هذه هى المرة الأولى بالنسبة لى، ومع ذلك لم يدهشنى ذلك الأمر، فلقد كان لى إحساس بأننى أعرف ذلك منذ وقت طويل جداً.

ثم مضى كل شئ يتحسن قليلاً فى حياتى، فأخذت فى التحرك من فراشى، وذهبت إلى للمطبخ، ثم سألت نونو ساعة الإفطار: "هل الطقس جيد؟" فرد: "انتظرى سوف أذهب كى أرى"، ثم دفع المنضدة الصغيرة، وفتح كوة الباب، وتمكن ثانياً جسده من إخراج نصفه حتى الجُـب الذى كان يجلب شعاع الضوء، ثم عاد والعرق على قميصه وقال: "السماء كلها زرقاء"، وأراد أن أصعد معه فوق دراجته كى نمضى لنقوم بجولة.

عندما عاودت الخروج إلى الشارع للمرة الأولى، صعدت السلم الواقع بجوار باب مبيت السيارات، ثم المصعد الكهربائى وصعدت حتى أعلى المبنى. كان ذلك فى الصباح، فلقد مضى نونو إلى صالة التدريب، وكان كل شئ ساكناً، اللهم إلا الهزة فى كل طابق من المبنى، وصعدت عالياً حتى الطابق الرابع

عشر؛ كان هناك مكاتب و شركات تأمين و محامون وشركات سفن، أو شئ من هذا القبيل؛ دخلت إلى المكاتب، ودون أن أتوقف، سرت حتى الزجاج الكبير، فرأت الكاتبات هذه الفتاة السوداء فى كومة شعرها وفى بنطالها الجينز البالى ونظراتها المصوبة إليهن، فانتابهن خوف شديد، وأظن أنه للمرة الأولى أدركت أنه بوسعى أن أخيف إنساناً .

اتكأت إلى الزجاج ونظرت؛ ولدة لحظة، ظلمت متجمدة من الدوار الذى انتابنى، فلم أكن قد رأيت فى حياتى قط مدينة أعلى من هذه المدينة: فلقد كانت هناك أسقف ومبانى وشوارع عريضة لا يدركها البصر، وميادين وحدائق، وأبعد من ذلك اللال، وحتى تعرج النهر الذى يتألاً فى الشمس؛ كان ذلك مشابه لأعلى الشلال فى دار المقابر أمام البحر مع طيور النورس التى تحلق فى واجهة السماء. كان هناك دخان وهياكل سيارات تتألاً صغيرة كالجعمران. أحدثت فى الضوضاء دواراً، دوى صامت ومستمر يصعد كل شئ فى آن واحد تخترقه أجراس تنبيه سيارات وصفارات إنذار الشرطة وعواء الإسعاف. كانت يدي موضوعة على الزجاج السميك، ولم أستطع أن أبعد نظرى عما أراه. كانت السماء تعبرها سحابة كبيرة سوداء، وكانت هناك أشعة الشمس فى جانب وقطرات المطر فى جانب آخر، وأقسم لكم أننى لم أر منظرأ أبعد من ذلك.

سمعت صوتاً خلفى، صوت آن قليلاً، فكانت هناك امرأة تقول لى برقة: " آنستى، آنستى، ألا تشعرين أنك على ما يرام ؟"، ولكننى لم أفهمها

على الفور، التفتُ، ونظرتُ إليها ضاحكة، وكانت هناك دموع في عيني لأننى أحسست أننى سعيدة فجأة، وقلت لها: "كلا تمضى الأمور بخير، تمضى الأمور بشكل حسن للغاية، أنا، أنا أردت أن أستمتع بالمنظر"، ولم تسكن من روعها ابتسامتى، على ما أظن، ذلك أنها تباعدت. كانت شابة، شاحبة، شعرها طويل أشقر، وعيناها خضراوين. كان بصحبتها نساء أخريات، إحداهن بدينة قليلاً وأخرى تشبه السيدة فروماجا، ومن المحتمل أنهن قد استدعوا الأمن لأننى عندما خرجت من المكتب نحو المصعد الكهربائى، فتحت الأبواب المعدنية، فخرج رجل يتفحصنى بتمعن، كان يرتدى زياً أزرق اللون، ويحمل أصفاداً على زناره، ثم دخلت المصعد وأغلق بابه. كنت متعبة، ثملة قليلاً، وعندما بلغت مبيت السيارات فى الطابق تحت الأرضى، تمددت على الفراش، ونمت قسماً كبيراً من النهار، حتى أن نونو، عندما عاد من صالة الملاكمة، لم يوقظنى. نظر إلى وأنا نائمة، جلس وظهره متكأ إلى الحائط دون أن يحدث ضوضاء كما لو كان أذى الأكبر.

بعد ذلك، عاودت الخروج، ولم أنتبه إلى أننى كنت سجيناً طوال هذا الوقت. فى الخارج، كانت السماء شاحبة وكانت الشمس تدلف أسفل الغيوم، وكان الطقس بارداً حتى الأشجار على حافة نهر السين تغيرت، فأوراقها الصفراء كانت تسقط مع الريح.

فكرت فى حورية، و ما إن تمكنت من السير، ذهبت سيراً على
الأقدام فى اتجاه جار دى ليون⁽¹⁾، وكنت أشعر بالبرد، فأعارنى نونو قميصه
الجلدى العريض كثيراً من على المنكبين، وكنت أحب كثيراً هذا القميص،
فكنت أستم فيه رائحة نونو، وكان بالياً من على الأكواع، وكان لدى إحساس
أنه يحمينى كنوع من الآلات الواقية.

كان شارع جان بوتن على حالته المعهودة عنه دوما، حتى أنه كان
يخيل لى أننى رحلت عنه بالأمس فقط: الفنادق البائسة، أكياس القمامة،
العصابات، وفى نهاية الشارع، قبل الطريق المسدود، يقع باب المبنى فى
حديده الأسود وزجاجه القذر. طرقته الباب، ثم جاء رجل أسود لا أعرفه
ليفتح لى الباب، كان قصيراً ونحيفاً، به لحية صغيرة، ونظر إلى دون أن
يقول شيئاً، ثم أتجه نحو المطبخ حيث كان يغسل الأوانى. كانت مارى هيلين
تحتفظ برجال فى خدمتها، وكان باب الآنسة ماير موارباً والضوء مشعلاً،
فعبثت الأمر دون أن أحدث صوت وطرقت باب الغرفة.

عندما جاءت حورية نحوى، وجدت صعوبة فى التعرف عليها،
فأصبحت بدينة جداً، وكان هناك ازرقاق دائرى أسفل عينيها، ولكن طالعتها
توهج لرؤيتى، وقالت لى: "كنت أنتظرك، رأيت فى نومى أنك ستعودين
اليوم"، كان ذلك هو ما تردده دوما، فقلت لها: "أترين، ها أنا أتيت إليك".

(1) من كبرى محطات القطار فى باريس. (المترجم)

لم تسألنى عن شئ، ماذا فعلت، وأين ذهبت، فربما بالنسبة لها، هى المُرُوعة فى أعماق هذه الشقة، الوقت لم يكن يمر بها بسرعة، وقالت: "كنت أتألم كل يوم، وأقول لنفسى كل يوم: هل ستأتى اليوم، هل ستتهتف لى؟"

فى خلال بضعة دقائق، جمعت كل الأشياء، وضعت الغسيل فى الأكياس، الأدوية، علب الخرطال، وكل شئ؛ وكانت حورية متوجسة كثيراً من الخروج لأنها منذ شهور لم تُسد الإيجار؛ أما أنا، فلم أعد أخشى الآنسة ماير، ولا أى إنسان. حينما خرجت، قرعت الباب بشدة حتى أن قطعة جبص من السقف هوت فى السالام، وكنتُ سعيدة، وانتابنى إحساس أن حياة جديدة فى طريقها للبدء. وضعت يدى على بطن حورية وقلنت لها: "أيتحرك جنينك؟"، فمشت ببطئ متذمرة: "نعم إنه لايتوقف، إنه شيطان صغير".

فى الأيام الأولى بشارع جافلو، كان الأمر بالنسبة لى بمثابة عيد، فلقد كنت سعيدة للغاية للعثور على حورية التى لم أعد أتركها. أحضر نونو آلة صوتية كبيرة وكل مايلزم وتلفاز ملون له شاشة كبيرة، وعندما سألته أين وجد كل ذلك، تحاشى السؤال بضحكته، ثم ملئت الموسيقى حوائط مبيت السيارات. ثم دعا أصدقاء أفاقه، وأخذنا نرقص على صوت الشرائط، على إيقاع الموسيقى الأفريقية، الراى والرجاج والروك، ثم أخرج أصدقائه طبولهم المعروفة باسم دجون - دجون وشرعوا فى دقها، وكانت هناك أيضا آلة موسيقية غريبة، السانزا التى حملها حكيم، رفيق نونو، فى خُرج، وكانت

على هيئة قيثارة منمنمة تحدث صوتاً متدحرجاً عذباً يبدو وكأنه يأتي من كل الاتجاهات في ذات الوقت.

شربنا الكوكا مع عرق قصب السكر والفودكا والبيرة، وكانت حورية تشعل سيجارة من سيجارة وهي تجلس على الأريكة في وضع إنسان متعب، ثم حاولت أن ترقص كما تعرف وهي تقرع الأرض بأخمص قدميها، متواركة، لكن بطنها المكتنز وثديها المنتفخ كانا يمنعاها؛ وللمرة الأولى منذ وصولها إلى هذا المكان، كانت تضحك، فلقد نسيت كل شيء، شارع جان بوتن والعجوز الشمطاء. كانت الموسيقى تصعد من الأرض، وتهز كل حوائط المبنى، وتدق في أعلى واحد وثلاثين طابقاً، حتى الشوارع المجاورة، شارع شاتو دي رانتيه، توليبك، جان دارك، حتى مستشفى السالبتريير وجار دي ليون. كانت الموسيقى تضع لوناً رملياً أحمر على الجدار من أرض أفريقيا، وكان حكيم يعزف، جالساً في ثوبه، مائلاً إلى السانزا، والعرق يتصبب على وجنتيه ولحيته الصغيرة، فكان يبدو عليه أنه ساحر. أما نونو، فكان عارياً تقريباً، لامعاً من العرق، وكان يقرع بأطراف أصابعه على الطبول، وحورية كانت تقرع بأخمص أقدامها العارية على الأسمنت مع دقات أسورتها النحاسية.

كان المصعد الكهربائي معطلاً، فأمسكت بحورية على السلالم إلى أعلى المبنى حتى الباب الذي يؤدي إلى الأسقف عن طريق سلم الإطفاء الصغير، وكان نونو قد كسر القفل. كان الليل قد جاء، ولكن، في باريس

لا يخيم الليل تماماً، فلقد كان هناك ضوء أحمر يشبه الفقاعة فوق المدينة؛ ثم جاء حكيم ونونو يلحقون بنا، وجلسنا على حصى السقف بالقرب من منافذ التهوية، وأخذ نونو يدق الطبل، بينما كان حكيم يعزف على آلة السنازا. كنا نغنى ونقول: آه، اوه، اهو، اهييه، اهييه، ياوه، يا.. فقط، وبعدوبة شديدة، فلقد كنا فى مقتبل العمر، ولم يكن لدينا نقود، ولم يكن لدينا مستقبل، وكنا نشعل الغليون باستمرار؛ ومع ذلك فكل هذا، السقف، السماء الحمراء، خير المدينة، الحشيش، وكل ذلك، وهى أشياء لم تكن ملكاً لأحد، لكنها كانت فى حوزتنا.

ثم كنا نفعل هكذا كل مساء، فلقد كان ذلك بمثابة دار عرضنا الرثيئة. وفى النهار، كنا نظل مختبئين تحت الأرض كالصرابير، وفى الليل، نخرج من جحورنا، ونذهب فى كل مكان، فى ممرات المترو، فى محطة توليبياك، أو أبعد من ذلك، حتى محطة اوستيرليتزر. كان حكيم، رفيق نونو، يبيع بضائع من أفريقيا السوداء: حلى، وعقود وأدوات زينة، وكان يسخر من ذلك الأمر، فكان يقوم به ليسدد مصاريف دراسته فى الكلية فى جامعة باريس السابعة، وكان يقيم فى المدينة الجامعية بانطونى⁽²⁾. كان يحدثنى عن جده الحاج مافوبا الذى كان يعمل قناصاً فى الجيش الفرنسى، والذى شارك فى الحرب ضد الألمان. وفى ممرات المترو، كل الطنطن يدق كل

(2) إحدى الضواحي الباريسية. (المترجم)

مساءً في محطة بلاس ديتالي، وفي محطة أوسترليتز، والباستي، واوتيل دي فيل، وكان ذلك يحدث دوراً في الممرات، صاخباً حيناً كهبوب عاصفة، وحيناً آخر رقيقاً ومنظماً كقلب يدق.

كنت أعرف كل الموسيقيين، فكنت أنتقل من محطة إلى أخرى، وأجلس متكئة إلى جدار ثم أنصت إليهم. وفي محطة أوسترليتز، كانت هناك مجموعة من الولفز⁽³⁾، وفي سان بول، كان هناك عازفون من مالى ومن الرأس الأخضر⁽⁴⁾، وفي محطة توليبياك، كان هناك الأنتيبين والأفارقة؛ وكان كل هؤلاء يعرفونني، فعندما كنت آتى إليهم، كانوا يشيرون لي، و يتوقفون عن العزف حتى يصفحوني بأيديهم، وكانوا يعتقدون أنني أفريقية أو أنتيية، وأننى صديقة نونو الصغيرة، وربما هو الذى كان يفخر بأن يقول لهم ذلك.

وفي هذه الفترة أخذت أخرج مع حكيم، فكنت أذهب كى ألقاه فى محطة توليبياك أو فى أوسترليتز، وكنا نسير فى الليل على غير هدى، فى الريح الباردة، فنذهب نحو النهر، وكان حكيم يتحدث عن نهر السنغال الكبير، ولم يكن قد رآه البتة، غير أن والده كان قد حكى له عندما كان حكيم طفلاً عن ماء النهر البطئ جداً، وقطارات الرمال التى تنزل نحو البحر. أما جده الحاج، المكفوف، فكان يحدثه أحياناً عن النهر فى كلمات

(3) قبائل يتميز أفرادها بشدة سواد البشرة ويعيشون أساساً فى الشمال الغربى من السنغال،

ويتحدثون لغة تسمى لغة الولوف. (المترجم)

(4) دولة أفريقية صغيرة تقع غرب السنغال، ولغتها هى البرتغالية. (المترجم)

دقيقة جداً وواقعية جداً وكان الماء الوحل الأصفر يمر من أمام عينيه وبه زوارق محملة بالنساء والأطفال تحلق أمام مقدمتها طيور القُبْر⁽⁵⁾؛ وكنت أتحدث بدورى عن مصب نهر بورجرج، كما لو كان ذلك مشابهاً للنهر الذى يحكى لى عنه، لأنه كان النهر الوحيد الذى أعرفه، وهو الذى رأيته لأول مرة عندما غادرت منزل لالا أسماء، وكنت أعبره كل يوم كى أعود لدوار تبريكة.

كنا نجلس فى المقاهى ونحدث؛ كان حكيم طويلا ونحيفاً، أنيقاً دوماً فى حلته السوداء؛ كان يقص على أشياء غريبة. وذات يوم، حمل إلى كتاباً يبدو بالياً وطالعتُه أعداءُ من الأيادى المتسخة بالدهون، وكان عنوانه المعذبون فى الأرض، وكان مؤلفه يدعى فرانترز فانون⁽⁶⁾؛ وقدمه حكيم إلى وقال فى غموض: "طالعيه، ستدركين كثيراً من الأشياء"، ولم يرد أن يقول لى ما هى هذه الأشياء، ووضع الكتاب على منضدة المقهى أمامى، ثم قال: "عندما تتمين مطالعته، يمكنك إعطائه إلى شخص آخر"، فوضعت الكتاب فى حقيبتى دون أن أسعى لمعرفة المزيد منه.

(5) جمع قبيرة، والتي تعرف أيضاً بالقنبرة. (المترجم)

(6) فرانترز فانون Frantz Fanon كاتب مارتينيكي الأصل ولد عام 1925 وتوفى عام 1961، عرفت كتاباته بنزعتها الثورية المناهضة لفكرة الاستعمار، ومن أهم مؤلفاته: "المعذبون فى الأرض" 1961 و "البشرة السوداء" 1952 و "أقنعة بيضاء" 1952 و كتابه "من أجل الثورة الإفريقية" الذى نُشر بعد مماته 1964. (المترجم)

لم يكن حكيم يحب نونو، وكان يقول أنه كالعصفور، يحجل ويلهو ويتعطر، وهذا كل ما يمكنه عمله، ولم يكن يحترم حتى مهنة الملاكمة، وكان حكيم يقول أن نونو مختل عقلياً، حجر فى يد الفرنجة أو لعبة، وعندما يُكسر سوف يلقي به الفرنجة فى سلة القمامة. كان حكيم يلقيه بالطُفيلي لأنه سمح لنفسه أن يقيم عن طريق صديق له، بغضت حكيم، ذلك لأن نونو لا يستحق أن يقال عنه السوء، وكان هناك شئ لم يرد حكيم أن يقوله لى، شئ ما فى حياة نونو؛ ولرات عديدة حاول أن يحذرني منه، فبداية قال لى: " أتعلمين ماذا يعنى أن يكون المرء معتوها؟"، فقلت له: "عندما يكون مجنوناً، أليس كذلك؟"، فأطلق حكيم بسمته الساخرة الشهيرة قائلاً: "إنه جواب ردى ولكن ربما جوهره ينطبق عليه"، ولم يُرد أن يستمر فى الحديث عن هذا الأمر.

ذات يوم من أيام الأحد، بينما كانت السماء تمطر، اصطحبني حكيم إلى بورت دوريه⁽⁷⁾ حتى نشاهد متحف الفنون الأفريقية، وأظن أننى لم أذهب من ذى قبل إلى متحف.

وفى المتحف، كان حكيم منفعلاً، إلى درجة الهوس، ولم أكن قد شاهدته كذلك مطلقاً. مسك يدي وقال: "أنظري إلى الأقنعة المزيفة"، وكان يتحدث بصوت خفيض قليلاً، ومختنق، ثم استطرد: "أنظري يا ليلي، إنهم

(7) على أطراف مدينة باريس. (المترجم)

نسخوا وسرقوا كل شئ: سرقوا التماثيل والأقنعة، وسرقوا الأرواح وسجنوها هنا في هذه الحوائط، كما لو أن كل ذلك لم يكن سوى أدوات زينة، ومجموعة أسلحة، كما لو كانت أشياء تُباع في مترو توليبياك، ورسوم ساخرة، ومواد بديلة"، فلم أدرك جيداً ما كان يقول، وأحسست بيده التي كانت تطبق على يدي كما لو كان يخشى أن أفر منه، وقال: "انظري إلى الأقنعة، يا ليلي، إنها تشبهنا، إنها سجيئة وليس بوسعها أن تعبر عن نفسها، إنها منزوعة الإرادة، مع أنها في ذات الوقت هي أصل كل ما يوجد في العالم، إنها محفورة في التاريخ عبر الزمن، كان لها وجود بينما كان سكان هذه البلاد يعيشون في الجحور تحت الأرض، وجوههم مسودة من السناج⁽⁸⁾، وأسنانهم مهشمة نظراً لنقص الغذاء"، ثم اقترب من الواجهات الزجاجية وأسند قبضة يده عليها، ومضى يقول: "آه يا ليلي، ينبغي إطلاق سراحهم، يجب حملهم بعيداً عن هنا، ينبغي حملهم إلى المكان الذي سلبوا منه، في ارو شيكو، في ابومييه، في بورجوز، في كونج، في الغابات، في الصحارى، في الأنهار". فجأة، اقترب الحارس منا، مرتاباً من رنين صوت حكيم، ولقبضة يده التي كانت تدق على الواجهة الزجاجية، فاصطحبني حكيم بعيداً عنه، ثم توقف أمام دولا ب خشبي معروض فيه أطراف فخار مكسور، أعواد حفر، شئ من مجرفة مصنوعة من الخشب، وقال: "انظري يا ليلي: أقلُ شئ من بلادنا يساوي كنز أو جوهرة رائعة"، ورأيت قناعاً له فم ثائر، قناعاً سونجيا يشبه

(8) السناج هو سود الدخان. (المترجم)

الموت مثقوب ببثر، ورأيت الدمى الأشنتى منتصبية كجيش من الأشباح، ورأيت وجه الإله فانج العريض بعينييه المغلقتين وكأنه يحلم. كنتُ أشاهدُ الشقف وأطرافَ الخشب المسودة والمستنفذة من جراء الأيدي التى سلخها الزمان. لم أعرف ماذا كانت تقول اللافتة الموضوعة بجوار هذه الأشياء، شئ يتعلق بالأشنتى على ما أعتقد. انطلق حكيم يقول: "ها هى عظامنا وأسناننا، أترين، ها هى قطع من أجسادنا، إنها تحمل نفس لون جلدنا، إنها تلمع ليلاً كأكواب براقّة"، و ربما كان حكيم أيضاً مجنون. ولكن ما كان يتفوه به كان يجعلنى أرتعش، فلقد كان قوله عميقاً كالحقيقة. دلفنا أيضاً فى المتحف، أمام التروس والطبول والأصنام، وكان هناك أيضاً زورق مصنوع من الخشب أكلته ديدان الخشب، وكأنه وضع هنا بعد حادث غرق، عندما تم نزع مياه النهر المجهول.

لكن صوت خطوات الحارس الخفيض كان يضايق حكيم، فخرجنا على عجل من المتحف؛ كان حكيم يختنق من الحنق، وقال لى: "هل رأيتى؟ إن الحارس يراقبنى كى لا أسرق شئ، ولكى لا أخطف مهرولاً عظام أجدادى". كان يبدو عليه التعب، ويبدو شيخاً كبيراً؛ وقال ثانية: "هل رأيتى؟ هذا الحديد المطروق وأعمدة الدرابزين فى شكل...، لا أعرف ماذا، الرماح أو السهام أو ملابس باننيا".

بعد ذلك، استقلينا القطار حتى إيفرى - كوركورن لكى نعود

جَدَّة.

كان الحاج مافوبا يعيش بمفرده فى مبنى كبير أبيض فى اتجاه منطقة فيلابيه⁽⁹⁾ بالقرب من الطريق السريع، وكان المصعد الكهربائى معطلاً، وكان باب المدخل مهشماً، وبلاط السلم كان مذوداً بصفائح معدنية، وكان هناك أطفال فى كل مكان من المبنى؛ وبينما كنا نصعد السلم، رأينا طفلاً شديداً البدانة أبيض البشرة يهبط أربع درجات من السلم بعد أربع، وسمعت صوتاً أجشاً للغاية قادم من امرأة كانت تنادى: "سلفادور ادوندى فاس؟"، كما كان هناك شباب عرب يشعلون الغليون جالسين على درجات السلم، وإلى أعلى قليلاً، كان هناك فتاتان تهبطان السلم، وطفل أشقر يضع نظارة وكان يصيح: "تبا لكم! انتظرونى، أنا الذى أخرجتكم"، بينما كانت الفتيات يرددن عليه قائلين: "بسببك أنت، أيها الغبى الصغير، لم نخرج إلا الساعة السادسة".

كان العجوز يجلس فى غرفته وحيداً، يجلس على مقعد من الحديد أمام النافذة وكأنه يمكنه أن يرى الخارج. قال حكيم: "صباح الخير يا جدى"، فوضع الحاج يديه على وجهه حفيده، وأبتسم ثم مد رأسه وقال: "هل أحضرت شخصاً ما معك؟"

ضحك حكيم. "إن أدنك دقيقة يا جدى، لا يمكن للمرء أن يخدعك،

يا جدى"، فقال الحاج: "من هذا؟"

(9) ضاحية من ضواحي باريس الجنوبية. (المترجم)

اقتادنى حكيم إليه، ووضع الحاج يديه على طالعى مزحلجاً إياها
برفق على طول وجنتى ولمَسْتُ أصابعهُ المنفرجة جفونى وأنفى وشفاهى، ثم
تمتم: "إنها تشبه ماريما، فمن هى؟"

تمتتم باسمى، وكان حلقى مشدوداً، فلقد كانت هذه هى المرة
الأولى التى التقى فيها برجل مثير مثله، كان جميلاً للغاية بوجهه ذى لون
الحجر الأسود والشبيه بوجه الرقيق، وبشعره الأبيض المجعد والذى يخط
تاجاً فوق رأسه. لم يكن هناك مقعداً آخر فى الغرفة، ولذا جلست على الأرض
أمام الجدار بينما كان حكيم يغلى الماء لإعداد الشاي.

كان الحاج يتحدث برقة وهذوء، فى صوت أجش قليلاً، متكناً على
الكلمات التى كان ينتقيها بعناية، ولم يكن يتوجه بكلماته إلى بصفة خاصة
ولا إلى حفيده، بل كان يتأمل ملياً كما لو كان ينتزع الذكريات من ذهنه، أو
كما لو أنه كان يخترع حكاية؛ ثم تحدث ببساطة وهو يرتشف الشاي عما
كنت أنتظر منه: نهر السنغال الكبير، الذى يجرى فيه الماء الأحمر بصحبة
الأشجار المبتورة والتماسيح. كنت أنصت إلى صوته الحنجرى تارة والغنائى
تارة أخرى، وكان يتحدث عن قريته مسقط رأسه، التى تسمى يامبا، وهى
قرية حواطها من الطين حيث تُخَطُّ النساء عليه وأناملهن مبلة شكل نبات
القطيفة⁽¹⁰⁾. حدثنى عن أبيه وعن أمه وعن عشرة أطفال أنجبهم، وعن ضوضاء
الأصوات فى الصباح، وعنه حينما كان أكثر شباباً، عندما كان يسير لمدة

(10) نباتات ذات فلتين. (المترجم)

ساعتين حتى يصل إلى مدرسة النهر ويرتل القرآن حتى المساء. وحينما كان يتحدث إلى، كان ينغم كلماته ويهز أعلى جسده كما كان يفعل وهو فى الثامنة من عمره، فغدا صوته حاداً وواضحاً كصوت طفل.

قال حكيم: "توقف يا جدى، سترهق ليلى..."، وهو واقف بالقرب من الباب كما لو كان سيرحل، فرد عليه الحاج: "كيف أرهقها، إنك أنت الذى لا يريد أن يستمع"، فكان يتوجه إلى، ووجهه ملتفت إلى جانب يضيئه الضوء المار عبر النافذة، قائلا: "إنه لا يريد أن يقرأ الكتاب المقدس، إنه لا يريد سماع الحديث عن الرسول، ولا يحب إلا ... ما أسمه؟ كاتبه فانو..."، فقلت: فانو.

– نعم فانو، أعترف أنه يقول أشياء طيبة، لكنه ينسى المهم منها والأكثر أهمية.

ثم صمت كثيرا قبل أن يقول: "وما هو الشئ المهم يا حاج؟"

– أنه حتى الإنسان القافه جداً كنز فى عين الله.

وعندما غضب حكيم، صوب العجوز من عبارته بدهاء قائلا: "ولكن

دعنا من كل ذلك، إنه لا يعتقد فى الله، وأنت يا ليلى هل تعتقدى فى الله؟"

– لا أعرف.

– ولكن... كاتبه المفضل فانو يقول أشياء مضبوطة جداً، حقاً يأكل

الأثرياء جلد الفقراء، فعندما جاء الفرنسيون إلى بلادنا، أخذوا شبابا

ليسخروهم فى العمل فى الحقول، وأخذوا فتيات لخدمة مآدبهم ولطهى أطعمتهم وليضاجعونهن فى فراشهم لأنهم كانوا قد تركوا نسائهم فى فرنسا؛ ولكى يخيفوا الأطفال السود، جعلوهم يعتقدون أنه بوسعهم أن يأكلوهم. فقال حكيم: "وأرسلوهم إلى المجزرة بفرنسا على ساحات الحرب فى تريبولي".

فغضب الحاج قائلاً: "ولكن ذلك لم يكن نفس الشئ، فلقد كنا نحارب ضد أعداء البشرية".

- وكنتم تعرفون لماذا ستمتون ؟

- كنا نعرف...

كان هناك صمت بينما كان الحاج يشعل الغليون وهو شارد أمام النافذة المنفرجة، وكان المطر يتساقط فى سكينه، وكان الحاج يرتدى قميصاً أفريقياً فضفاضاً أزرقاً شاحباً أطرافه من اللون الأبيض، ولم يكن به رقبة، وبنطالاً أسود اللون، وكان ينتعل حذاءً ضخماً من الجلد مبرنق باللون الأسود وجوارب من الصوف؛ وكان يجلس صامتاً مستقيماً على مقعده والسيجارة بين أنامله الطويلة.

عندما رحلنا، تحسس الحاج طالعى مرة ثانية، وتحسس عيني وشفتي، ثم قال ببطنى: "عندما تكونين شابة، ياليلي، ستكتشفين العالم، ستريين، هناك جوانب كثيرة طيبة فى العالم، وسوف تمضين بعيداً كى تجديها"، وقال لى ذلك كما لو كان يباركني، فأحسست برعشة وقار وحب.

بينما كنا نخرج من المبنى والليل يسقط، رأيت للمرة الأولى معسكر البوهيمين على السهل الطيني بين ممرات الطريق السريع، كانوا يشبهون الغرقى فى جزيرة.

هكذا اعتدت أن أقوم بزيارة الحاج، فكنيت أذهب إليه مرة من كل أسبوع، أكثر من ذلك قليلاً أو أقل منه قليلاً؛ ولحسن الحظ أنه كان لا يرقب قدومى أو على الأقل لم يكن يُظهر لى أنه كان فى انتظارى. عندما كنا ندخل إلى غرفته الصغيرة، لم يكن يتوجه بحديثه إلى حكيم، وكان يدرك أننى قد وصلت، فيدير رأسه ويقول: "ليلى؟"، ولذلك كان حكيم يقول أن المكفوفين هكذا، لديهم حاسة أخرى، يشتمون الروائح أكثر من الآخرين كالكلاب.

فى القطار المتجه إلى إيفرى، كانت هناك عصابة من الفتيان والفتيات، تتراوح أعمارهم بين اثنى عشر أو ثلاث عشر عاماً بالكاد، وكان بينهم أيضاً أطفال، رثو الثياب، سفهاء، مزعجين، ومع ذلك سعدت كثيراً لرؤيتهم، فكانوا يسألوننى، وكنت أراهم يتناقلون سيجارة فيما بينهم، و يتقززون، و يلفظون بصوت عالٍ كلاماً بذيئاً ناظرين بطرف أعينهم إلى وقع ذلك على سكان الضواحي الذين كانوا يتذمرون؛ وقبل محطة إيفرى بقليل، جاء اثنان من رجال الضبط لإيقافهم، فلاذت عصابة الأطفال بنفسها بالقفز من النافذة على منحدر قبل المحطة بقليل، وتعلقوا فى خارج القطار ممسكين بالنافذة من الخارج، ثم فروا وهم يضحكون.

وفى هذه الأثناء التقيت بجيانيكو.

كنت أترك مبكراً "سجن" جافلو وأمضى أعمل لمدة ساعة أو ساعتين في الحى، فلقد كنت أقوم بأعمال النظافة لدى بياتريس التى كانت تعمل محررة فى جريدة فى الدائرة الخامسة⁽¹¹⁾ وكنت أعمل أيضاً لدى زوجين محالين للمعاش بشارع جان دارك، وكانت حورية تبقى فى المنزل كى تقوم بطهى الطعام، كانت تخرج قليلاً فى وقت الظهيرة تقريباً، لتتنزه بمفردها يصاحبها بطنها المنتفخ فى حديقة المبانى التى تقام فوق المنزل الذى نقيم فيه، وأثناء ذلك تعرفت على السيد في، وهو فيتنامى كان يدير مطعمًا فى حينها.

ولم أكن أرى نونو كثيراً، فعندما كنت أترك المنزل، كان لا يزال نائماً فى صالة مبيت السيارات على أوراق الكرتون؛ ومنذ المرة التى احتضننى فيها بعد قدومى إلى مبيت السيارات، لم أدعوه كى ينام أمامى، فلم أكن أرغب فى ذلك، كما أننى خشيت أن يغدو هذا الأمر قصة بيننا، إذا ما تبينتم ماذا أريد أن أقول؛ وأظن أن هذا الأمر جعله حزيناً للغاية، لكنه ظل عطوفاً علىّ وكان شيئاً لم يكن.

بعد الظهر كنت أمضى للقاء حكيم فى مقهى بجوار جامعة السربون؛ كان حكيم يلقبها بمقهى "اليأس"، وكان يقول إنها تشبه مدخل الجحيم؛ كان يحمل الكتب والكراسات وكنت أشرع فى القراءة، فلقد رأى أن

(11) الدائرة الخامسة من باريس هى الدائرة التى تنتشر فيها أكبر الجامعات والمدارس

الفرنسية وأهمها جامعة السربون وكوليج دى فرانس. (الترجم)

أجد في خطواتي وأتقدم للثانوية كطالبة حرة أو إلى دراسة القانون إذا ما استطعت؛ وفي مجال اللغة الفرنسية والتاريخ والفلسفة لم يكن لدى أى صعوبات، فلقد كانت دروس لالا أسماء لأثقارن في هذا الصدد، إذ علمتني في العمر الذى كان فيه أقرانى يلعبون بالدمى أو يظلون لساعات طويلة أمام الرسوم المتحركة. كان حكيم يجعلنى أقرأ مقتطفات من نيتشه، من هوم، من لوك، من بوتى⁽¹²⁾، كما كان يحمل إلى أوراق مصورة، وكان يعنى بهذا الموضوع عناية فائقة؛ وأظن أن الأمر كان بالنسبة له أن أجتاز اختباره الخاصة. اطلع حكيم جده على أمرى، فعندما ذهبت إلى إيفرى - كوركورن، سألتني الحاج: "أين أنت في الفلسفة الآن؟"، وتجاوزنا حول مشكلات الأخلاق والعنف والتعليم والأفكار الاجتماعية والحرية،... الخ؛ وكان يقول لي دوما أفكاراً رائعة كما لو كانت تنبع من أعماق الزمان وأنه عثر عليها بكرة في ذاكرته.

قال لي: "الله يخلق الحب والنوى، يخرج الحى من الميت والميت من الحى"؛ وكان يقول: "أتدريين ما الفاجعة؟ إنه اليوم الذى يكون فيه الناس كالفراش المنثور والجبال كالعن المنفوش"؛ وكان يقول: "أعوذ برب الفلق من شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد"؛

(12) إتيان دى لا بوتى Etienne de la Boétie أديب فرنسى ولد عام 1530، وكان صديقاً للأديب الشهير مونتني، ومن أشهر مؤلفاته "خطاب حول العبودية الطوعية".

وكان يدير وجهه للنافذة ثم يتحدث فكانت الكلمات تأتي من أعماقه عذبةً ورنانةً.

كان يتحدث عن النبي وعن خادمه بلال، الذي كان أول من آذن للصلاة، والذي عاد - بعد الهجرة، عندما لفظ النبي أنفاسه الأخيرة بين ذراعي عائشة - إلى أفريقيا وجاب كل الغابات حتى النهر الكبير الذي قاده إلى شاطئ المحيط. كان الحاج يتحدث عن ذلك الأمر كما لو كان يعرف بلال، كما لو كان هذا الأمر قد دب في عائلته هو؛ ورأيت حكيم جالساً على الأرض يرتشف كلماته، ولم أنس قط قصة بلال، فبالنسبة لي كانت هذه القصة قصتي أنا الخاصة.

دعاني حكيم كي أذهب إليه في مدينة أنطونى الجامعية⁽¹³⁾؛ وهناك كان عالماً آخر، فلم يكن كشارع جافلو، ولا كمحطات المترو، وكنا بعيداً عن كوركورن. كان الفضاء رحباً محاطاً بالحدائق الجميلة الخضراء كالريف الذى تحلق فوقه طيور العقعق والشحور، وكان هناك طلاب من كل بلاد العالم، أمريكيون، إيطاليون، يونانيون، يابانيون، بلجيكيون، وحتى أتراك ومكسيكيون. ودعاني حكيم إلى مطعم المدينة الجامعية، فقام بتسديد ثمن وجبتى بالبطاقات التى كانت معه؛ تناولت رافيولى⁽¹⁴⁾ وشريطية⁽¹⁵⁾ وأطباق

(13) مدينة أنطونى الجامعية هى من أشهر وأقدم المدن الجامعية بفرنسا. (المترجم)

(14) نوع من العجين المطهى المحشو باللحوم. (المترجم)

(15) نوع من العجين المطهى على شكل شريط. (المترجم)

سمكة من ذهب (166)

لم أكن أعرفها، ومن الحلوى، أكلت مثلثات من القشدة، النافعة⁽¹⁶⁾، بشراهة، ضحك، فأما هو فقد كان كعادته يأكل قليلاً، فأكل طرف حلوى، ثم ما لبس أن وجد كل شيء مقززاً.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، أراد حكيم أن أصعد معه إلى غرفته، وقال إنه يريد أن يريني كتبه. لم أكن أرغب في خصومته، فلقد كنت أعلم أنه يريد أن يفعل بي، هذا كل ما في الأمر، ولم تكن لدى رغبة في أن يصير الأمر معه كذلك، إضافة إلى أنني كنت أريد أن نظل أصدقاء، وأن نستمر في الذهاب إلى الحاج لننصت إليه وهو يتحدث عن النبي.

وكننت أدرك أن ذلك الأمر يضايقه، وكان غيوراً لاعتقاده أن نونو صديقي، ولكنه لم يكن يجسر على أن يقول شيئاً من هذا القبيل. مضينا إلى الصالة، ثم جلسنا على الأريكة وأخرجت من حقيبتي كتاب "وراء الخير والشر"، ثم قلت له: "فسر لي لماذا يتحدث نيتشه عن العقد ؟"، فنظر إلى من خلف زجاج نظارته، وكانت تبدو عليه علامات رجل قاسٍ في لحيته الصغيرة ونظاراته الفولاذية، وأعتقد أنه أراد أن يشبه في هيئته هذه ملكولم اكس، ولهذا السبب لم يكن يخرج البتة دون كي قمصانه الأبيض وانتقاء رباط عنقه. لم يكن يرغب في أن يبدو مشابهاً لأفارقة نانثير أو أنتييه سول في ملابس البيجتي والديريدوكس، وكان يبغض كل ذلك وفي نفس الوقت كان

(16) ضرب من الحلوى كثيرة السكر. (المترجم)

يشفق عليهم، فلقد قال لى ذات يوم: "أتعرفين ما أكثر الأشياء التى تؤلمنى؟ إنه النظر إليهم والظن بأن حتى نصفهم لن يصل إلى سن الرشد، وكأنهم فى طريقهم للموت".

كان يتحدث إلى أيضاً عن أفريقيا، عن لوائح الحساب، عن مرتزقة بيافرا⁽¹⁷⁾، عن الأطفال الذين يموتون من الجوع، عن السيدا⁽¹⁸⁾، عن الكولرا. كان يحب نيتشه كثيراً، ويؤثر فأنو أيضاً، وكان قد قرأ على مقتطفات من "سادة وعبيد" لربورتو فراير؛ ومع ذلك لم يكن يحب الروايات، ولا الشعر، إلا محمود درويش وتيماجن هوات، فكان يقول: "الروايات مثل الغائط، ليس فيها أى شئ، فليست هى من الحقيقة، ولا من الكذب، إنما هى زوبعة فحسب"؛ وكان يقبل على مضض الشاعر رامبو وجون دون، ويأخذ على رامبو حديثه بالسوء عن السود ونشاطه فى التجارة الغير مشروعة. وذات يوم قلت له: "إنك تعتقد فى الأساس مثل جدك، بأن كل شئ جاء فى القرآن"، وأظن أنه غضب، ولكنه بعد تأمل أجاب: "هذا حق، لا يمكن أن يكون هناك شعر أعظم من القرآن، الإعجاز أن هذا الكلام ذكر منذ أكثر من ألف عام وأنا نعلم أنه ليس بوسعنا أن نأتى بأفضل منه"، فقلت له حينئذ: "إذا ربما يمكن الإتيان بأسوأ منه؟"، فنظر إلى فى دهشة، وأظن أنه لم يدرك ما أردت أن أقوله له.

(17) بيافرا Biafra هى جزء من جنوب شرق نيجيريا. (المترجم)

(18) تقابل الأيدز فى الإنجليزية وهو مرض فقدان المناعة الجسمية. (المترجم)

كانت لى حياتين: أشطر النهار ببقائى مع حورية والنظافة لى محررة الجريدة، وأقوم بإجراء المشتريات فى الحى الصينى حيث كان كل الناس فى هذا الحى يرون أننى طيبة، وكنت أمضى أشاهد نونو وهو يتدرب فى صالة الملاكمة فى باريس⁽¹⁹⁾؛ ثم كانت هناك مواعيد الدراسة فى السربون مع حكيم، أو بالقرب من شارع أساس⁽²⁰⁾، وكان حكيم فخوراً بتقديمى إلى زملائه الطلاب، وكان يقول لهم: " هذه لىلى، طالبة حرة تتقدم للثانوية هذا العام بالقسم الأدبى".

فى الليل، كان كل شئ يتبدل فى حياتى: كنت أغدو كالصرصار، وكنت أذهب حتى ألحق بالصراسير الأخرى فى محطة توليبياك أو محطة اوسترليتز أو ريمير سباستوبول؛ وعندما كنت أصل إليهم عبر أنبوبة ممر المترو وأسمع دقات الطبول، كنت أرتعش، فلقد كان شيئاً رائعاً، ولم يكن بوسعى أن أقاومه، كان يحدث لى ذلك وكأنى أعبر البحر والصحراء مشدودة بحبل هذه الموسيقى.

كان الأفارقة يرتادون على الأرجح محطة الباستى أو سان بول، أما الأنثيون فقد كانوا يذهبون إلى محطة ريمور سباستوبول، حيث تكون بصحبته سيمون أحياناً؛ والتي عرفت عنها عن طريق نونو، فى المرة الأولى التى التقيت بها. فى الغالب، كانت ممرات محطة المترو مكتظة بالناس، ولكننى

(19) حى يقع فى شمال باريس. (المترجم)

(20) شارع بجوار جامعة السربون بباريس. (المترجم)

كنت أفلح فى التغلغل إلى الصف الأول، كانت سيمون فارعة الطول، شديدة السواد، وجهها عريض إلى حد ما، وعيناها محدبتان، كانت تصفف شعرها على طريقة التكوير بربطه بخرق حمراء، وكانت تردى ثوباً طويلاً أحمر داكناً. ظننت أنها تشبه إحدى المصريات القدماء، فقال لى نونو: "هذه سيمون، من هاييتى"، كان صوتها خشناً متذبذباً ساخناً يدخل إلى أعماقى و إلى أحشائى. كانت تغنى بلغة المستعمرات الفرنسية، فى كلمات أفريقية، كانت تغنى عن سفر العودة عبر البحر وماذا يفعل إناس الجزيرة عندما يموتون. كانت تغنى وهى واقفة، دون أن تتحرك تقريباً، ثم تأخذ فجأة فى الدوران حول نفسها هازة أردافها، فينفرج ثوبها الفضفاض حول جسدها، وكانت جميلة إلى حد أنها كانت تدهشنى.

تحدثت معى ذات مساء؛ وكان هناك هجوم مباغت للشرطة، فتبعثر كل الناس، ووجدنا أنفسنا وحيدتين فى المحطة فى طرف ممر طويل، وكان ينبغى علينا أن ننصرف، فأعطينا بطاقة مترو، واستقلنا المترو إلى محطة بلاس دى ايتالى، وكانت تجلس على مقعد من المقاعد التى بجوار الباب وأنا أجلس بجوارها، وفى العربة الرثة، كانت تبدو كأميرة بأدائها الكثيفة، وشفتها السفلى التى تقيم هدب، ووجنتيها العريضتين الناعميتين؛ و سألتنى عما كنت ومن أين أتيت، لا أعرف لماذا قلت لها ما لم أسرى به إلى أحد، ولا حتى إلى نونو، ولا لمارى هيلين، ولا حكيم، قائلة أننى لم أعرف ماذا كنت أو من أين أتيت، وأنه تم بيعى ذات ليل من الليالى

وأنا أحمل قرطى الذى يمثل الهلال الأول للقمر، فنظرت إلى لحظة طويلة، وابتسمت إذ كانت متأثرة، أعتقد ذلك، وطبقت على يدي، كانت يداها عريضتين وداثنتين ومفعمتين بالقوة، وقالت: "أنت مثلى، ياليلى، نحن لانعلم من نحن، و لم يعد جسدنا معنا"، وكان أمراً غريباً أن أسمعها تتحدث هكذا مع اهتزاز عربة المترو وبريق ضوء المحطات الذى كان يمر على وجهها ويضى قزحية عينيها فتصبح فى لون بنى شفاف كحجر كريم.

اصطحبتنى إلى منزلها، وكانت تقيم فى منزل صغير به حديقة صغيرة، فى شارع صغير له أسم عجيب، لابيت أو كاي، وكانت تعيش فيه مع صديقتها، طبيب هاييتى، فارغ جداً ونحيف وأنيق، وأناس آخرين، من هاييتى أيضاً من الدوميكان، وكانوا يتحدثون معا هذه اللغة العذبة السريعة التى لم أفهمها، ولو لم تكن سيمون معى، أظن أننى كنت سأرحل على الفور لأن هؤلاء الناس كانوا يربعوننى ولاسيما ماريتال جواييه، صديق سيمون الذى كان ينظر إلى بعين ثابتة كما لو كان يريد أن يطالع روحى، وكان هناك بينهم أيضاً بعض البيض، رجل متقدم فى العمر يزعم أنه ناقد فنى وكان يشبه السيد دلاهاى إلى حد ما، وكانت هناك نساء ترتدين ملابسهن على الطريقة الأفريقية، وتحملن عقود ثقيلة وأدوات زينة مثل تلك التى كان يبيعها حكيم. كان دخان السجائر والحشيش يشكل نفاثات كثيفة تدور حول شعاع البقع المضاء تابعة مدونات الموسيقى الهادئة التى تبدو وكأنها تنبعث من كل جوانب الأرض حتى من النوافذ.

لم يكن هناك مَنْ يهتم بأمرى، كنت واقفة أمام مدخل الصالة،
وأدخن الغليون محاولة أن أرى سيمون، من تكويرة شعرها القرمزية وقرطها
الذهبي.

قدم الناقد الفنّي تجاهى، وقال لى شيئاً ما فى صوت منخفض، وبما
أننى لم أفهم، مال إلى أذنى كى يكرر: "إنها رائعة"، أعتقد أن هذا ما قاله،
ثم استطرد: "إنها كل روح السنكسار"⁽²¹⁾، فلم أقل نعم أو لا، وربما ظن
أننى لم أدرك ما قاله، ونظرت فى وجهه بامتعان ورددت بقوة طالما أنه يسمع
هذه الأبيات لاميه سيذار⁽²²⁾: إلى رقصاتى

رقصاتى رقصات زنجية رديئة

إلى رقصاتى

رقص آخذة الغل

رقصة الإفلات من السجن

رقصة مفادها أنه من الحسن والطيبة والشرعية أن أكون زنجية.

نظر إلى الناقد الفنّي دون أن يتحرك ثم أنطلق فى التصفيق، وصاح:

"أنصتوا، أنصتوا، هذه الفتاة الشابة لديها شئ تقوله لكم"، ثم أخذت سيمون

(21) السنكسار هو كتاب يضم أسماء الشهداء والقديسين. (المترجم)

(22) أديب فرنسى ولد فى جزر المارتينيك عام 1913، وعُرف بنزعته المناهضة للفكر

التقليدى الاستعمارى، كما حاول فى مؤلفه أن يبرز دوره المساند للزنج. (المترجم)

تغنى لا من أجل أحد سوى، وكنت أعرف أنها تغنى لى لأنها كانت تقف فى نهاية البهو ولأنها كان تمد يدها نحوى، وصوتها كان يدندن بكلمات فرنسية عذبة جداً تتوافق مع موسيقى الدف.

ثم أخذت أشعل سجائر مختلطة بالحشيش، وكنت قد شاهدت فى الماضى أماكن يتم فيها فعل ذلك، فى الفندق مثلاً، كانت الأميرات تتجمعن من آن إلى آخر فى إحدى الغرف، ثم تشعلن الغليون معطية إحداهن السيجارة إلى أخرى، وكانت تخرج آنذاك رائحة ورقة فظة قليلاً، مسكرة قليلاً، فكان ذلك يثملنى ويجعلنى أنام .

وهنا لم يكن الأمر كذلك، كان هناك رجل هايتى يعطينا السيجارة، وكذلك كانت هناك الموسيقى وصوت سيمون يدور فى المكان بعذوبة، فاشتيمت الدخان بقوة كما لو أننى أردت أن يعبرنى من جهة إلى أخرى، وشربت أيضاً الكحول و الويسكى و البيرة وعرق قصب السكر؛ وأتذكر أنه لم يكن بمقدرتى أن أتوقف عن ذلك. وبالطبع، غدوت بعد ذلك ثملة تماماً، غير مدركة لما حولى، ثملة بحق، كما نرى أحياناً فى دار العرض المرئية. كنت واقفة أمام سيمون وغنيت أنا أيضاً، كنت أكرر كلماتها، وأنا أرقص فى نفس الوقت؛ كنت ثملة ولكننى على العكس من ذلك، لم أفقد صوابى، فكل شئ أصبح صافياً أمامى، كنت أكرر كلمات أغنية بالتدرج على نغمة الدف الصغير تقول: أنصت إلى المدينة التى تنبض

فى قلبى، فى دمى

نحن الآخرين

البحر مفقود بعيد

...

كان الناس يتمايلون كما يحدث وقت الزلزال، رأيت الحوائط تنتموج
وظلُ الناس يتنسل واللون القرمزي لتكويرة رأس سيمون يتضخم ويملاً كل
البهو، فأخذنى الطبيب جوييه، ثم طرحنى على الأريكة، ومسحت سيمون
وجهى بمنشفة مبللة بالماء البارد، وكانت حركاتها رقيقة جداً وأمومية
للغاية، فكانت تتحدث ببطئ، وكان لدى إحساس أنها سوف تمضى لتغنى لا
من أجل شئ إلا لى بصوتها الخشن الأجش قليلاً، ولكن لم يكن الأمر بالنسبة
لى دق الدف العذب، إنما كان صوت فؤادى فى أذنى.

رحل الناس البعض تلو البعض الآخر، ربما خشوا أن أسبب لهم
مشكلة ما، فهم إناس مشهورون، من بينهم نقاد فن و رجال سينما و
سياسيون، ولذا فهم ينصرفون دوما قبل الآخرين.

فضلا على ذلك، كان صديق سيمون يتشاجر معها، وكان ذلك أمراً
غريباً بالنسبة لى، وكنت أنصت إليهما من بعيد، كما لو كنت طفوت فوق
جسدى، وكما لو كانوا يتحدثون أمام شخص آخر، ثم تركونى على الأريكة
ومضيا إلى غرفتهما، فسمعت صوت الطبيب الخشن وصيحات سيمون، وظننت
أنه يضربها، أو يعذبها، ثم أخذت تتأوه بشكل منتظم، فأدركت أنها
يتضاجعان.

كنت أرتعش من الحمى على الأريكة؛ وفي لحظة ما، مضيت أتقيأ في المطبخ، كنت أترنح، فقلبت مقاعدًا، وكان هناك اثنان من الهايتيين لا يزالان يشربون، وعندما شاهداني في حالتي هذه، مضيا يبحثان عن الطبيب، وسمعتهم يتحدثون عنى بلغة المستعمرات، وقال مارتيا ل جوييه: "ربما هي غير راشدة، من الأفضل حملها إلى منزلها"، وأظن أنه قد هتف إلى كل مكان حتى عثر على حكيم، فحصل على عنوان مبيت السيارات بشارع جافلو، فبدأت أدرك أن الدنيا ضيقة، وعندما نحسن البحث، نبلغ كل ما نريد، أى أن هؤلاء الناس الذين يتمتعون بقيمة ما، مرتبطون بعضهم ببعض الآخر، ويصطحبون معهم الآخرين، الذين لا يساوون شئ مثل نونو ومثلى. فكرت فى كل ذلك بينما كان صديق سيمون يستخدم الهاتف؛ وكان عقلى يغلى، ورأيت فى نفس الوقت وجه سيمون، عينيها الكبيرتين الشبيهتين ببقرة مصرية واللتين كانتا تُعبران عن ضيق عميق، وفجأة أدركت لماذا قالت لى إننا متماثلتان وإن أجسادنا لم تعد ملكاً لنا، لأننا لم نرغب فى أى شئ مطلقاً، وأن الآخرين هم الذين يقررون مصيرنا دوماً.

ظلت سيمون فى المنزل، بينما حملنى مارتيا ل وأحد رفاقه إلى السيارة. كانت السماء تمطر فى خارج المنزل، وكانت مستنقعات المياه الصغيرة الحجم ترتعش على البلاط الأسود فى الشارع، وكانت السيارة تمر فى الشوارع الصامتة والخالية؛ وأظن أنهما كانا يبحثان عن صيدلية ليلية، وهبط الطبيب كى يشترى دواء لى، قطرات من برمبران، أو شيئاً من هذا

القبيل؛ ثم تركاني في الشارع أمام الباب، باب مبيت السيارات، ونظر إلى مارتيا جوييه في صمت، ثم لفظ رفيق الطبيب جملة بلغة المستعمرات لم أكرث بها، ربما قالها على الأرجح بلغة الجاوة⁽²³⁾، ثم رحلا، وعندما تبدلت الإشارتان الحمراءوتان، اختفيا.

بعد ذلك، كان فصل الشتاء، ولم أشعر ببرد مثل هذا البرد مطلقاً، وكانت تغادير قد قصت على من ذى قبل كل ما يحدث في فرنسا في فصل الشتاء: السماء رمادية سوداء، الأنوار مشعلة في الشوارع اعتباراً من الساعة الرابعة من بعد الظهر، والثلج، رقائق الجليد، والأشجار العارية تماماً والمفتولة كالأشباح. ولكن فصل الشتاء هذا كان أكثر سوءاً مما قالت.

جاءت طفلة حورية إلى الدنيا في شهر فبراير، ويوم ولدت الطفلة، ظننت أنها ربما هذه هي المرة الأولى التي يحدث شيء مثل ذلك: أن يولد طفل تحت الأرض، بعيداً عن ضوء النهار كما لو كان في أعماق مغارة.

وربما لهذا السبب بدأت أفكر في الجنوب الفرنسي وأن أعود إلى الشمس، حتى تسطع الشمس على جلد الرضيعة، وحتى تتخلص من تنفس الهواء العفن في هذا الشارع الذي لا تُرى منه السماء.

كنا نخطط لهذا الأمر مع نونو، قلنا أنه سيفوز بمباراته بسهولة، وسيمكنه آنذاك شراء سيارة، ثم نهبط جميعاً مع حورية والرضيعة نحو

(23) الجاوة لغة اصطلاحية لمجموعة من الأندونيسيين. (المترجم)

الجنوب متخذين الطريق الشاسع الذى يمر بإيفرى كوركورن، فى ممراته الثمانية التى تشبه نهر، وخططنا أن نمضى إلى مدينة كَانْ وإلى مدينة نيسْ وإلى مونت كارلو وحتى إلى روما أيضا فى إيطاليا، وسننتظر قدوم أبريل أو مايو حتى تكون الرضيفة قد كبرت وتستطيع حينئذ تحمل مشقة السفر؛ أو حتى شهر يونيو طالما أننى سوف أتقدم لاختبار الثانوية؛ ولكننا لن نذهب أبعد من ذلك، لأن ذلك السفر سيكون طويلاً جداً، وسيكون الوقت قد فات للمضى إلى أبعد من ذلك. كان يونيو شهراً سعيداً، فلقد أجريت مباراة الاختيار فى الثامن من يونيو، وكان نونو يتدرب طوال الوقت، فحينما كان غير متواجد فى صالة التدريب بشارع باريس العريض، كان يتمرن على الملاكمة فى مبيت السيارات، فلقد صنع لنفسه كرة ملاكمة من جوال بطاطا حشاه بالخرق البالية.

كان الطقس بارداً فى شارع جافلو، ولحسن الحظ أن نونو كان قد أحضر مدفأة كهربائية، كانت حينما تعمل تحدث صوتاً كصوت طائفة؛ وترشيدا للاستهلاك، أرانى نونو كيف أنه زور فى عداد الكهرباء ثاقباً بالشنيور على جانب غطاء العداد ثقباً صغيراً حتى يوقف عجلة العداد عن طريق إبرة حياكة، ولحظة مرور مفتش الكهرباء، كنا ننزع الإبرة من العداد ونخفى الثقب عن طريق قطعة صغيرة من العجين الملون باللون الأزرق. كانت تنقصنا النقود، فكان نونو يتدرب، ولم يكن لديه الوقت كى يعمل، فكانت النقود تسد عوزنا بالكاد؛ وعندما كان يعود للمنزل فى المساء، كان يضمحل

من التعب، وكان أحد الأعضاء الاشتراكيين قد وعده ببطاقة إقامة لو أحرز النصر في المباراة، ولذلك لم يرد أن تفوته هذه الفرصة. أما حورية فلقد كانت تشبه في الآونة الأخيرة.. أكثر فأكثر.. ملكة النحل، فكانت تظل راقدة على الفراش، بالقرب من المدفئة التي كانت تموء، ضخمة ومتبلدة، ووجهها منتفخ من الحمل، و لم تكن ترغب في أن تعتنى بها مساعفة اجتماعية، و لم تكن ترغب في أن تُعرض على طبيب أيضاً، فلقد كانت تخشى أن يتم إخطار الشرطة عنها وأن يرسلوها آنذاك إلى زوجها، إضافة إلى أنها كانت في مأمن تحت الأرض، كالعنكبوت في شقته، يصنع طفلة؛ و ما من أحد يمكنه العثور عليها هنا، والخطر الوحيد كان يتمثل في صديق نونو، ولكن من الأخبار الأخيرة، علمنا أن جزيرة بورا بورا⁽²⁴⁾ تعجبه، ولم يكن هناك خطر كبير من أن يمضى إلى باريس وسط المطر وحببات الجليد.

عندما جاءت لحظة الولادة، طلبت حورية مولدة وليس طبيب، وكان نونو مذعوراً، فكان يجرى في كل الاتجاهات، وكان يفقد صوابه؛ وبما أننى لم أكن أعرف إلى أين أذهب، فقد استقلت القطار حتى إفري كوركورن وذهبت إلى المعسكر البوهيمى، ووجد جيانيكو المولدة، ثم تفاوض معها باللغة المانوشية⁽²⁵⁾، وقبلت أن تأتي في مقابل خمس مائة فرنك. كانت تدعى جوزيفا، كانت فارعة الطول، مسترجلة قليلاً، وجهها عريض بارز التقاطيع

(24) جزيرة فرنسية في المحيط الهادى. (المترجم)

(25) لغة البدو الرحالة. (المترجم)

ويدها قوية ؛ ولم تكن تتحدث بالفرنسية تقريباً ، ولكنها اطمأنت إلينا عندما سمعتهنى أحدثها بالأسبانية، وكانت لديها لكنة الجالسيين⁽²⁶⁾ القاسية.

اصطحبئها بالقطار، وقبل أن تمضى إلى شارع جافلو، أرادت القيام ببعض المشتريات لها ولحورية، فاشتريت قطناً ولصقة مشمعة ودواء البيتادين وكمادات وأمور من هذا القبيل، وأيضاً أعشاب من عند الصينيين: زعتر وقويسة، ومرهم فى علبة مستديرة مزخرفة بصورة نمر؛ واشترت أيضاً كوكا وحلوى وسجائر.

بلغت مبيت السيارات، فعلقت ملءة عبر الحجرة التى كانت ترقد فيها حورية حتى لا يزعجها أحد؛ وظلت هكذا ثلاثة أيام كاملة دون أن تخرج تقريباً ودون أن تتحدث. كانت تقول أن هناك رائحة سيئة فى المكان، وكانت تطلق البخور وتشعل السجائر. وفى خلال هذه الأيام، لم تكن أنا ونونو بوسعنا أن نمكث فى المكان، كنا طوال الوقت فى الخارج، فكنت بعدما أفرغ من عملى فى منزل بياتريس، أمضى كى ألحق بنونو فى صالة التدريب فى باريس، وكنت أراه يلاكم ظله، وكان يقفز الحبل، فكنت أجلس فى ركن من الصالة وأشاهده يتحرك؛ وكان كل الناس يعتقدون أننى صديقه، حتى أن العضو الاشتراكى جاء ليتحدث معى، ولم يكن يلقيه بنونو أو ليون، إنما كان يتحدث عنه ذاكرأ اسمه العائلى "اديديو"، فكان يقول: "ينبغى على

(26) مدينة وميناء فى سيرلانكا. (المترجم)

اديدجو أن يجتهد، ولا ينبغي عليه أن يرتكب الحماقات، قولي له ذلك؛ وأعتقد أنه كان يلمح بممارسات نونو، وللأشخاص الذين كانوا يكسرون المنازل والسيارات وللشرائط التي يجلبها من وقت إلى آخر ويقوم ببيعها. كان العضو الاشتراكي قصيراً، وشعره منتفش، وكان يبدو أنه رجل رياضي أو رجل شرطة؛ ولم أكن أحب أن يأتي ليتحدث معي، ولم أكن أحب أن يقول "اديدجو" هكذا كما لو كانت له حقوق على نونو وكما لو كان من نصرائه. ولمرة أو اثنتين، حاول أن يعرف موقفى من القانون أو هل لدى بطاقة إقامة، ولم أكن أحب أن يطرح على أسئلة، ولم أكن أحب أن يخاطب كل الناس بصيغة المفرد، كما لو لم يكن هناك اختلاف بينه وبيننا، ولكنه ربما كان ببساطة لطيفاً. كان ذراعه الأيسر مبتور وربما كان هذا الأمر وراء ذلك، فكان يدلف نحو الناس، ويقول لهم بصوت عالٍ: "أمسك هذا، عاوننى فى ارتداء قميصى الصوف، هل لك أن تفعل؟" كان إحساسه بالصدقة عنيف إلى حد ما، فكان يقول دوماً لنونو: "لا عليك، بطاقة إقامتك مسألة محلولة"، كما لو كان بوسعه أن يسوى هذا الأمر مهما كان.

وضعت حورية أنثى، فعندما عدت من منزل باتريس المحررة، كانت الرضيعة قد خرجت إلى الدنيا، ملتصقة بصدر حورية، وكانت المولدة متعبة، فلقد احتست عدداً من كؤوس الخمر ثم نامت بعمق على الأريكة، حتى أن ضوء النيون لم يوقظها.

كان يبدو على حورية النعاس هى أيضا، وكانت الغرفة تفوح برائحة مقرزة: بول، عرق، رائحة حامضة، ولو كانت هناك نافذة فى أى مكان، لفتحتها على آخرها حتى أدخل الهواء والشمس. فكرت فى أنه ينبغي أن يرحل الطفل بسرعة وإلا فلن يقو على العيش تحت الأرض.

وفى الأيام التالية، أصابتنا الحمى، وكنا جميعاً منهكين، كما لو كان كل منا أنجب الطفلة، فكنا ننام بالتناوب تبعاً لنظام الرضاعة؛ وكانت أطراف ثدى حورية مشققة، ولذا كانت تجد مشقة فى الرضاعة، وكانت هناك بقع من الدم على فراشها، فقدمت المولدة وأسقت حورية لبناً ويانسوناً ودلكت ثديها بمرهم. كانت حورية ترتعش من الحمى، وكانت الرضاعة تعوى، وفى النهاية، أرسلت بياتريس المحررة صديقة لها كانت تعمل معاونة بمستشفى، فحملت حورية ورضيعها إلى قسم الولادة بالمستشفى، وكانت متوعدة للغاية ذلك أنها تركت نفسها تُحمل على نقالة دون أن تقول شئ.

كنت أذهب كى.أراها كل يوم بعد الظهيرة، وكانت تقيم مع أمهات مثلها، فى غرفة جميلة بيضاء فى الطابق الأرضى؛ ومن خلال نافذة الغرفة، كانت تُرى أشجار السرو، وأشجار جنبة الرباط، وعصافير الدورى وهى تحلق فى الهواء، وحتى السماء رمادية اللون كانت رائعة. كنت أحمل إليها حلوى جافة وشاى فى كظيمة⁽²⁷⁾، وحتى أمزح مع حورية، كنت أقص عليها

(27) الكظيمة هى الجهاز الذى يحتفظ بحرارة الشاى لمدة من الوقت، ويطلق عليه فى بعض

البلاد العربية التى تبنت فى لهجتها العامية المصطلح الغربى "تورموس". (الترجم)

أى شئ، فكنت أقول لها أنهم سوف يعطون اسماً لرضيعتها، وسيسمونها باسكال لأنها ولدت فى اللحظة المناسبة قبل أن يطبق قانون الدم الجديد⁽²⁸⁾، وكانت حورية توافق على ذلك، ولكنها كانت ترغب فى أن يُضاف اسم "مليكة" إلى اسم الطفلة، لأن "مليكة" هو اسم أمها هى؛ وهكذا سُميت الرضيعة "باسكال مليكة"، وفى سجل الأحوال الشخصية، أرادت حورية أن تكتب الاسم الحقيقى للأب "محمد"، حتى لا تكون الفتاة من أب مجهول. وحتى حكيم جاء فى زيارة حورية، ونظر إلى هذا الكائن الصغير أحمر البشرة، الذى يقتله النعاس فى المهد بجوار حورية، قائلاً: "يبدو عليها أنها فرنسية صغيرة".

فجأة صارت حورية قلقة، فقالت لى: "ولكن إذا أردت أن أعود لبيتى، ألا يأخذوها منى؟" هدأت من روعها على قدر استطاعتى، وقلت لها: "ما من أحد بوسعه أن يأخذها منك، هى أبنيتك، وليست ملكاً لأحد سواك"، وأظن أن هذه هى المرة الأولى التى كان لحورية شيئاً تملكه؛ وعلى الرغم من كل ما عانت منه، وعدم الثقة فى مستقبلها، إلا أنها كانت محظوظة.

غَيَّرَ قُدُومُ باسكال مَلِيكَةَ كل شئ بحق فى شارع جافلو، فلقد أدركت أن ما من شئ سيبقى كما كان من دى قبل، وكان ذلك شئ طيب، فبداية، لم

(28) قانون الدم هو القانون الفرنسى الذى كان لا يمنح الجنسية إلا لمن كان أبويه فرنسيين. وعلى العكس منه. هناك قانون الأرض -وهو قانون يعمل به حتى اليوم- وهو منح الجنسية لمن ولد على الأراضى الفرنسية بعد مرور عمر معين. وكان قانون الدم يحتم على من يحصلون على الجنسية أن يكون له اسماً فرنسياً. (الترجم)

تعد حورية تفكر فى الرحيل، و لم تعد ترغب فى أن تعود إلى بلدها، فالآن بعد أن أصبحت تمتلك الرضيعة، تشعر بأنها قوية، والمدينة والناس لم يعودوا يرعبونها؛ وكل صباح، تلف الطفلة فى خمار صوفى، ثم تمضى إلى الخارج، فى الحداثق، فى الشوارع أو تعود صديقها، السيد فى؛ وحتى يكون لها عملاً، طلبت من بياتريس أن تعينها بدلاً منى، فاشترت بياتريس مهدياً للرضيع؛ وكانت حورية تمضى كل صباح لتعمل لديها. ولم يكن بوسع بياتريس وزوجها أن ينجبا أطفال، ولهذا كانوا متأثرين من وجود هذه الطفلة التى تنام فى منزلهم؛ ثم اعتادت حورية أن تتركها وقتاً طويلاً أثناء ما كانت تمضى للقيام بالمشتريات، أو عندما كانت تمضى تتابع دروس محو الأمية. كان لبسكال مليكة حجرة أنيقة، فلقد أزاحت بياتريس وزوجها المكتب والأرفف المليئة بالمكتب، وفرشوا الحجرة بالسجاد نى اللون الوردى، وكان ذلك يشكل منظرًا هادئاً مع الضوء والشمس. عندما كانت حورية تعود إلى الجحر الأسود فى شارع جافلو فى المساء، كانت الطفلة تبكى وتصرخ ولا ترغب فى النوم. وظننت منذ بداية الأمر أن بياتريس وزوجها قد فكرا فى تبني باسكال مليكة، ولكنهما لم يصرحا بذلك الأمر.

رأيت سيمون مرة ثانية، فذات مساء، عدت إلى محطة ريومير - سيباستوبول، وكان يبدو لى أننى منذ سنوات لم أذهب إليها، وعندما سمعت ضربات الدف تدق فى الممر من بعيد، ارتعش جسدى، ولم أكن أعلم إلى أى حد كنت أفتقد ذلك الأمر، إضافة إلى أن كل ما حدث مع ميلاد الطفلة غير

منى وربما كبر من عمري، كما لو أنني أصبحت أدرك الآن ما كان وراء هؤلاء الناس، وكل هذه المشاهد والمعنى الخفى من هذه الموسيقى.

فى الممر، فى تقاطع الأنفاق، كان العازفون يجلسون ويدقون الطبل، وكان هناك هؤلاء الذين أعرفهم، الأنتيين والأفارقة، وعازفين لم أراهم من قبل قط: صبى شعره طويل، بشرته صفراء ذهبية، من جزيرة سان دومينيك على ما أعتقد، ولم تكن سيمون تغنى، بل كانت جالسة وظهرها للحائط، ووجهها مقنّع بنظارات سوداء، فمكثت بجوارها، وعندما تعرفت على ابنتها، ولكننى رأيت وجنتها اليمنى متورمة، فقلت لها: "ماذا حدث لك؟"

هزت منكبيها ولم تجب، وكانت موسيقى الجامبيه والديجون ديجون تنطلق فى إيقاع هادئ، وكانت بطيئة، هادئة تماماً. وكان كل ذلك يحدث تحت الأرض، ويصل حتى الطرف الآخر من العالم وكأن هدفها هو إطلاق موسيقى الجانب الآخر خلف المياه، كأغنية وكلفة. كنت فى حاجة إلى هذه الموسيقى، وكان ذلك يسعدنى، فلقد كانت مشابهة لصوت المؤذن الذى كان يعبر فوق الأسقف ويدخل فناء لالا أسماء، ومشابهة لصوت أجدادى فى بلد الهلائين.

وفى لحظة، انطلقت إشارة تدل على أن الشرطة جاءت، ففر الجميع بسرعة، داقو الطبول والجمهور، فوجدت نفسى وحيدة مع سيمون كالمرّة التى ذهبت فيها إلى منزلها، ولكنها سألتنى هذه المرّة وكان صوتها مخنوق

ومتكدر: "ليلي، هل يمكنني أن أمضي إلى منزلك هذه الليلة؟"، وكانت تعرف أين أقيم منذ ذلك المساء الذي وضعني فيه مارتياك أمام باب مبين السيارات، ولم أسألها لماذا تريد أن تأتي معي؛ وعدنا سيراً على الأقدام عبر باريس وسط رذاذ المطر.

أضمت سيمون يومين في مسكننا، ومكثت دون أن تتحرك، راقدة على فراش أحضره نونو، وكانت ترتشف قليلاً من الكوكا، ثم تعاود النوم. كان المخدر يمثلها، وقصت علىّ قليلاً مما حدث لها، فلقد أصبح صديقها مجنوناً، أتهمها أنها تخونه، ضربها، ثم اغتصابها ومعه شخص آخر؛ ولم ترد أن أقوم بإبلاغ الشرطة، فكانت تقول أن ذلك لن يفيد في شيء، وأن الطبيب جواييه رجل مهم، وله أصدقاء في كل مكان، يعمل في هوتيل دي ديبه⁽²⁹⁾، ولن يصدق أحد عنه ذلك.

ذات ليلة، جاء صديقها يبحث عنها، وسمعت السيارة تتوقف خلف باب مبين السيارات. لا أعرف كيف خمن أن سيمون مختبئة لدى، كان له جواسيس في كل مكان. لم يحدث أي صخب، فلقد طرق برفق باب الحريق، فأحدث صوتاً خفيفاً كنت أسمعه في نومي، وعندما أضأت المصباح، وجدت سيمون جالسة على فراشها، وعينيها منفرجتين على أشدهما كما لو كانت تنصت إليه؛ وكان يحدثها بهدوء من خلف الباب بلغته، لغة

(29) مستشفى شهير في باريس يقع على نهر السين. (المترجم)

المستعمرات المنعمة والعذبة، فقلت لسيمون: "أتريدين أن أقول له أن يمضى؟"، وكانت لها نظرة غريبة، مخلوبة اللب، خائفة ومجدوبة، ورأيت وجنتها متورمة، والدم الذى جف على قوس حاجبها، فشعرت بالغضب والخزى، وقلت لها: "لا تنصتى إليه، لاتجيبه، سينتهى بالرحيل عن هذا المكان"، ولكن الأمر كان أقوى منها، فأخذت تحدثه عبر الباب، فلم ترد أن تستيقظ الطفلة، كانت تهمهم فى صوت منخفض، فى البداية بالفرنسية، بالشتائم، ثم بلغة المستعمرات.

انتهت إلى فتح الباب؛ وفى الغبش، كانت السيارة المرسيدس واقفة، فوانيسها مضاء، ولم يكن هناك سوى صوت غطيظ فتحات التهوية التى كانت تنطلق رويداً رويداً؛ وظلا يتحدثان طوال الليل، وفى لحظة، استيقظت، وكنت أشعر بالبرد، فلقد جعل باب مبيت السيارات الموارب الهواء المبلل يمر إلى، ورأيت المرسيدس، وكانت أنوارها هذه المرة غير مشعلة، وكانت سيمون وصديقها يتحدثان وهما جالسان على مقعد السيارة الخلفى. ومع مطلع الصباح، رحلت معه دون أن تقول لى أى كلمة، فوجدت مشقة فى إدراك كيف أن امرأة مثل هذه تتعلق إلى هذا الحد بمثل هذا الرجل. اعتدت أن أذهب إلى منزل سيمون فى فترة ما بعد الظهر، عندما كان ماتريال جوييه خارج المنزل، كى أتعلم العزف والغناء بمفردى فى المنزل الصغير ببيت دى كاي، وكانت مصارع النوافذ مغلقة، فكانت سيمون تخط مثلثاً بالشمع المشتعل فى آخر البهو، وفى المنتصف كانت تضع ما كانت

تحب من فواكه السوق، المانجو، الأناناس، العنب الهندي. لم أجسر على سؤالها لماذا. لم أطلب منها شيئاً على الإطلاق ولهذا كانت تحبني كثيراً. كانت ساحرة، كانت تتعاطى العقاقير أيضاً وتدخن الكوكايين عن طريق بيبية⁽³⁰⁾ صغيرة في لون الأرض السوداء. كانت جميلة في عينيها الواسعتين كعيني امرأة مصرية، وجبهتها المحدبة التي كانت تلمع كرخام أسود.

كانت تعزف على بيانو إلكتروني متصل بعلبتين تكبير صوت، وكانت تجعل الصوت منخفضاً للغاية، خشناً جداً حتى أسمعها بشكل أفضل، وقالت لي أنني يجب أن أتعلم عزف الموسيقى لأن إحدى أذني لا أسمع بها وأن كل الموسيقيين كانت لديهم معضلة، فكانوا أصماء، أو مكفوفين أو ببساطة مخبولين.

كان الدكتور جوييه لا يعود إلى المنزل خلال فترة النهار، وكان طوال الوقت في مستشفى لاسالبتيرير، يعالج أصحاب الأمراض العقلية، وكان هو أيضاً مجنون.

لم يكن ليحب ما تفعله سيمون بشمعها وقرايينها، فكان سيغضب إن عرف ذلك. ولكن سيمون كانت تخفي كل شيء قبل أن يصل، وكانت ترتب الشمع والبخور، وتضع السجادة في موضعها والمقاعد المريحة في أماكنها.

وضعت في ذهنها أن تعلمني الغناء، وكنت أجلس على الأرض بجوارها في ثوبى، أما هي فكانت تمد ثوبها الطويل على ساقها كتاج

(30) الأنوبة التي يوضع فيها التبغ والكلمة فرنسية وعربية. (المترجم)

قرمزي، وكانت تعزف بيدها اليسرى على لوحة المفاتيح، يدها العريضة والخفيفة التي تهزول على النوتات، فقط ثلاث، أربع، خمسة نغمات أو اثتلاف ممتد، وكان على أن أتابع الصوت؛ ولهذا السبب كانت تعزف بيدها اليسرى حتى تتمكن من الغناء على الجانب السليم بالقرب من أذنى السليمة، ولم أقل لها شيئاً ولكنها كانت تعرف أنني نصف بكما؛ و كان أمراً لا يصدق أن تختارها فكرة تعليمي الموسيقى كما لو أنها كانت قد أدركت أن هذا الأمر يشغلني وأننى أعيش لهذا السبب.

كنا نمضى معا فترات بعد ظهر فى منزل لابيت اوكى، وكنا نعزف الموسيقى، ونحتسى الشاي، وندخن الغليون، ونثرثر، ونضحك دون أن نعرف لماذا. كان لدى إحساس أنني ليس لى من صديقة كسيمون، تذكرت زمن الفندق، الأميرات اللواتى كنت أرقص لهن واللواتى كن يحملننى للحمام أو فى مقاهيهن على شاطئ البحر؛ ولقد كانت كل تصرفات سيمون تصرفات أميرة منهن، إلا أن جزءاً من حياتها كان مأسوياً ولم أفهمه جيداً وسيظل سرّاً، وهو جزء من الجنون.

علمتنى الغناء على موسيقى جيمى هانديكس، "محترقاً مع مصباح منتصف الليل"، "أيتها المرأة الماكرة"، "ضباب بنفسجى"، "الحجرة مليئة بالمرايا"، "شمس حبك"، "فودو الطفل"، وموسيقى نانا سيمون، "الأسود هو اللون الحقيقى لبشرة حبيبى"، "كنت أضع سحراً عليك"، ومودى وترز وبيليه هوليداي، "أيتها السيدة المتكلفة"، ولكننى لم أكن أغنى الكلمات،

كنت أحدث أصواتاً فقط، ليس فحسب من شفاهي وحلقتي، إنما من أقصى أعماقي، من أعماق رئتي، من أمعائي. فقط أربعة أو ستة مقاييس، وكانت توقفي، ثم أكثر فأكثر. كانت يدها ترقص على لوحة المفاتيح وكان لزاماً على أن أفعل مثلها مجموعة من ثمانى وحدات أو كانت تغنى بصوت خفيض وكان على أن أتابع وأغنى: "بابليبو، بابالولالى، لاليلالولا.."

كانت تتحدث أحياناً عن جزيرتها فى الطرف الآخر من العالم وعن الموسيقى التى تتجاوز البحر حتى الأرض القديمة التى أنتشل منها أجدادها وبيعوا. كانت تلفظ أسماء الأمم، وكانت هذه الأسماء ترن بطريقة غريبة، وكأنها كلمات موسيقية: "ايبو، موكو، تم، ماندنكا، شامبا، غانا، كيومانتي، أشانتي، فون..."

كأسماء آبائى الذين نسيتهم.

كانت تتحدث عن الفقر، وتقول: "إن الهاييتى هو الإنسان الأكثر قسوة فى العالم"، وكانت تقول: "إن الأسود يخون الأسود كزمن ديسالين⁽³¹⁾"، وكانت تقول: "عندما ينتابنا الجوع نوجه أعيننا نحو الداخل"، وكانت تتحدث عن شارع سيزار، عن بورت او برنس، كانت

(31) جان جاك ديسالين Jean Jacques Dessalines هو إمبراطور هاييتى ولد فى غينيا وعاش بين 1758-1806. كان عبداً أسوداً، ثار ضد روشلمبو وطرده من الجزيرة ثم أعلن نفسه إمبراطوراً على هاييتى عام 1804 بعد أن أمر بمذبحة ضد البيض أغتيل على أيدي خصومه. (المترجم)

تتحدث عن القلب الذى يدق وسط الزحام، عن أمها روز كارول التى كانت
تندشد فوتو⁽³²⁾ فيما مضى حتى تحضر الموتى، كانت تدق الدف، وكانت هناك
عين مفتوحة فى منتصف زاوية كبرى فى فناء منزلها كتلك التى صممتها
سيمون بالشمع. كانت تحكى، كانت تغنى، كانت تتحدث مع الدف، كانت
ترى قدوم الاوس حتى هنا، حتى شارعها. كانت تردد أسمائهم، أسماء
النباتات، السلاح الحقيقى، فواكه الروح الحقيقية، العنب الهندى والعلاقات
الداكن الذى يغطى الجزيرة بظله. وكنت أنصت إليها، وكانت هذه الأشياء
مسلية لحد أننى كنت أنام من سماعى لها. ومن أجلى، كانت تعزف على
لوحة المفاتيح، والنوتات التى كانت تكررهما دوما، كانت نوتات خفيضة، أو
كانت تقرق بأطراف أصابعها الدف الذى كان يتحدث، على الراد، على
الديجون ديجون وكان الصوت يتغلغلنى كما فى ممرات محطة ريومير -
سيباستولبول، كان يصعدنى ويملأنى تماماً وكنت شبيهة بثعبان يتراقص
أمام المروض، شبيهة بعبساوة⁽³³⁾ الأعياد، وكنت أدور حول نفسى حتى
الدواخ.

لم نعد نتحدث. فقط هى جالسة القرفصاء فى وسط ثوبها، تهز
نصف جسدها الأسفل، وتعزف الموسيقى وتغنى أغنيتها الأفريقية التى تأتى

(32) الفوتو voutou عبادة روحية اعتادها زنوج الأنتى وزنوج هاييتى. (المترجم)

(33) العيساوة Aissaouas هى فرقة دينية مسلمة نشأت فى شمال أفريقيا فى القرن

من النشاط الآخر من البحر وأنا كنت أردد حركاتها وجملها، حتى حركات عينيها وإشارات يدها دون أن أدرك، كما لو كانت هناك قوة مغناطيسية تقيدني إليها. كانت تفعل ذلك إلى أن تغرق شعل الشمع في الجس.

وعندما تنتهي، كنا نصير منهكتين، فكنا ننام على الأرض، على الوسادات المتناثرة في رائحة الدخان. وفي خارج المنزل، كانت الناس تتحرك، وربما المترو، القطارات، السيارات، الناس يهرولون كالحشرات المجنونة، الناس الذين كانوا يشترون، يبيعون، يحسبون، يضربون، يخزنون، يستثمرون. نسيت كل شيء، حورية، باسكال مليكة، بياتريس وريمون، ماري هيلين، نونو، الأنسة ماير، السيدة فروماجا. كل ذلك تزحلق وسار. الصورة الوحيدة التي كانت تأتي، ثم تستغرقني، هي نهر السنغال الكبير، ومصب الفاليميه⁽³⁴⁾، وحافة الطريق المنشطرة في الأرض الحمراء في بلد الحاج، و إلى هناك كانت تحملني موسيقى سيمون.

ذات مساء، عاد مارتيا ل جوييه مبكراً عما هو متوقع، وفتح باب البهو، ثم جلس على العتبة لحظة طويلة ينظر. في خارج المنزل، كان الليل. كان الشمع المحتضر يصدر ضوءاً واهناً، وخمنت نظرة الطبيب الذي كان يفتش في الظلام، ولم يقل شيئاً، عبر البهو مصطفاً بدف سيمون، ثم مضى مستقيماً نحو صالة الاستحمام. من المفترض أنه غضب بشدة بسبب عبوره

(34) الفاليميه Falémé مصب يفصل السنغال عن مالي وتبلغ مساحته 650 كيلو متر مربع.

بصمت عبر هذه الأشياء. أوقفتنى سيمون ودفعتنى نحو الباب قائلة لى: "اذهبي، اذهبي، من فضلك"، وكان يبدو عليها الرعب، فقلت لها: "تعالى، أنت أيضاً، لا تبقى هنا". كنت على يقين من أنها إن كانت قد شاءت أن تأتى معى هذه اللحظة، لكانت طليقة، ولكنها لم تفكر حتى فى هذا الأمر. وضعت نقوداً فى جيبى، وقالت لى: "هيا، استقلى سيارة أجرة كى تعودى للمنزل، فالطقس بارد"، ولا أعلم لماذا فكرت فى هذه اللحظة أننى لن أراها ثانية. كانت لا تستطيع أن تقرر مصيرها، ولهذا كانت كالرقيق، فلو قررت مصيرها، لمرة واحدة فقط، لما عادت تخشى مارتيا، ولا تخشى أن تكون بمفردها، ولن تكون فى حاجة إلى أن تخدر دنسها، أو تأخذ أقراص التميستا، كانت ستغدو حرة.

أما على مستوى الحاج، فلم تكن الأمور تمضى على ما يرام أيضاً، فلقد كان المحارب القديم يخشى الشتاء، وكنت أذهب إليه متى استطعت، بالقطار أو بالأتوبيس، إلى كوركورن حتى طريق فيلابيه. كان الريف مثلجاً، وكانت هناك طبقات جليدية خفيفة على المنحدرات، وكانت هناك حقول رمادية شاسعة حيث تحجل طيور الزاغ⁽³⁵⁾، وفى الشقة الصغيرة فى البرج B كان الحاج يجلس أمام النافذة مرتدياً قميصاً من الصوف السميك فوق قميصه الأزرق، وكان يضع قلنسوة مُتلبدة حتى عند النوم. كان يحلم عالياً بالنهر الكبير الذى يسرى ببطنى شديد عبر الصحراء حيث يسطع الضوء حتى

(35) الزاغ هو نوع من الغربان. (المترجم)

الكبير الذى يسرى ببطنى شديد عبر الصحراء حيث يسطع الضوء حتى فى الليل، و ربما لهذا السبب كنت أمضى لرؤيته حتى يحدثنى عن النهر، وكان يحكى لى أيضا عن نهر فاليمييه والمدن: كيه⁽³⁶⁾، المدينة⁽³⁷⁾، ماتام، ويامبا قريته، كما لو أنه مازال يستقل زورقا كبيرا مصنوعا من جذع شجرة مع النساء والأطفال ناظراً للبيوت الملتصقة بالشاطئ وهى تمر، وطيور الكركى⁽³⁸⁾ التى تحلق فى السماء، وطيور الغاقة⁽³⁹⁾. حدثنى عن مريما للمرة الأولى، حفيدته، أخت حكيم، وقال أنها ماتت هناك ذات صيف وهى تمضى لتترو أمها، فلقد أصيبت بداء إبيضاض الدم فى أثناء فصل الأمطار، ودخلها البرد، وجمدها يوما بعد يوم ثم قتلها. ولم يرينى الحاج صوراً لها، ربما كان ذلك لا يفيد فى شئ. أرانى فحسب كتابها المدرسى، لأنه كان فخوراً بنتائجها، فلقد كانت فى السنة الأخيرة من الثانوية فى مدرسة سان لوى.

وكان ينسى أحيانا أنها ماتت، فكان يحدثنى كما لو كنت أنا ماريما، ماريما الجديدة. وكان هناك شقاً فى داخله، عميقاً جداً كمظمة مكسورة لا تتوقف عن إبلامه. ولم يرد أن يعود إلى هناك مطلقاً، فكان يقول: "لقد هدموا كل شئ، هناك طرق فى كل مكان، أترين، معابر، مطارات، وكل

(36) Kayes مدينة بمالى تقع بالقرب من السنغال. (المترجم)

(37) Médine قرية فى مالى تقع بالقرب من السنغال. (المترجم)

(38) طيور طويلة الساق. (المترجم)

(39) طيور من الفصيلة البجعية. (المترجم)

الزوارق قطعت مؤخرتها حتى يوضع محرك، فعجوز مثلى ماذا يفعل هناك؟ ولكن عندما أموت، أريد أن تحملينى إلى بلدى، حتى يتم دفنى فى الأرض بجوار أبى وأمى، فى يامبا، على شاطئ نهر الفاليميه، فهناك ولدت وإلى هناك يجب أن أعود". عاهدته على أننى سوف أمضى معه رغم علمى بأن هذا الأمر على الأرجح مستحيل... وأنا أيضاً، لدى دار مقابر أود أن أدفن فيها.

وأيضاً، كان يتحدث عما رآه فى العربية السعودية ريثما قَبَلَ الحجر الأسود للملك جبرائيل، وماء منبج زمزم والذى جلبه فى زجاجة بلاستيكية صغيرة، وجبل عرفات حيث تحرق رياح الصحراء أعين المسافرين. كان وجهه مداراً إلى النافذة، وكنت أرى الجدار الكبير للمباني المجاورة، كنا نسمع غطيظ ليس من بعيد، من هناك حيث توجد جزيرة البوهيميين، ولكن ذهنه لم يكن هنا، لقد كان فى مكان آخر، فى ضوئه. ظللت مع الحاج حتى هبط الليل، وأعددت لنفسى الشاى، وغسلت الأواني، ثم رتبت أشياءه، وربما كنت أعرف فى داخلى أننى لن أراه ثانية، كاليوم الذى وقعت فيه لالا أسماء فى المطبخ وأدركت أنها ستتوفى.

كان الشتاء هو الذى أهلكه، فكان يشعر دوماً بالبرد، وكان حكيم قد اشترى له مدفأة تعمل بالزيت، وتدور فى النهار والليل، فكان الطقس حاراً فى الغرفة الصغيرة حتى أن العرق كان يسيل على البلاط، وكان الحاج يتوقف عن الكلام كى يسعل سعلة ثقيلة كانت تحدث صوت كمطرقة الإحداة فى جرف رثتيه، وهذا ما كان يؤلنى. وكان حكيم قد قال لى أنه يعانى من

الاستسقاء الموضعى، وهو مرض كان يمنعه من التنفس، ولكننى كنت أعتقد أنه البرد فحسب، الرياح والمطر والسماء التى تمضى فى الغيوم الرمادية والشمس الشاحبة، وأنه لكل هذه الأسباب كان يستنفذ قواه.

عندما أحسست أنه متعب للغاية، انصرفت، وقبلت يده فأسند راحة يده للحظة على جبينى، ثم هبط بها على عينيى، على أنفى، وجنتى، شفتى. وقال: "إلى اللقاء، يا ابنتى" كما لو كنت بحق ماريما، وربما كان يظن أننى بحق هى، وربما كان قد نسى، وربما غدوت شبيهة بها من فرط المجيء إلى جدها، من فرط سماعه يقص على ما عاشه هناك على شاطئ النهر، وأنا لا أعرف جيداً من كنتُ.

بينما كنت أمضى نحو محطة كوركورن، عبرت جزيرة البوهيميين، وتحولت عن الطريق المباشر حتى أرى جيانيكو، فذات مساء، جاء نحوى كما لو كان يرقبنى. كانت تبدو عليه الغرابة، وطلب منى سيجارة، وقال لى بصوت مختنق قليلاً. "برونا باعت طفلها"، وعندما بدا على أننى لم أفهم، كرر وبدأ صبره ينفذ: "حقيقى ما أقوله لك، برونّا باعت طفلها". هبط الليل، وكانت المصابيح تضى نجوم صفراء على طوال الطريق وليس بعيداً، على حافة الركّام الأسمنتى، وكان مبنى المتجر الكبير مضاءً كقصر أسطورى.

كان قلبنى يدق بشدة، وسرت خلف جيانيكو، على طول درب الكلاب المؤدى إلى معسكر البوهيميين، وكنت أسير بسرعة، ولم أصدق ما قاله

لى جيانيكو، فلقد كان يبدو لى أن ما قصه علىّ هو قصتى أنا، عندما القانى أشخاص مجهولون فى حقيبة كبيرة وحملونى وباعونى من يد إلى يد حتى وصلت إلى لالا أسماء .

قادنى جيانيكو إلى كوخ خشبى سقفه من الصفيح يتكأ إلى عمود أبيض، رأيت بعض الأطفال عن طريق مصباح غازى موضوع على الأرض. وحول الكهف، كانت هناك أكوام من الفضلات، كراتين، علب صدئة، عربة مشتریات مستنفذة، وكان هناك أناس فى العربة الكبيرة التى يسكنها الرحالة، نساء ورجال يأكلون، ضوضاء تلفاز، و كلاب مربوطة فى سلاسل، شعرها أسود مُنتفش. فتح جيانيكو باب الكوخ، وكانت برونّا تجلس على فراش من المعسكر، على مرتبة بلاستيكية ترتفع من كل طرف، وبجوارها، كان هناك طفلان، صبية عمرها ست أعوام تقريباً، وصبى عمره اثنتى عشرة عاماً، كانت نظرتهم حادة وكان حاذقاً. كانوا يتحدثون اللغة الرومانية، وطرح جيانيكو بعض الأسئلة على المرأة؛ كان طالعها رقيقاً، شعرها لونه أشقر نحاسى قليلاً، عيناها شديداً الخضرة، صغيرتان، حيويتان كعيسى حيوان. كانت تنصت إلى ما كان يقوله جيانيكو وكان نظرها يمشى منه إلى، كما لو كانت تحاول أن تتبين الحقيقة.

ثم نهضت، وذهبت نحو نهاية الحجرة، وسحبت ستارة، وفى مخدع النوم، كانت هناك عربة طفل سوداء، وفى العربة كان هناك رضيع نائم. قال جيانيكو: "إنها أنثى"، وأضاف بصوت منخفض وبسريرة: "إننى

قلت لها أنك تعرفين إناس أغنياء، أطباء، محامين، وبدون ذلك، لم يكن لها أن تربك طفلها، " ولم أعرف بماذا أجيب، ونظرت إلى الرضعة النائمة والمخفية كلها تقريباً بالثياب المسردة والملابس، وتساءلت: "ما اسمها؟"

هزت بورنا رأسها، وصار وجهها قاسياً وصلباً، وأجاب جيانيكو بعد صمت طويل: "ليس لها من اسم، من سيشتروها سيمنحونها اسماً".

ولكن عندما خرجت من المنزل، قال لي جيانيكو بصوت منخفض: "أتعلمين، هذا غير حقيقي، هذه الطفلة لها اسم، إنها تُدعى ماجدة"، وفكرت في بياتريس المحررة، ما كانت قد قالت به بشأن طفلة حورية من أنه إذا لم تستطع أمها أن تتولى أمرها، فإنها تحب أن تتبناها. قلت لجيانيكو: "لو كان حقاً أن هذه المرأة تريد بحق أن تبني أبنيتها فأنني أعرف شخصاً ما يشتريها"، قلت ذلك وحلقى مشدود، لأنني فكرت في ذات الوقت أن شخصاً ما كان قد قال نفس الشيء في السابق عندما أخطفت وأنه من المفترض أن لالا أسماء أجابت هي أيضاً: "أستطيع أن أشتريها أنا". كان الطقس مظلماً ورمادياً هذا المساء، وكانت السيارات تمر من جانب جزيرة البوهيميين محدثة غطيط كنه في فيضانه. اصطحبني جيانيكو حتى موقف الأتوبيس، ثم عدت إلى باريس.

بعد ذلك بثلاثة أيام، مات الحاج، وأخطرني حكيم بذلك عن طريق صديق له؛ وكنت أعد نفسي 'تلقى درس الفلسفة في مقهى لا ديسيسبرانس عندما علمت هذا الخبر، فاستقلت على الفور القطار حتى إيفرى -

كوركورن، وكانت السماء كعادتها دوما رمادية ومنخفضة، وكأن الأيام لا تمر، بينما كانوا يتحدثون فى المذيع عن الثلج.

كان باب الشقة الصغيرة موارباً، فدخلت فى هدوء كما لو كان الحاج لا يزال على قيد الحياة، ولم أرد أن أفزعهم. كان المطبخ الذى عادة ما كان يمكث فيه خالياً، وفى غرفة نومه، كانت الستائر منخفضة إلى النصف. رأيت فى البداية حكيم من ظهره، بالقرب من الفراش، ثم أناس آخرين لم أكن أعرفهم، جيران بلا شك، رجال مسنين، ، امراء، فارعة وقوية، ظننت أنها على الأرجح أم حكيم، ولكنها كانت فى مقتبل عمرها، وكان نمطها على الأحرى عربياً، بشرتها بيضاء، وشعرها مموج ومصبوغ بالحناء، ربما كانت هذه السيدة خادمة أو بوابة المبنى. كان الحاج راقداً على السرير، مرتدياً ملابسه على أكمل وجه، دوما فى قميصه الطويل الأزرق دون الرقبة وبنطاله الرمادى ذى الثنية المكوية الرائعة، وكان ينتعل حذائه الثقيل الأسود المصقل، كما لو كان يعد نفسه للرحيل فى سفر، ولم أراه أبداً هكذا من ذى قبل: كان شكله متصلباً كقبضة اليد، وكانت عيناه منتفخة الجفون، وكان فمه وأنفه مغلقين ومشدودين، وكان يبدو على وجهه تعبير عن الحزن والضيق، وتذكرت ما قاله عن نهر السنغال، عن قريته يامبا وعن نهر الغاليميه، كل ما كان يحبه فى الدنيا، وفى أنه مات بعيداً جداً، وحيداً فى غرفته، فى الطابق الثامن من السبرج B الواقع فى طريق فيلابيه.

الآن الكل صامت، كان حكيم ينظر إلى بينما كنت أتلمس جبهة جده، لبرهة فحسب، فلمست جلده البارد المحبب بأطراف أناملتي؛ وكان الجو شديد الهدوء، شديد الصمت، فوددت أن يكون هناك صخب، كما يحدث في الأفلام عندما نسمع النسوة تبكين في تهديدات طويلة مشجية مبالغ فيها، ويكون هناك جلبة من أصوات الرجال وهم يحتسون قهوة الميت، أو كما يحدث لدى المسيحيين في غمغمات الصلوات. كان هناك كلب يعوى في الفناء، وكان عوائه عواء حزن، ولكن لم يكن هناك أى شئ آخر، فقط ضوء تلفاز فى مكان ما فى أعلى المبنى، وكان القادمون ينسحبون واجمبون متحاشون أن ينظروا إلى. وتمنيت أن يكون هناك عازفو التم تم بمحطة المترو حتى يعزفوا دون توقف موسيقى كصوت الرعد عبر الغابة، تحيط بهم ورود، وتغنى سيمون بصوتها الخفيض، "الأسود هو اللون الحقيقي لبشرة حبيبى".

خرجت المرأة البدينة بهدوء، وتبينت أنها تشبه لالا أسماء، كانت لها نفس النظرة الشاردة المتأملة قليلاً خلف عدساتها، ولا أعلم لماذا مسكتها من قبضة يدها واقتدتها نحو الفراش قائلة لها: "من فضلك، امكثى قليلاً، لا ترحلين"، فهزت رأسها، وكان صوتها أجشاً، مختنقاً حينما قالت: "لقد كان طيباً". قالت ذلك كما لو كانت تعتذر، انسحبت ببطئ، ودفعت أناملتي، فكتتها واحدة تلو الأخرى، وكان عليها تعبير بالخوف فى عينيها الخضراوتين، وكان يبدو لى أن حدقتيها السوداوين تسبحان فى منتصف قزحيتها.

نهاية، خلصها حكيم منى، ثم مسكنى من كتنى، كما يجرى مع مجنونة بالهستيريا، فقلد كان حكيم بمثابة أختى، وكنت بالنسبة له كما ريما. أحسست على وجهى وكأن أنامل الحاج الهرمة تمر برقة على عيني، على وجنتي، على شفتي، فلم أعد أفلح فى التنفس، وكان هناك شئ ما ينتفخ فى، فى صدري، يكظم حلقى، وتمتعت: "كان لى جداً، ذلك حق، أما الآن فماذا أكون؟"، وكنت أتمتع بكلام غير مترابط، وكان الكلام يخنقنى. ظن حكيم أننى أبكى ولكن لم تكن بى دموع، إنما الغضب، ووددت لو أن أهشم كل شئ فى هذا المبنى، ووددت لو أشق السماء الكثيفة التى كانت قد منعت الحاج من الرؤية، أهشم الزجاج والستائر، أهشم عربات القطارات والأتوبيسات، قضبان السكك الحديدية، السفينة التى تنتظر وقتاً كبيراً كى تشارف شواطئ نهر السنغال ويامبا على نهر الفلاميه.

شدنى حكيم بسرعة لدرجة أننى انهرت على الأرض بجوار الفراش ورأيت كل ما نزع الحياة عن الحاج، المبولة، زجاجات الكرُتزون⁽⁴⁰⁾، وكل ما سقط منه على الأرض والذى لم يكن هناك وقت كى ينظفه أحد ضمنى حكيم للحظة طويلة فى صدره، وأظن أنه هو أيضاً كان فى حاجة للمواساة؛ وفى لحظة ما، قَبَلَنى، وشعرت بالدموع تنساب على وجنتيه، ثم انتهى ذلك. نهضت وانصرفت، لم أنظر إلى جسد العجوز كامل

(40) الكرتزون cortisone هو هرمون ذو فعالية فى معالجة التهاب المفاصل الرثياني.

التياب على فراشه. اعتقدت أنه لن يعود إلى بلاده على شاطئ النهر، سيظل في فيلابيه في دار الموتى حيث سيجدون له موقعاً صغيراً؛ وبدلاً من النهر، سيسمع ضوضاء السيارات على الطرق السريع، وهل لهذه الأشياء أهمية؟. في القطار، المشابه للصحراء في هذه الساعة، رأيت الليل يهبط عبر الزجاج القذر، أظن أنني كنت أفكر في ماجدة أكثر من الحاج، وكان القى على شفتى، ولم أكن قد تناولت أو شربت شيئاً في الصباح.

قبل أن أدخل باريس، تركت نفسي أقع في شرك مفتشى القطار؛ وعادة كنت أراقبهم جيداً، فكنت أهبط لحظة صعودهم؛ ولكن هذا اليوم، نسيت نفسي، وكنت في حلم، فاترة الهممة، كما يحدث لإنسان على أثر الإصابة بألم شديد. ربما كانوا قد شاهدوني من ذى قبل، وعندما نظرت إليهم كانوا أمامى، وجاءوا تجاهى مباشرة متجاهلين الركاب الآخرين؛ وكان هناك الأطفال البوهيميون - الذين رأيتهم لأول مرة مع جيناكو -، فأسرعوا فى الفرار مظهرين لهم أصابعهم، ولكن رجال التفتيش كانوا يبغوننى أنا؛ وفى البداية، كانوا مهذبين معى ورسميين تقريباً.

قال أحدهم: "آنستى، ما معك من بطاقة سفر، تفضلى بإخراج بطاقتك الشخصية لنا"، وعندما قلت لهم أننى ليس معى بطاقة شخصية، ومن ناحية أخرى، حتى لو كانت معى، ما كان لكم الحق فى طلبها منى. أصبحوا أقل أدباً وقال أحدهم: "فى هذه الحالة، تمضين معنا إلى المركز".

كانوا عبارة عن زوج من الرجال متناقضين فى الشكل، أحدهم فارع وقوى، ذقنه ثنائى وشاربه صغير ولونه أشهب، أما الآخر فقصير وأسمر البشرة ويبدو عليه الانفعال، وهو يتكلم بلهجة مدينة تولوز⁽⁴¹⁾. أخذانى، كل واحد منهم من ذراع، ومروا بى فى القطار من عربة إلى عربة حتى القاطرة، ثم أجلسانى بينهما على مقعد صلب بجوار الباب، وقلت لهما إنهما يتعسفون فى استخدام القوة وإنه لم يكن لهما أن يلجأ إلى العنف معى، ولكنهما ظلا غير مكترئين بما أقول. استمر القطار فى السير نحو باريس، ثم هبط الليل، وكان حارسى يتحدثان فوق رأسى كما لو أننى لم أكن بينهما، كانا يتبادلان أخبار مكتبهما، ويقصان حكاياتهما؛ وكان بوسعى أن أثير شفقتهم بأن أقص عليهما أن جدى مات وأنه لهذا السبب افلح فى مباغتتى فى القطار، ولكننى لم تكن لدى الرغبة فى أن يشفقا علىّ فى أى شئ، ولا من أجل أى شئ فى الدنيا، و لم أرد أن استخدام الحاج فى الحصول على ميزة من مثل هؤلاء المرتزقة.

فى محطة اورستريتز، حملانى إلى مكتب صغير خلف منافذ التذاكر، ثم تركانى أنتظر ساعة كاملة، وفى خلال كل هذا الوقت، ظلا أمام الباب يشعلان السجائر ويتبادلان نكاتهما، فظننت أننى سمكة صغيرة فى يد رجلين قويين للغاية يرتديان زياً موحداً، ويحملان أصفادهما ومسدسيهما

(41) إحدى مدن الجنوب الفرنسية وتتميز بكننتها المختلفة فى تنغيم الأصوات عن اللهجة

الأوتوماتيكيين، ولكن ربما كانا يعتقدان أن ما من شيء عديم المغزى فى الحياة، وأن هناك أناس يحبون الاعتقاد فى ذلك.

وصل رئيسهما، أراد أن يستجوبنى، فجلس بالقرب من وجهى،

وقال: "ما اسمك؟"

- ليلى.

- هل أنت بالغة؟

- لا أعرف، نعم، لا، ربما.

- أين أبوك؟

- فى أفريقيا.

وهنا ساءت الأمور، وكان رئيس المكتب قصير لا شأن له، يدعى كاستور، وكان ذلك على الأرجح اسمه الذى فككت رموزه من على مظروف وضع مقلوباً على مكتبه.

- أليس معك مستندات شخصية؟

كانت المخاطبة بصيغة أنت علامة على الانفعال؛ وحتى أهدأ الموقف، طرأت على فكرة طيبة، فقلت له: "يمكنك أن تستدعى محاميتى"

- أتريد أن أصفك صفقة؟

لم يكن ذلك بمثابة الوسيلة المثلى لتهدئتهم، فقلت: "حسناً، هى ليست بحق محاميتى، إنها السيدة التى تهتم بأمرى، وهى تعمل محررة".

أعجبهم قوى، فأمليت عليهم اسم ورقم هاتف بياتريس، على أنها محررة أو معلمة، فلم يكن ذلك مختلف كثيراً، ولم أرد أن يذهبوا حتى شارع جافلو، حيث كانت هناك مضايقات كافية تواجه كل من نونو وحورية، ولحسن الحظ، أننى منذ أن دخلت إلى باريس، فعلت كالفدائيين فى أفلام الحرب، نزعت عنى كل ما يمكن أن يفيد فى التعرف على هويتى.

قدّمت بياتريس على الفور فى سياراتها الصغيرة الإنجليزية، فسددت كل شئ، التذكرة والغرامة، وحتى أنها تلقت منهم وعظاً.

كانت السماء تمطر رذاذاً، وكانت ماسحة زجاج السيارة تحدث صريراً على الواقية من الريح، كما لو كانت السماء تمطر رمالاً، وقلت لبياتريس: "لن أستطيع أن أعود إلى منزلى".

نظرت إلى اللحظة، وبحثت عن شئ تجيبنى به، ثم قالت: "إذا شئت، يمكنك أن تأتى لتنامين فى منزلى، ريمون لن يقول شيئاً".

ولم يكن هناك من شئ أكثر من ذلك يسعدنى، وضعت رأسى على كتفها، فلقد كنت فى هذا المساء فى حاجة إلى أن أومن أن لى شخصاً ما فى الحياة، صديقة أو أخت كبرى.

مكثت وقتاً طويلاً فى منزل ريمون وبياتريس، وأظن أننى كنت متعبة للغاية، ولم ألحظ ذلك، لأننى كنت أغدو وأعود، ومر بى الكثير من الأحداث: رضية حورية ونونو والدروس والمشتريات وسيمون التى كانت

لدينا، والحاج الذى رحل عن الدنيا، وفجأة، لم تعد لدى القوة، كاللحظة التى تركت فيها منزل السيدة وحملنى نونو إلى شارع جافلو.

مكثت عشرة أيام فى منزل بياتريس، أو ربما شهر، لا أستطيع أن أجزم بذلك. فى خارج المنزل، كان الطقس بارداً، داكناً، أو لربما كانت السماء تثلج، فظللت راقدة على الفراش الموضوع فى جزء من المصالون يستخدم كمكتب، بينما ظلت بياتريس تنام فى حجرة نومها، وكانت هناك كتب فى كل مكان، فى كراتين وعلى الأرفف، فكنت أمضى وقتى فى قراءة الروايات أو كتب التاريخ وأيضاً الأشعار. كنت أطلع مالابرت⁽⁴²⁾، كامى⁽⁴³⁾، أندرية جيد⁽⁴⁴⁾، فولتير، دانتي، براندلو⁽⁴⁵⁾، جيليا كريستفا،

(42) Malaparte كاتب إيطالى عاش بين 1898 و 1957. من أشهر رواياته "الجلد " La peau (1949). (المترجم)

(43) Albert Camus روائى فرنسى عاش بين 1913 و 1960 من أهم أعماله الروائية "الغريب" L'étranger 1942 "والطاعون" La peste 1947. حصل على جائزة نوبل للأدب عام 1957. (المترجم)

(44) André Gide روائى فرنسى عاش بين 1869 وعام 1951. من أهم أعماله "الأطعمة الأرضية" nourritures terrestres 1902، "والباب الضيق" La porte étroite 1906 "وعندما لاتموت الحبة" Si le grain ne meurt 1920-1924. حصل على جائزة نوبل للأدب عام 1947. (المترجم)

(45) Pirandello كاتب إيطالى عاش بين 1867 و 1936. من أهم أعماله "لكل حقيقته" 1917 و "سنة أشخاص تبحث عن مؤلف" 1921. حصل على جائزة نوبل عام 1934. (المترجم)

ايفان اليش⁽⁴⁶⁾. فوجدت أنهم جميعاً يستخدمون نفس الكلمات ونفس الصفات، ولم يكن ذلك أمراً مؤثراً، ولم يكن مؤلماً، فلقد كان ينقصني فرانز فانون. حاولت أن أتخيل ما يمكن أن يقوله، وكيف كان يمكن له أن يتحدث عن الدين، وضحكته الساخرة أمام مثل هذه السخافات. كان الشعر الذى طالعت غريباً، كما لو كان ليس لمثلئ ولا يخاطبني؛ ومع ذلك، كنت أحب أن أنتقى منه الكلمات لكى أغنيها، لكى أطلقها فى الغرفة، ثم أسمعها ترتد، تتحطم إلى ألف قطعة، أو على العكس تسقط مفلطحة على الأرض كفاكهة زاهلة؛ وكنت أمسك بكراس أسطر فيها الكلمات التى كنت أعثر عليها وكذلك أطراف جمل:

طقس

ظلال

طائر القيثارة⁽⁴⁷⁾

مصقلة الفجر

يحرف

الأمواج ترتطم

طرقة السماء.

(46) Ivan Illich كاتب من أصل نمساوى ولد فى فيينا عام 1926 أنشأ جامعة حرة فى

المكسك. عُرف بمهاجمته القاسية لأنظمة التعليم. (المترجم)

(47) طائر القيثارة هو طائر به ريشتان طويلتان تجعله يبدو كالقيثارة. (المترجم)

وكان ذلك لا يعنى شئ. كانت بياتريس تعود حوالى الساعة السادسة، كانت تفتح الباب وتدخل تحمل معها نسمة من المدينة، من الضوضاء، من الدخان، وكان ريمون يأتى بعد ذلك، فكان يحمل الخمر، وكنا نتناول نحن الثلاثة فى المطبخ، فطائر حبقية وجبن، وكنت أحب أن أظل معهم، فلقد كانا أناس أمناء جداً وواضحين جداً وطيبين جداً.

أجلت لحظة التحدث إليهما عن ماجدة، فلقد قلت لنفسى أننى ما إن أتلفظ باسمها، حتى لا يكون أمامى إلا أن أنصرف، وسيعود من جديد الشارع المفتوح والناس الذين يدفعوننى وضوء السيارات ومدخل شارع جافلو المشابه لدهليز يؤدى إلى مركز الأرض.

كانا يتحدثان عن مهنتهما، فكانت بياتريس تقص ما يحدث فى يومها: صرخات رئيس عملها، المحادثات الهاتفية، مشكلات لم أفهم منها شئ، كما لو كان كل هذا العالم مشفر، أما ريمون فكان يتحدث بكلمات أحادية المقطع، وكان يتدرب فى مكتب حمامة بعيداً فى منطقة سارسيل أو فى منطقة فلرى - موراجيس، وكان مكلف بشئون الآخرين.

حاولت أن أتخيل حياة ماجدة لديهما: ماجدة فى الغرفة المدهونة باللون السورى، لها فراش بهى كله أبيض، والبلور الذى تنبعث منه موسيقى الذى يعلق فى هذا البلد فوق الرضع لتعليمهم الصبر، و ماجدة مهرولة نحو المطبخ مادة ساعديها الصغيرين نحو ريمون صائحة: "دادا"، فيقول لها: "جولى" أو "رومى". وعلى أية حال، لم تكن القضية أن يعرفا

اسمها الحقيقي، فربما ذات يوم، عندما تكبر، سأكون بالنسبة لها بمثابة خالتها، ويمكنني حينئذ أن أخبرها بالحقيقة قائلة لها: "سوف أقول لك اليوم اسمك الحقيقي، الاسم الذى ولدت به"، وربما سيقول لها ذلك جيانيكو، فقد تقابله ماجدة مصادفة فى ممر مترو، فى محطة ريموير - سيباستوبول، و يناديها حينئذ صائحا: "ماجدة، ابنة خالتي".

سماها كليز، لأن ذلك الاسم كان اسم أم ريمون، وسماها جوهانا، ذلك أن بياتريس كانت تحب هذا الاسم، وكانت تغنى لها: "هيا يا جوهانا"، وكانت فى الخامسة عشرة من عمرها أثناء حرب فيتنام كالكثير من الصبية الآخرين.

لم أعرف كم دفعا فيها، فلقد ظللت بالخارج، فى الريح، أسمع صوت السيارات المتدفقة حول الجزيرة، كانت هناك غربان فى السماء، كما حدث فى يوم ميلادى، ولكن الغربان لم تكن تصيح صيحات الهلع.

حدث كل ذلك فى هذه الفترة، وربما فعلا ذلك بسبب رحيل حورية إلى منزل السيد في، وأصبحت أعيش بمفردى، ولكى أكسب قليلاً من النقود، عُينت من قبل هيئة للبحم الصم كى أضع بطاقة على مناضد المطاعم مع حامله مفاتيح فأجمع القليل من النقود؛ وكنت أنتبه جيداً عندما كنت أمضى أضع حوامل المفاتيح فى مطاعم المركز التجارى، أو عندما كنت أمضى أستمتع للموسيقى فى محطة ريموير، ولم أكن أمر مرتين من مكان واحد قط، وكنت أتحاشى الدهاليز المهجورة والبوابات الكبيرة و لم أكن أنظر إلى أى شخص فى عينيه.

كنت أعرف العصابات من بعيد، حيث كانوا يشكلون مجموعات صغيرة فى الشارع بجانب إيفرى أو فى جانب ميدان جان دارك، وما إن كنت ألمح مجموعة منهم، أسرع فأعبر الشوارع بين السيارات وأختفى فى الجانب الآخر، كنت سريعة وماهرة جداً، وما من أحد كان بوسعه أن يلحق بى. وفى بعض الأحيان، كان ينتابنى إحساس أن هذه هى الغابة، أو الصحراء، وأن هذه الشوارع عبارة عن أنهار، أنهار كبرى من الماء المغلى الذى تغرس فيه الصخور، وأننى القى بنفسى من صخرة إلى أخرى وأنى أتراقص. كانت ضوضاء منبهات السيارات وغطيط المحركات تأتى من تحت الأرض وتصعد عبر ساقى، ثم تملأ أحشائى. وبالرغم من ذلك لم أرى هذا الرجل وهو يتقدم إلى؛ فعلى الساحة الكبرى التى مسحتها الرياح وأضاءتها الفوانيس، كان يبدو طبيعياً ككل الناس، فى واقى المطر وقبعته العسكرية، وكانت يده فى جيوبه، وكان وجهه أشهب، وكنت آنذاك منهمكة فى حصر النقود التى جمعتها من مطعم الفيتناميين، مائة أو مائة وخمسين فرنكاً، فى بضعة دقائق، دون أن أفعل شئ سوى وضع حوامل المفاتيح على حافة كل منضدة مع بطاقة تدل على أننى صماء بكماء.

فى اللحظة الأخيرة، رأيت نظرتة لى، ثم انتابنى خوف لأننى عرفت من قبل عيون هابيل القاسية الثاقبة حينما تبعنى إلى مغسل الثياب، ولكن كان قد فات الآوان، فمسكنى من قبضتى يدى وشدنى بقوة هائلة دون أن يقول كلمة. على الأرجح أنه راقبنى، ثم جاب المتاجر حتى يعود ويجدنى فى

المكان الذى كان يرغب أن يجدنى فيه، فى حائط التقوية، الواقع بين جدار
البرج والتاجر المغلقة.

أردت أن أصرخ، ولكنه دفع يده على جوفى ولكنى كما لو كان
يريد أن يكسرنى إلى جزأين، وفقدت النفس وانهرت وأصبح ساعدى وساقاى
عديمى الحركة. كان هذا أمراً غريباً لأننى مع ذلك كنت أعلم ماذا سيحدث
لى، كنت خائفة القوة كما يحدث للإنسان لحظة الكابوس. نزع أزرع بنطالى
الجينز بإحدى يديه، فلقد كان قوياً ومهراً، وباليدين الأخرى مسكنى من
الخلف فى مواجهة حائط التقوية، وأتذكر أننى شممت البول، وكانت هناك
رائحة مفزعة هاجمتنى، وجعلتنى أتقيأ، وأبان عن نفسه وحاول أن يفعل
بى وهو يدفع كليتيه، وكان تنفسه يحدث صوتاً، فيرن فى زاوية المبنى.

لا أعلم كم من الوقت استغرق هذا الأمر، ولكنه بدا لى وكأنه أبدى:
هذه اليد الموضوعة على صدرى، وهذه اللكمات الموجهة إلى جوفى، وأنا التى
لم يكن بوسعها التفكير ولا التنفس. وكان يبدو لى أن هذا لن يبلغ نهايته
مطلقاً. ثم انسحب الرجل، وأظن أنه لم يفلح لأننى كنت قصيرة بالنسبة له،
أو لأن شخصاً ما قد ضايقه، فرحل بسرعة، وظللت أنا فى الركن، وكنت
مثلجة وواهنة، وكنت أنزف دماً على الأسمنت. هبطت السلم حتى الشارع
وعدت إلى الكهف، سخنت مغلاة ماء حتى أغتسل فى حمام رضيعة حورية؛
كان كل شئ ساكناً ومختنقاً، وكان يبدو لى أننى صماء تماماً فى هذه اللحظة،
ولم أكن أعلم أين كنت، واعتقد أننى تقيأت فى الحمام فى نهاية الممر، وأظن

أننى صرخت، فتحت باب الإنقاذ وصحت فى النفق، وأنا أزار حتى يصعد ذلك إلى أعلى الأبراج ولكن لم يسمعنى أحد، فلقد كانت هناك محركات تهوية، تنطلق الواحد بعد الآخر مع رجة كرجة طائرة، فابتلع ذلك كل صراخى. فكرت فى سيمون، فلقد كانت لدى رغبة محمومة فى رؤيتها وفى أن أكون بجوارها وهى تردد مقطعاً موسيقياً، ولكننى كنت أعرف أن ذلك أمراً مستحيلاً، وأظن أننى غدوت بالغة فى هذه الليلة.

كان أمراً طيباً أن أكون نائية عن كل شئ فى منزل بياتريس، فمِنذ وقت طويل لم يحدث أن كنت فى مأمن دون تفكير فى الغد، ودون هموم، وكنت أفعل ما أريد أن أفعله فى الشقة، فى ترتيب الأشياء بهدوء، فى مراقبة الرضیعة مثلما كنت أفعل عندما عادت حورية من المستشفى، مع وجود فارق وهو أنه فى منزل بياتريس، كان هناك الضوء والشمس، وكان الطقس رائعاً ولم يكن هناك ما تُخشى عقابه؛ وكانت نافذة البهو تطل على فناء داخلى صغير حيث ينبت شجر اللبلاب، وكان ورق الشجرة ملئاً بعصافير الدورى، حتى أننى ذات صباح، وجدت دورياً على حافة النافذة، وكان مغشياً عليه، وكان ريشه مشعث، فأخذته وسميته هارى، ثم أخذت كرتونة أحذية من الدولاب الخشبى، ومن القطن صممت له عش أملس، ثم وضعته فى غرفة الرضیعة بجوار فراشها؛ وكان ذلك أمراً يدل على عذوبة وحنان، كما لو أننى لم أرى شيئاً رديئاً فى الدنيا، وكما لو لم يكن هناك عصابات ولا عسكر ولا فتيات مقهورات ولا شيوخ يموتون من الجوع فى

أخواهم القذرة ذات المصارع المغلقة. أعددت قارورة الرضاعة للكبير، أو لجوهانا - وكنت أفضل هذا الاسم الأخير - ثم أخذت بعض قطرات الحليب الساخن كي أمزجها بباطن الخبز.

فى علبه الأحذية، كان هارى مبللاً، ولكن ريشه بدأ يجف من الماء، وكان ينظر إلى وأنا أضع كرات الخبز أمامه دون أن يتحرك، عدا عينه السوداء التى كانت تبرق، ثم أعطيت قارورة الرضاعة لماجدة - لم يكن بوسعى حتماً أن أنسى اسمها الحقيقى - وفى اللحظة التى انتهت فيها الرضیعة من تناول الحليب، بدأ العصفور يزقزق ويحمم فى العلبه.

لا أعرف إن كان قد أفلح فى التهام قطعة الخبز الصغيرة أم لا، ولكن درجة الحرارة المناسبة فى الغرفة الصغيرة أنعشتة كلية، وبعد ذلك بلحظة طار، وأخذ يقرقع خشب النافذة؛ ومن الجانب الآخر فى أوراق الشجرة، كان رفاقه الصغار يطيطون فى كل اتجاه وينادونه، مما جعلنى أفتح النافذة ليفر على الفور؛ وفى خلال ثانية رأيتة يختلط بعاصفير الدورى الأخرى، كانوا يتزوبعون كأوراق فى الريح، وبعد مرور لحظة من ذلك، أختفى هارى معهم.

بينما كنت أمد قارورة الرضاعة إلى جوهانا، رأيت المفتشين فى الأسفل فى الشارع، كانوا يرتدون ملابساً على نهج كل الناس: وقاء مطر وسنرة وأحذية تزلج، ولكننى عرفتهم جيداً، فقلد كان لى حاسة تجاه هذا الصنف من الناس؛ وكانوا ينظرون نحو نوافذ المبنى كما لو كانوا يسعون

للرؤية من خلال الستائر، ثم دخلوا إلى المبنى، ومن الجائز أنهم طرحوا أسئلة على البواب البرتغالي الذي لا يحبني، ثم دقوا جرس الباب بشكل مستمر، فصيح دقهم للباب جوهانا، وكان دقهم يرن في أعماق رأسي كصيحة حشرة.

لم أتحرك من مكاني حتى رحلوا، وكنت مضطربة، ولم يكن بوسعي أن أظل دقيقة واحدة أكثر من ذلك في المنزل، ومع ذلك لم يكن بوسعي أن أترك جوهانا بمفردها تصرخ في مهدا، حينئذ بحثت عن رقم هاتف بياتريس في جريدتها، وكنت مضطربة إلى حد أنني وضعت سماعة الهاتف على أذني الصماء، ولم أكن أسمع شيئاً مما يُقال، وكنت أكرر كلماتي كالبعغاء: "بياتريس، من فضلك، عودي فوراً، من فضلك، عودي فوراً، الأمر عاجل، من فضلك يا بياتريس"، وفي اللحظة التي دلفت فيها أغلق الباب، دق جرس الهاتف، وبوضعي للسماعة على أذني السليمة سمعت بياتريس تقول لي: "ليلي، ماذا يحدث؟"، فقلت لها أن تعود، لأنه ينبغي عليّ أن أرحل، وكنت في هذه اللحظة هادئة للغاية، فوضعت سماعة الهاتف قبل أن تطرح عليّ أسئلة أخرى؛ ثم نامت الرضيعة جوهانا، وحينئذ مشيت في الشوارع نحو محطة أوسترليتز.

عدت إلى شارع جافلو، وعندما سرت في النفق الطويل حتى باب مبيت السيارات حيث طُلّي رقم 28، كان قلبي مقبوضاً، فلقد بدا لي أنني لن يمكنني أن أعيش في هذا المكان، وأن حياتي لا بد وأن تكون في مكان آخر،

لا يهم أين، بل أنه ينبغي أن أرحل وحسب؛ وكان جيانيكو يقول مثل قول هذا "أتعلمين، فى بعض الأحيان، ينبغي على أن أفر، فالأمر أقوى منى، وبعد ذلك، ربما أعود، ولكننى إذا بقيت هنا، فسوف أقتلك وأقتل نفسى"، وفى هذه اللحظة، أدركت ما كان يعنى أن يقوله.

فى شقتنا، لم يتبدل شئ، كنا نختنق من جهاز التدفئة الذى كان يرهق شركة الكهرباء حتى الموت، ولاحظت أن نونو جلب أجهزة جديدة، أجهزة تلفاز، أجهزة عرض مرئية، تسجيل كبير، وكانت هناك أيضا دراجة نارية جديدة، حمراء اللون مقعدها فى لون جلد الحمار الوحشى، ولم أدرك لماذا كان لدى إحساس أننى أدخل آنذاك إلى منزل أطفال، وأعطانى ذلك رغبة فى أن أضحك وأبكى فى آن واحد.

على الفراش وجدت مظروفاً يحمل اسمى، ولم أكن أعرف الكتابة الأنبيقة الكلاسيكية، وكان مدوناً عليه: "إلى الآنسة ليلسى، باريس"، فتحته ولم أدرك الأمر على الفور، وكان ذلك جواز سفر باسم ماريما مافوبا.

كان الكهف خالياً، فلم يعد هناك أى أثر لحرورية ولا لبسكال مالكة، ولم يكن مهدها هناك، فأحدث ذلك الأمر فى شيئاً ما، حتى ولو أننى أدركت فى أعماقى أنها رحلت من أجل شئ أفضل من هذا المكان وأنها من الممكن ألا تعود.

فى جواز السفر، فى موضع الصورة، كان هناك خطاب، وتعرفت على خط حكيم الردي، فلقد كنت أجد مشقة دوماً فى مطالعة محاضراته.

ما كان يقوله فى الخطاب كان سهل الفهم، ومع ذلك فلقد قرأته
واعدت قراءته دون أن أفهم: "عزيزتى ليلى
قبل أن يرحل جدى، كان قد وضع جانباً جواز السفر لك، وكان
يقول أنك كابنته، وأنت التى تستحق جواز السفر هذا، حتى تذهبين إلى
حيثما تريدن، كالفرنسيات، لأن مارىما لم يكن لديها الوقت لتستخدمه؛
ستفعلين ما تريدن، أما بالنسبة للصورة، فإنك تعلمين أنه بالنسبة
للفرنسيين كل السود متشابهون.

أردت أن أراك قبل أن أرحل، فلقد قررت أن أحمل الحاج إلى بلده
على الرغم من كل شئ، ولقد اقترضت من البنك من أجل دراستى، وهو ما
يفيدنى فى ذلك الأمر، إن الأمر ينطوى على خسارة لأنك لست معنا حتى
نذهب إلى منزل جدى فى ياما؛ ولكنك الآن وبحوزتك جواز السفر هذا،
يمكنك أن تذهبي إليها فى يوم ما، وسوف أشرح لك أين يوجد قبره. أعانقك.

حكيم "

عندما علمت الأمر، أحسست بالدموع فى عيني، ولم يحدث ذلك
منذ موت لالا أسماء، فلم يقدم لى أى إنسان هدية مماثلة، اسم وهوية. وكان
ذلك بمثابة أمر يجعلنى أفكر فيه، هذا العجوز المكفوف الذى كان يضع برفق
أطراف أنامله المستهلكة على وجهى وعلى جفونى وعلى وجنتى. ولم يخطأ
الحاج ولو لمرة واحدة، فإذا كان يلقبني بماريما، فلا يعنى ذلك أنه فقد

صوابه، بل كان ذلك ما أراد أن يفعله أن يمنحني اسماً وجواز سفر وبالتالي حرية في السير.

أدركت أن فصل الربيع لم يكن ببعيد عندما أخذت أشجار المركز التجارى فى الأزهار، فلقد كانت هناك أشجار غريبة صغيرة غرسها الفيتناميون، أشجار خووخ، أشجار كريس، أشجار دُراقن قديمة، تلك التى كانت تتدثر بزغب أبيض أو وردي؛ وكانت السماء دائماً شهباء وممطرة، ولكن النهار أصبح أكثر طولاً، وكانت كرات المطر الهشة تدخل السعادة على قلبى.

منذ أسابيع لم أعد أمرف أخباراً عن نونو ولا عن أى إنسان، ولم أعد أذهب إلى محطة ريومير - سبستويول لكى أستمع إلى موسيقى الجامبه. هتفت إلى سيمون، ولكننى لم أجد على آلة الرد الهاتفى سوى صوت الطبيب جوييه، الصوت الأنيق المُحتقر الذى كان يرعشنى، فلم أترك اسمى على الآلة. وبمفردى فى الكهف، كنت أسمع، أحياناً فى الليل، طقطقات الديزل أمام الباب، فكان قلبى يندق بشدة لأننى كنت خائفة، ولكن خوفى كان فى خيالى.

جاء نونو ذات ظهر يوم من الأيام، ولو كان قد جاء بعد ذلك بقليل، ما كان لى أن أتعرف عليه، فلقد كان حليق الرأس، وكانت له نظرة غريبة، قلقة، جانبية لم أكن أعهدا عليه. قدمت له الطعام، فطائر محشوة بالجبن والتى كان يحبها، وتفاح رمادى أحمر، وخبز من نوع نيتلا. ظننت أنه سوف يقص علىّ ما فعله وأين كان، لكنه لم يقل شيئاً، فقد تناول الطعام على عجل،

وارتشف أكواب كبيرة الحجم من الكوكا؛ وكانت هذه هى المرة الأولى التى أراه فيها غير معتنى بذقنه، فكسنت هناك شعيرات تنتفش على وجنتيه وذقنه وشفته العليا، فقلت له: "أكنت فى السجن؟"

فلم يجب، ثم أشار بنعم عن طريق رأسه، وما إن فرغ من تناول الطعام، رقد على فراشه، واضعاً رأسه بين زراعيه، ثم نام فجأة.

كنت فى حاجة إلى الإحساس بحرارته، منذ أيام وأنا أعيش بمفردى فى الكهف، دون أن أتحدث إلى إنسان، كنت فقط أستمع إلى الموسيقى على مذياعى القديم ذى البطاريات. رقدت بجانبه، ووضعت زراعى حوله، ولكنه لم يستيقظ، وظللنا ساعات هكذا دون أن نتحرك، كنت أسمع تنفسه؛ وحاولت أن أخمن أين ذهب أثناء كل هذا الوقت، ولا أفعل شئ سوى أن كنت استنشق رائحته من عنقه ومن ظهره؛ وعندما استيقظ، تضاجعنا فى هدوء، مثلما فعلنا المرة الأولى. وقبل أن نفعل، مضى يبحث عن واقى فى جيب قميصه، وهو الذى أراد أن يضع هذا الواقى وليس أنا، وأظن أننى لم أكن حتى قد فكرت فيه. ولا فى المستقبل، ولا فى الأطفال، ولا فى المرض.

ثم ذهبنا سوياً على سقف البرج متخذين الطريق السرى: المصعد حتى الدور الواحد والثلاثين، ثم باب إطفاء الحريق، ثم السلم وسلم رجال الإطفاء الصغير. كانت السماء تقتطع مربعاً أزرقاً من الفولان فوقنا، كنا فضاء لا متناهى، وفى هذه اللحظة، أدركت أنه على أن أرحل.

على سطح الأرض، كانت الرياح تهب على كبلات الأعمدة وأعمدة التليفونات، فتحدث صوتاً غريباً هنا في وسط هذه المدينة النائية جداً عن البحر، على الرغم من سير السيارات البطيئة للغاية أسفل المبنى في شارع إيفرى العريض باتجاه بلاس ديتالي، وإلى أبعد من ذلك على الأرصفة أو على الطريق المحيطي، والذي كان سيرها في أفواج رائعاً للغاية كمد البحر حين يصعد الجرف. وفجأة شعرت بالخواء الذي كان بمثابة رغبة تصعد فيّ فتؤلنى، وكان ذلك بسبب البحر، فمنذ زمن بعيد لم أعد أسمعه، وكان ذلك شئ يدعو للدوار، سرت حتى حافة السقف، مائلة تجاه الريح، كما لو كان بوسعى أن أرمق البحر هناك، ولحق بى نونو، ولم يكن يدرك الأمر فقال: "ماذا تفعلين؟ أمجنونة أنت؟ أتموتين؟"، فظننت حينئذ أنه ربما كان الأمر كذلك عندما يقفز الإنسان من النافذة لأنه يعتقد أنه سيجد البحر تحته. تعلقنت بنونو قائلة له: "ضمنى إليك، ضمنى بقوة يانونو، إننى أشعر بالألم"، وأجلسنى أمام مربع محرك المصعد بعيداً عن الريح، وكنت أرتعش من البرد ومن الإضاءة، فنزع نونو عنه قميصه الجلدى القدى ووضعه فوق ظهرى، وقال فى بساطة: "هاكى ياليلى، سأعطيه لك، هكذا ستفكرين دائماً فى"، وكان وجهه أملساً ومنبسطاً، ورأسه كبيرة الحجم إلى حد ما، كرأس القزم، ولكن عيناه كانت رقيقة، سوداء جداً وحانية جداً. ظننت أنه أدرك أننى سأرحل، وربما أدرك هذا الأمر قبلى، ولهذا السبب جاء إلى.

كل شئ سيتغير الآن، كان ذلك بمثابة لحظة تُختم، كنت على
السقف فى الطابق الثانى والثلاثين إلى أعلى، أعلى السلم الصغير، كنت أسمع
الريح وعيناي تزرغان الدمع من كثرة زرقة السماء كالمرّة الأولى التى وصلت
فيها إلى هنا وحملنى نونو إلى هذا المكان.

على المنضدة التى كنت أعمل عليها وإجابات الفلسفة للأستاذ
حكيم، كان هناك خطاب وكيل الدائنين الذى جاء فيه أنهم اكتشفوا تزويراً
فى عداد الماء وكيلوواتات مسروقة دون أى تبرير، وأن البحث جارى، وأن
المجرمين سيُكتشف أمرهم وسيتم طردهم ومعاقبتهم كما ينبغى. تركت
الخطاب فى مكان واضح حتى يكون نونو على علم به، وصفت الباب
الحديدى لرقم 28 بشدة حتى أن الصوت ارتفع إلى قمة البرج.





استقلينا القطار المتجه إلى مدينة نيس، واستخدم هنا ضمير الجمع، ولكنني في الواقع، كنت بمفردى التي كان معها بطاقة سفر. صعد جيانيكو معي إلى عربة القطار، كما لو كان سيودعني، ثم تسلل في العربة، ومكث في حاملة الحقائب، فعل هذا ليمزح لأنه في الواقع لم يكن في حاجة إلى ذلك، فلقد كان يعرف كيف يراوغ مفتشى القطار وكان ذلك الأمر بمثابة مهنته.

لم يكن هناك سوى ثلاثة أشخاص في العربة، اثنان في الأسفل، وأنا في عربة النوم إلى أعلى، وبقيت للحظة طويلة في ممر العربة أشعل السيجارة بعد الأخرى، ناظرة إلى الأضواء تتراجع إلى الخلف؛ ثم هبط

جيانيكو من مجثمه، ولم يقل شيئاً. ولقد رأيت أن الصفعة التى تلقاها على وجنته تحول موضعها إلى اللون الأزرق - الأسود، وكنت قد فكرت أنه بإمكانه أن يرحل معى عندما علمتُ أن زوج أمه صفعه.

لم أعد أعرف من منا كان صاحب فكرة الرحيل فى البداية، ربما كان هو، فمن فرط تكراره للجملة: "فى يوم ما، سأهشم نفسى"، جاء هذا اليوم.

حدثنى جيانيكو عن خاله فى مدينة نيس، شقيق أمه، رجل يدعى رامون يورسى. ولكى يمكنه الصعود فى القطار، كان ينبغى عليه أن يكون فى صحبة شخص آخر، ومعى كان أمره يسيراً، ولكنه بأى وسيلة، كان سيسافر، فكان بوسعه أن يبحث عن شاحنة كبيرة فى رنجيس⁽¹⁾ أو فى محطة خدمة سيارات.

ولقد سبب رحيلى شيئاً ما فى نفسى، فمنذ وقت طويل جداً وأنا أقيم فى مدينة باريس، وكنت أشعر أننى أقيم بها منذ سنوات وسنوات، حتى أننى لم أعد أتذكر جيداً متى وصلت فى محطة اوسترليتز مع حورية. ولقد مرت بى أحداث كثيرة، حتى أننى أشعر بنفسى عجوزة الآن، ليس عجوزة بحق، ولكننى مختلفة، أكثر ثقلًا من خبرتى. والآن لم أعد أخاف من

(1) Rungis منطقة بأحد ضواحي باريس مخصصة لتلقى وبيع البضائع بالجملة حيث تُحمل إليها شاحنات كبيرة من مختلف المدن الفرنسية ومن بعض البلاد الأوربية.

نفس الأشياء التى كنت أخاف منها، فأستطيع أن أنظر إلى الناس مصوبة
عيني إليهم وأستطيع أن أكذبهم وأواجههم أيضاً، وأستطيع أن أقرأ أفكارهم
من أعينهم، وأستبطن نواياهم وأجيب عليهم قبل أن يكون لديهم الوقت
ليطرحون على سؤالاً، وأستطيع أيضاً أن أعوى كما يعوون بإتقان.

ولكننى لم أعد أستطيع فعل ما كنت أقوم به فى السابق على
الأرجح، فلا أستطيع أن أسرق فى متجر كبير، أو امضى وراء شخص ما
وتخيل أنه من أسرتى، وأتعقب شخصاً ما فى الشارع وأقول أنه حبي الكبير.
وأدركت أن مارتىال أو هابيل أو زهرة لا يمثلون خطراً، إنما
ضحاياهم هم الذين يشكلون خطراً لأنهم مستسلمون.

عرفت أن الناس لو كان لهم الخيرة بينك وبين سعادتهم،
لاختاروك أنت.

عند مدينة ليون، كنت متعبة للغاية، فصعدت على مقعد النوم
الذى يعمل بنظام اللمس. كانت المرأة التى ترتدى ملابساً وردية اللون تنام فى
الطابق الأرضى من عربة القطار، ورأيت فى الطابق الأول رأس الأسبانية
المستديرة التى كانت تلمع فى ضوء المحطة، وسميتها بالأسبانية لشعرها
وعينيها الشديديتى السواد، وظننت أنها ستقول لى شيئاً، ولكنها اكتفت
بتفحصى دون أن تحرك رموشها ودون أن تبتسم لى. أما جيانيكو فقد تمدد
على مقعد النوم وكان يغط تقريباً، وكان يفوح منه عرقه وملابسه القذرة
بشكل لافت للنظر، فكان الأمر وكأننى أنام بجوار متشرد، دفعته نحو حائط

العربة، ولكن اهتزازات القطار كانت تدفعه نحوى بلا توقف ؛ ثم خلصت إلى النوم ينتابنى نعاس ثقيل، تقطعه ومضات الضوء وصوت عجلات القطار على شريط السكة الحديد.

ثم انتشلنى جيانيكو من فتورى، فلقد هبط من مرقدّه دون أن يحدث أى صوت، متعلقاً بالسلم الصغير كالقرد، ثم قال لى فى أذنى حتى لا يكون عليه أن يصرخ: "تعالى، يا تاتا ليلى، تعالى كى ترين"، فخرجت تحسناً، وكان الضوء خافت فى عربة القطار، وكان الطقس حاراً، كان هناك رائحة نسمة، وفى ممر عربة القطار، كانت النافذة تقطع زاوية تحجب الروثية، وكانت المنازل وأبراج الأسلاك الكهربائية المتاخمة للبحر تجعله يتلألأ فى أشعة الشمس، وكان القطار يتعرج على طول الساحل ويتخطى الأنفاق، ويخرج منها، أما البحر فكان حاضراً دوماً، لامعاً فى الشمس، فى لونه الأزرق الفاقع إلى حد أن عينى تغرغرت بالدموع من النظر إليه.

كان جيانيكو يرقص فى مكانه، فلقد كانت هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها البحر ؛ وعندما جاء من رومانيا، حمله القطار، هو وأمه وأخوته من تيميزورا، مباشرة دون أن يتوقف، إلا لعبور الحدود عبر الحقول بين ألمانيا وفرنسا، ثم لحقوا بمعسكرات البوهيميين.

من آن إلى آخر، كان يلتفت نحوى بابتسامته العريضة والتسى كانت تجعل أسنانه تلمع وسط وجهه الداكن، ليقول، "أترين ؟ أترين ذلك؟"

هبط الناس من القطار بعضهم تلو البعض الآخر، في كل مدن الساحل، اجيه، سان رفاثيل، كان، أنتيب، حتى صرنا بمفردنا في العربة قبل الوصول إلى مدينة نيس؛ وكان القطار يسير على طول شاطئ طويل من الحصى الأملس، يتبعه طريق حيث تسير السيارات بنفس سرعة القطار، وكانت هناك أمواج تتدفق بانحراف، وطيور نورس تطوف فوق البالوعات، وكانت الشمس تلمع عبر الزجاج، وكان يبدو لي أنني استيقظت، أو نهضت من حلم طويل، كما ينهض الإنسان من مرض.

ودون أن نترك موقعنا في ممر العربة، أخذنا الإفطار الذي حملته من باريس، برتقالات (مغربية) وشرائح خبز بائنة مبطنة بقرشرة من الشيكولات، ولم يكن بوسعنا أن نتناول لحم الخنزير لأن ذلك كان محرماً بالنسبة لي، أما جياننيكو فكان يقول أن لحم الخنزير لا يُعد طعاماً للإنسان، وأذكر أنه ذات مرة ونحن نناقش هذا الأمر، قال لي - ولا أعرف من أين أتته هذه الفكرة - أنه من الممكن أن يجعلوك تأكلين لحم البشر قائلين لك إنه لحم الخنزير، وربت على مؤخرته حتى يبين ما كان من أمر ذلك.

كانت مدينة نيس جميلة كما تخيلتها، مدينة جميلة بيضاء في قلبها العادية وقلبها البصلية، وكان هناك الكثير من الحمام والشيوخ، وكانت هناك الشوارع الكبيرة المحاطة بأشجار الدُلب⁽²⁾ والمكتظة بالسيارات

(2) الدُلب هي شجرة للزينة يكثر غرسها على أطراف الشوارع الفرنسية. (المترجم)

حتى على الأرصفة، وكان هناك الكثير من العرب، ومع هذا فلم يكن هذا المكان يشبه أفريقيا، ولا حتى أسبانيا.

كانت مدينة يسعد الإنسان فيها، ويحلم فيها، ويتنزه فيها كما كنا نفعل نحن أنا وجيانيكو مشبكين أيدينا كأخ وأخت.

كان الناس ينظرون إلينا باستغراب لطريقة سيرنا وملبسنا، فكنت أرتدى قميص نونو السففى وبنطالاً وحذاءً ماركة "تكس مكس"، وكان جيانيكو يرتدى بصفة دائمة ثيابه الرثة الفضفاضة وقمصانه الثلاثة الصغيرة ذات الألوان المختلفة والتي كان يضع الواحد منها فوق الآخر على جسده، القميص الأكثر اتساعاً فى الأسفل، ثم الأكثر صغراً، ولكن الأكثر عرضاً، ثم فوقهما قميص مخطط بألوان أزرق - أبيض - أحمر ووردى، وشعره الكث المجعد الأسود، وطالعه النحاسى اللون كالهنود؛ ولم يكن معنا حقائب، إلا حقيبة صغيرة كانت معى وكنت أضع بها مذياعى القديم، وأشياء صغيرة خاصة بالسيدات وكتاب فرانز فانون الذى كنت أحبه.

كان الطقس رائعا إلى أقصى حد، حيث سرنا النهار كله، بلا هدى، على طول البحر، وفى شوارع المدينة القديمة، وأيضاً فى التلال المليئة بالحدائق القديمة. لم يكن يعرف جيانيكو أين يقيم عمه رامون، لم يكن معه سوى اسمه وعنوانه الذى كان مدوناً بشكل مائل على مظلوف هكذا: رامون

يرسو

معسكر إيواء كريما

فى الظهر، تناولنا مرة أخرى خبزاً وشيكولاته على شاطئ البحر
 الملى بالحصى والذى كان يُحاط بغيمة من طيور النورس، وكان جيانيكو
 كالكلب صغير، يجرى متعرجاً على طول البحر، وكان يرتدى على الحصى
 وسط طيور النورس، ويؤدى حركات جنونية كثيرة من هذا النوع، ولم أره
 مطلقاً هكذا، ففجأة، بدا عليه أنه طفل بحق، لقد أصبح طليقاً، ولم يعد يفكر
 فى مستقبله ؛ وأنا أيضاً، لم أعد أفكر فيما يمكن أن نفعله، أين نرقد، وما
 يمكن أن نأكله هذا المساء. رميت لطيور النورس آخر قطعة خبز كانت لدينا،
 فلقد كانت هذه القطعة جافة لحد ما، ولو كان بوسعى، لألقيت بحقيبتى
 الصغيرة الزرقاء فى البحر بكل ما تحوى، ولم يمننى المذيع ولا كتاب
 فرانتز فانون، فالمذيع ما هو إلا علبة للموسيقى والكتاب يمكن أن يُستبدل،
 ولكن ما مننى، على الأرجح، هو المظروف الذى يحوى جواز سفر ماريما
 وخطاب حكيم الذى حرره لى قبل أن يحمل جده إلى ياما على نهر الفاليميه.

أمضينا كل شهر مايو فى مدينة نيس دون أن نفعل شيئاً سوى
 الذهاب صباحاً إلى مكان إخلاء الشاحنات، وإلى الشاطئ بعد الظهر، ثم
 التسكع فى شوارع المدينة القديمة.

فى البداية، كان الأمر صعباً بالنسبة لنا فى المعسكر، فلقد كان نائياً
 عن كل شئ، ويقع فى الشمال، فى الوادى، ويبعد عن الضواحي وعن أعمدة
 الطريق السريع، وكان يشبه دوار تهريكة إلا أنه كان فى التلال، بعيداً عن
 البحر، فى التلال الوعرة، العارية، حيث تهب الرياح فى زوابع وحيث

يكون للثرى طعم الأسمنت، فلقد سُيدت المدينة إلى الأسفل من المكان الذى تفرغ فيه الشاحنات، وكانت المنازل صغيرة مبنية من الأحجار المطلية باللون الوردى وأستفها من القرميدة، وهو نمط بروفانسى⁽³⁾. كان هناك فى المجمع حوالى خمسين منزلاً صغيراً، وأتخيل أنه فى يوم الافتتاح فى حضور ممثلين عن السيد رئيس الشرطة والسيد العمدة والمدير الإقليمى للمساكن ذات الإيجار المعتدل، كان المشهد رائعاً وممتعاً، ولاسيما إذا لم يُركز على حفر مكان تفرغ الشاحنات. ولكن بعد مرور سنوات، أصبحت مدينة الصفائح شبيهة بالمدن الأخرى، فلقد طُبِع دخان المرامد على الحوائط، وزخرفت الأوراق والحقائب البلاستيكية على ساحة الخط الحديدى، وغدت الشوارع طرقاً مصدعة بالأخاديد الطينية.

ما كان طبيباً فى هذا المكان هى المخيمات، حيث كان أمام كل منزل صغير، مخيم أو اثنين للرحالة، وكان بعضها مبنى من الطوب الأحمر ؛ وفى إحدى هذه المخيمات جعلنا رامون يرسى نقيم مع أبنائه الثلاثة والذين كانت أعمارهم فى عمر جيانيكو أو أقل منه سنّاً، مالكو، جورج وإيفا. فى المساء، كنا نبسط حقائب النوم والغطاء، وكنا ننام حتى على خشب الخيمة ملتصقين بعضنا ببعض الآخر حتى لا نشعر بالبرد.

كان رامون يرسى رجلاً فارغ الطول، قوى البدن، شعره وأهدابه شديدة السواد، وكان يعمل بالمقطوعية فى ساحة التعمير، وكان يتحدث

(3) ريف فرنسى يميل إلى ارتياد طابع شبه خاص فى العمارة. (المترجم)

الفرنسية بصعوبة بالغة، وقال لى جيانيكو أنه لا يتحدث الرومانية أفضل من حديثه بالفرنسية، الخلاصة أنه لم يكن يتكلم. فى المساء، عندما كان يعود من العمل، كان يجلس على طرف الفراش فى حجرة المنزل الوحيدة، ثم يشاهد التلفاز وهو يدخل الغليون.

عندما شاهد جيانيكو يأتى إليه، لم تبدو عليه الدهشة، فربما كان يراقبنا وأن أحداً قد أخطره بذلك. كان رامون يرسى يعيش فى منزل صغير مع امرأة فارعة شقراء بشرتها حمراء، تُدعى الينا، وكانت إيفا ابنتها، أما جورج ومالكو فكانا من امرأة أخرى هجرها رامون.

فى الصباح، فى ساعة مبكرة، كنت أذهب مع جيانيكو والفتيان إلى مقر تفريغ الشاحنات، وكان جيانيكو يسمى ذلك "عمل".

كانت عربات النقل تصل بعضها خلف البعض الآخر فى ساحة المسحق الكبيرة، وكان صبيان المعسكر يتراصون هناك من كل جانب، وما إن كانت أكوام القمامة توضع على الأرض، حتى كانوا يسرعون كالفتران قبل أن تقوم الجرافة وتحملها بين فكين من الفولاذ.

كنت قد رأيت من ذى قبل مستودعات القمامة فى تبريكة، ولكننى لم أشاهد قط شيئاً مماثلاً لذلك، فلقد كان الهواء محملاً بالتراب الدقيق اللاذع الذى كان يؤذى العين والحلق، وكانت هناك رائحة عفنة ورائحة نشارة ورائحة قتييل. كانت الشاحنات تتحرك فى الضوء الخافت، وكنا نرى فوانيس الإضاءة أو منبهات الرجوع للخلف وهى ترسل صوتاً حاداً، ومن

السقف كانت تسقط أشعة ضوئية تخط أعمدة في التراب، وعندما كان الفكان يتحركان لقص قطع الخشب والغصون، كانت الضوضاء مُصمَّة.

كان جيانيكو ومالكو وجورج يفتشون في الفتات ويحملون لقاياهم إلى: مقاعد معطلة، طناجر مبعوجة، وسادات مخروقة، ألواح خشب منتفشة من المسامير الصدئة، ولكن أيضا ملابس، أحذية، لعب أطفال، كتب. كان جيانيكو يحمل إلى بصغة خاصة الكتب، وكان لا ينظر إلى عناوينها، حيث يضعها على حائط قصير بجوارى بالقرب من مدخل الصالة، ثم يرحل ثانية مهرولاً ليفتش في شاحنة قمامة جديدة.

وكان هناك كل شيء، مجلات قديمة "رايدرز دايجست"، وأعداد عتيقة من مجلة "هيستوريا"، كتب مدرسية من فترة ما قبل الحرب، روايات بوليسية، أقنعة، أعداد من بيبليوتيك فيرت⁽⁴⁾، وردية اللون، مجموعات حمراء وذهبية، مجموعات سوداء. كنت أجلس على الحائط الصغير، في الريح، وأطالع صفحات من هذه الكتب، ككتاب "قيثارة العشب" على سبيل المثال، حيث طالعت الفقرة التالية:

"متى سمعت للمرة الأولى الحديث عن قيثارة العشب؟ قبل الخريف حيث ذهبنا نقيم في الشجرة ؛ فلنقول، ذات فصل خريف من ذى قبل، وبالنضبط، كانت دولى هي التي حدثتني عنها ؛ لم يكن هناك سواها كي تبتدع اسم مماثل كقيثارة العشب."

كنت أقرأ أى شئ، ففى جحيم تفريغ الشاحنات هذا، كان يبدو لى أن الكلمات ليست لها نفس القيمة، بل كانت قوية جداً، وكانت تدوى فى دائماً، وكنت أقرأ أيضاً الروايات التى كان يلقي بها الناس بعد مطالعتهم لها، مثل "العباءة الدينية"، "الباب المفتوح"، "الباب الذهبى"، "الباب الضيق"، ومع ذلك كانت هناك جملة من الممكن أن تقفز إلى العين وتظل مطبوعة فى الذاكرة: "لماذا نبحر ذات يوم؟"

أو هذه الصفحة الفارة من كتاب قديم، والتى رأيتها بكرة بشكل لافت للنظر وسط جبل الحثالة: السهل الفسيح أبيض

جامد دون صوت

لا ضوضاء، لا صوت، كل المدينة محترقة.

ولكنه يُسمع أحياناً، كأنه فى سهل كثيب،

كلب ليس له ملاذ يعوى فى ركن من غابة.

آه ليل العاصفير الصغيرة المفجع.

ريح مثلجة ترتعش وتهول فى الممرات.

هم، بما أنه لم يعد لهم ملاذ مظلل بالهود،

فلايستطيعون أن يناموا على أرجلهم المجمدة.

فى الشجر الكبير العارى الذى يغطيه رقاق الجليد،

يقيمون هناك، مرتعشون تماماً، من غير أن يكون هناك من شئ يحميهم.

وبعينهم القلقة يشاهدون الثلج، منتظرين حتى مطلع النهار الليل الذي لا يأتي.

وبعد ذلك، أصبحت هذه الأبيات مقطعاً محفوظاً بين جياننيكو وبيني، فمن آن إلى آخر، في الشارع، أو عندما كنا مقومعين في حقائب نومنا، على أرضية المخيم، كان يبدأ في لهجته الغريبة: "الليل المفجع للعصافير الصغيرة"، وكنت أقول: "لا ضوضاء، لا صوت"، وأظن أن هذه هي المرة الوحيدة في حياته التي ألقى فيها شعراً.

وفي كل صباح، كنت أهرول نحو مكان تفريغ الشاحنات مع الأولاد، وكان ذلك بمثابة لعبة بالنسبة لي، فكنت أتحمس لفكرة أن نجد شيئاً. كانت شاحنات القمامة تصعد وتهبط التل الصغير كالحشرات الضخمة، ثم كانت أطنان القمامة تسيل وتتبعثر وتُسحق وتدق، وكان التراب اللاذع يصعد فوق كل الوادي، ويصعد حتى وسط السماء مُنسجاً بقعة كبيرة بنية اللون في زرقة السُكاك⁽⁵⁾، فكيف لم يكن الناس يشعرون بها في بقية المدينة؟ كانوا يلقون فضلاتهم وكانوا ينسونها، وكأنها غواظهم، ولكن البودرة الناعمة كانت تسقط عليهم كل يوم كغبار الطلع، على شعرهم، وعلى أيديهم، وعلى روضاتهم الوردية. وكنا نجد من كل شئ في الفضلات، وذات

(5) السكاك هو الهواء بين السماء والأرض في الجزء الأعلى من الغلاف الجوي. (المترجم)

صباح، جاء مالكو وهو فخور تماماً، وكان يمسك فى يديه لعبة، جمل من الجلد المحاك، يمتطيه هجان فى ذى أحمر وعمامة بيضاء، واضعاً سيف فى زناره.

وكان هناك شجار أيضاً، فلقد سبتنا مجموعة من الأسبان، وكانوا فارعو الطول، فى العشرين من عمرهم، وكانوا يرتدون أقمص مشجرة، ويضعون عصاة حول الشعر، سبونا لأن مالكو وجورج كانا يتحدثان باللغة الرومانية، وقدموا ليروا ما وجدناه: عجلة دراجة، طناجر، عصى ستائر، سلك حديدى صدئ، قطع من الحديد، آلة كتابة، مطرية سوداء رائعة، حذاء، ونظروا إلى كتبى، والتى كانت عبارة عن روايات تجسس وكتاب قصائد شعرية باللغة الإيطالية لليوباردى⁽⁶⁾ أو انونزيو⁽⁷⁾، وقلب أحدهم صفحات الكتب وألقاها باذراء، ثم مسكنى من عنقى وحاول أن يقبلنى، فدفعته وقفز جيانيكو عليه وتعلق فى رقبته محدثاً به قطعاً كالمفتاح فى وجهه، ثم تشاجروا بعنف غريب، وهم يتقلبون فى الفضلات، ولكن دون صراخ، محدثين صوت (هاه) فى كل مرة يتضاربوا فيها بقبضة اليد وركلات القدم. حينئذ توقفت الشاحنات عن السير وتجمهر

(6) أديب إيطالى عاش بين 1798 و1837، من أهم مؤلفاته: "مؤلفات أخلاقية صغيرة" (1827-1833). (المترجم)

(7) أديب إيطالى ولد عام 1863، من أهم أعماله "النار" 1899 ومسرحية "المدينة الميتة" 1898. توفي عام 1938. (المترجم)

الناس لمشاهدة المشاجرة، كان مالكو وجورج يتشاجران مع أحد الأسبان، وجيانيكو مع آخر، وكنت أصبح كالمجنونة، مع شعري الأشعث الذي هيجه الريح، وقميصي الجلدى المغطى بالتراب، والحذاء الذى وجدته بجوارى على الحائط الصغير.

ثم جاء موظف يعمل فى تفريغ الشاحنات، وكان عجوز، وتلفظ بكلمات عنصرية عن السود والعرب والبوهيميين، ثم تناول آلة رش تصلح لرش نطاق كبير فى تفريغ الشاحنات ورشنا بالماء الثلج بقوة إلى حد أن جيانيكو تزحلق على ظهره كالذاموسة وحتى أن كل كتبى طارت أرباً أرباً.

هذا ما حدث لى: نافورة الماء الثلج القاسية مثل السوط مزقت كل كتبى، وبغضت هذا الرجل، وصحت: "قذر، خنزير، حقير"، ثم قذفته بهشائمي العربية التى كنت أعرفها، وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى أذهب فيها إلى مكان تفريغ الشاحنات.

وكانت هناك فى حياتى سارا، فلقد رأيتها للمرة الأولى مصادفة فى مشرب خمر فندق كونكورد فى منطقة البرومناد تقريباً، حيث أحببت هذا المكان لأننى رأيت فيه نحت لامرأة فارعة الطول، بشرتها برونزية، كانت تحاول أن تهرب من بين كتلتين من الأسمنت، فدخلت إلى صالة الفندق حتى أسأل عن شيدها، فقال لى حارس البوابة اسم النحات، سوسنفسكى، ودونه لى على ورقة، وحدث ذلك فى نهاية بعد ظهر يوم ما، ولقد تركت جيانيكو، لأنه لم يكن لائقاً فى قمصانه المقرزة المكدسة بعضها فوق البعض الآخر وشعره

المشعث، ناهيك عن رائحته. وفى نهاية صالة الفندق، سمعت صوت الموسيقى، كان ذلك شيئاً أثار فى الفضول، لأنه عامة، بسبب أذنى اليسرى، كنت لا أسمع الموسيقى من بعيد، ولكن فى هذا المكان، كان صوتها يصل إلى ثقيلًا ومنخفضاً عن طريق الاهتزازات التى تجرى فوق جلدى وفى جوفى.

سرت عبر الصالة يقودنى الصوت، وفى لحظة، دق قلبى لأننى ظننت أننى قد عثرت على سيمون، إنها هناك، منتصبه فى نهاية مشرب الخمر، تغنى أغنية "اللون الأسود هو اللون الحقيقى لبشرة حبيبى".

وحتى أنصت إليها جيداً، جلست بالقرب منها على سلم الحاجز، وعندما رأتنى، ابتسمت لى كما لو كانت تعرفنى، وأعتقد أن ابتسامتها جعلت القائم على مشرب الخمر لا يصرفنى، والذى كان ينظر شذراً لهذه السوداء الصغيرة فى شعرها الكثيف المجمع والتى ترتدى بنطالاً من الجينز وقميصاً من الجلد القدى.

سمعت كل أغانيها حتى جاء الليل. فى مشرب الخمر، كان الناس يثرثرون وهم يحتسون الويسكى الاسكتلندى، وكانت هناك ثنائيات من رجال ونساء تتكون ثم تتفرق، وكان هناك من بينهم أيضاً من كان يرقص، ولكننى كنت أرتشف الكلمات والموسيقى، وكنت أنظر إلى جسد المرأة الشابة، وثوبها الأسود يقولب جسدها، وأنظر إلى طالعها وشعرها المحلوق قصيراً.

بعد ذلك تحدثت معى، وكنت أجد صعوبة فى فهمها، وكنت أحاول أن أقرأ ما على شفيتها. فى مشرب الخمر، ارتشفت كأساً من مشروب

البيرييه معها، قالت لى إنها تدعى سارا وأنها من شيكاغو، وسمتني "الأخت سوالو"، ولا أعرف لماذا، وقالت لى: "إننى أحب لون بشرتك"، ودونت لى اسمها وعنوانها على مظروف، لأنها سترحل عما قريب، ودونت لها اسمى ولكن بالنسبة لعنوانى، لم أعرف ماذا أكتب، فوضعت عنوان بياتريس.

عاد عازف البيانو للعزف، وعادت سارا إلى منصة الغناء، وظللت حتى النهاية، حتى الليل، وجاء رجل طويل أسمر البشرة يبحث عنها، وكان يرتدى بذلة، ومعطف أخضر اللون، ووشاح أبيض وكأنه ممثل فى السينما، واصطحب سارا، فخرجت تتموج بجسدها، ومضت نحو المخرج مبتسمة لى للمرة الثانية بابتسامتها المتوهجة على وجهها الأسود، فكانت تبدو كنجمة فن، كاللهة، كحورية.

بعد ذلك، كنت أمضى إليها كل يوم، من الخامسة إلى التاسعة مساءً، وكنت أجلس فى ركنى، على حافة منصة الغناء، ولو أن نادلاً قال لى شيئاً، كان لدى إجابتي الجاهزة: "إنها أختى"، ولكنها ربما أخطرتهم بذلك، فلم يسألنى أحد عن شئ.

غفت سارا لى طوال شهر مايو، كانت هناك عواصف، وكان منظر المطر بديعاً، وأخضر البحر الرديء فأصبح رائعاً؛ وكان جيانيكو يذهب كل يوم معى على الشاطئ، أو على السد الكبير الذى كانت تشكله كتلات أسمنتية ملقاة، ولكن هذا المكان لم يكن مكاناً مناسباً لفتاة مثلى، فذات يوم كنت انتظر جيانيكو هناك، فجاء رجل، وأظهر عن نفسه، وكانت له نظرة غريبة،

تائهة ولم تكن لدى رغبة فى أن أصرخ فيه كما حدث فى السابق مع العجوز فى دار المقابر: "سر وشأنك"، كما أشار لى صيادون - كانوا يستلقون مركبهم - بحركات مخلة بالأدب، وهم يتظاهرون بأنهم يرفعون شباك صيدهم، وكانوا يتلفظون بحماقات لم أكن أفهمها، فغضب جيانيكو وصاح فيهم: "يا أولاد العاهرة، سأقتلكم"، وكان يقفز من صخرة إلى أخرى، كان يشير لهم بحركات، ويتظاهر بأنه سيلقى عليهم الأحجار.

وفى معظم الأحيان، كانت هذه التصرفات تقتلنى، فلم يكن هناك مكان هادئ فى الدنيا، أى مكان، فعندما أجد ركناً منعزلاً، تعرجاً، مغارة، مكان صغير مهجور، كان هناك دوماً شئ ما بذئ، كغائط أو متلصص. ولهذا، ففى فترة ما بعد الظهر، كنت على موعد حتى أستمع لموسيقى سارا التى كانت تداعبنى.

وكل يوم فى فترة ما بعد الظهر، كنا نتحدث فى الفاصل الترفيهى، وعلى كل حال، لم نكن نتحدث بحق لأنها لم تكن تعرف الفرنسية، إضافة إلى أننى لم أكن أسمع جيداً ما تقوله لى، كانت تضحك، وتقول كل مرة: "أختى سوالو، أحب لون بشرتك"، حتى أن تلك المقولة أصبحت لازمة لديها. كنت أمكث حتى نهاية الغناء، وكان صديقها يأتى يسعى إليها كل مساء، وكانت تمر أمامى دون أن تقول لى شيئاً كما لو كانت لا تعرفنى ولا أعرفها، وكانت عيناها تمزحان معى، وتلقى بابتسامة صغيرة تضى وجهها،

ثم تدلف متموجة نحو باب الفندق عندما يكون الليل قد حل تقريباً، فعشقت سارا طوال هذا الشهر.

فى هذا الفترة أخذت فى التعرض لضائقات من جانب صبية معسكر كريمبا، من أخوين، داني وهيج ؛ كان داني شعره بنى اللون مجعد، أما هيج فكان فارع الطول، أحمر البشرة، وكنت ألقبهما بالهنود، نظراً لقمصانهم المشجرة، وعصابات رأسهم وسيارتهما الشيسلر التى كانا يصارعان بها. صعدت فى سيارتهما أنا وجيانيكو ومالكو، وكانا يدلفان فى الشوارع، على غير هدى، جاعلان إطارات عجلات السيارة تحدث صوتاً، وكانا يطلقان صيحات، وكان ذلك أمراً جنونياً، فكانت الشوارع تتواري خلفهما وهما يسييران بأقصى سرعة، وكانت الريح تدخل السيارة عن طريق نوافذها المفتوحة، وأظن ذلك ما أنعشهما، ولكنهما كانا قد أشعلا الغليون قبل ذلك، ولذا كانت أعينهما حمراء اللون طوال فترة ما بعد الظهيرة. لم يكن ينتابني خوف، ولم أكن أهاب بشر مثل داني وهيج، ويبدو أننى كنت أرى فيهما سلوك الأطفال، والأولاد السفهاء والغرباء والضعفاء أيضاً.

كان داني فى العشرين من عمره فقط، أما أخوه فكان فى الثامن عشر من عمره، وحدث أنهما ركنا سيارتهما الشريسلىر قبل ليل يوم بقليل فى موقف متجر كبير لقطع الخردوات، متجر بريكولتو⁽⁸⁾، أو ميزون فرت⁽⁹⁾،

(8) Bricolou متجر خردوات معروف بفرنسا. (المترجم)

(9) Maison verte متجر أدوات خردة معروف بفرنسا. (المترجم)

لا أتذكر، ثم هبطنا من السيارة وبدأ الأخوان فى التجول بأجنحة المتجر وهما يشبهان الهمج فى شعرهما التدى على أكتافهما، وقمصانهما المشجرة المفتوحة فى البرد، وظل الناس واجمون واضعون رقابهم فى معاطفهم، وكانوا يتعقبونهما بالنظر، كما لو أنهما ذئبين يهرولان فى الأجنحة ؛ وكانا يتحدثان بصوت مرتفع بالأسبانية، وكان أحدهما ينادى على الآخر من طرف إلى طرف آخر فى المتجر، وكانا يضحكان، وكانت أسنانهم تتلألأ بين طالعهما الداكنين ؛ ثم رحلنا، وكنا نسير بالمصادفة، على طول النهر حتى الجبل، كنا نعبر كتلات سكنية نائمة غارقة فى ضباب ثقبه الضوء الأصفر المنبعث من الفوانيس.

كنا نرتكب أمور جنونية، فلقد ذهبنا يوماً ما إلى المقابر، وكنا ننصت للمقابر حتى نسمع الموتى، وكان داني أبله قليلاً، على ما أظن، وكان خال جيانيكو قد حذرنا منهما قائلاً: "لا تذهبوا معهما، فإنهما سيسببون لكم المتاعب"، وكنت أحب هيج، وذات يوم، جلست فى مقدمة السيارة بين الأخوين، ثم توقفنا لنشرب، وكنت أتغازل قليلاً مع هيج، بينما كان كل من جيانيكو ومالكو يدخلان الغليون وهما جالسان على السيارة من الخارج، فحاول هيج أن يقبلنى، ولكننى دفعته عنى، فأصبح مخبولاً، وكان هناك وريدا ناتنا على جبينه، وكانت عيناه تبرقان، فأخذ زجاجة صغيرة من البنزين من علبة القفزات ورشنى بها ثم أطلق النار، فأحسست بهواء شديد، كصفعة على وجهى، ووجدت نفسى خارج السيارة وأنا أصرخ، وكان صدرى ويدى تشتعلان، فأخمد هيج النار، وغلفنى بقميصه ودورنى على الأرض،

وأعطاني لكلمات بقبضة يده، وكنت مخبولة، ولم أكن أدرك شئ ؛ وفى أثناء هذا الوقت، كان داني وهيج يتشاجران ويتسابان، وكان جيانيكو ومالكو ينظران إليهما دون أن يتحركا، وأظن أنهما لم يدركا الأمر جيداً. وعندما أدركت الأمر، مضيت فعبرت الطريق وتركتهم هناك، فأخذنى على الفور تقريباً قائد سيارة وحملنى إلى الطوارئ، وكان يبدو عليه اللطف، فكان يريد أن يبقى معى، ولكننى شكرته، وقلت له أن الأمر لا يستدعى ذلك، فهى حادثة بسيطة، ووضع الطبيب المقيم لى ضمادة، فلقد حُرقت فى ثدى وفى رقبتي وفى ساعدى.

سألنى الطبيب المقيم: "من فعل بكى هذا ؟"، وكنت أشعر بالألم، وأشعر أننى متعبة، ولكننى قلت له أننى تحسنت، وأضفت: "لا شئ، هذه حادثة حدثت لى وأنا أقوم بإشعال النار"، وكان يبدو عليه أنه صدق قولى، وطلبت سيارة أجرة كى أعود إلى كريما.

بعد ذلك، استلزم الأمر على أن أرحل، ولم يقل رامون يرسى أى شئ، غير أن إلنا جاءت إلى المخيم، وأخذت أشياءى، ثم رتبته فى حقيبتي، وأعطتني قميصاً جديداً من الصوف الأحمر والأسود، ثم نظرت إلى بقسوة، كما لو أنها تبغضنى، وكان مالكو وجيانيكو يلعبان الكرة فى الشارع المحفور، فقلت لإلنا: "وماذا عن جيانيكو؟"، فأشارت لى بعلامة على أنه سيظل معهم، وأعتقد أنها كانت على حق، فمن جرائى أنا، لم تمض الأمور على ما يرام، فأنا أحمل النحس.

فى مدخل المعسكر، كانت هناك مجموعة من البوهيميين يتجادلون حول هياكل معدنية، وهم يشبهون القناصة الذين فرقهم فريسة. كان اليوم يوم الأحد مبكراً، ولذا كان مصنع سحق القمامة لا يعمل. وضعت الحقيبة فى حمالة على كتفى الأيسر، بسبب الحرائق، كانت السماء شديدة الزرقة، وكان هناك بعض طيور الخُطاف التى كانت تخط الأفق، وكنت أسمع أصواتها بوضوح. استقلت أتوبيساً حتى محطة القطار، وكانت لاتزال لدى نقوداً كافية كى أشتري بطاقة سفر فى القطار الراحل إلى مدينة باريس.

قبل قدوم صيف هذا العام، طرأت تغيرات كثيرة فى حياتى؛ بداية، تقدمت لبكالوريا القسم الأدبى كطالبة حرة، وكما كان متوقفاً رسبت، فلقد أعدت ورقة الإجابة خالية فى مادة الحساب وفى مادة التاريخ؛ أما فى مادة اللغة الفرنسية، فى الاختبار الشفهى، لم ترد المتحنة أن تصدق أننى كنت طالبة حرة، ففحصت جواز سفرى، ثم نظرت إلى ملفى وقالت: "توقفى عن الكذب، أين أجريت دراساتك؟، ثم استطردت: "أين قائمتك؟"، ثم فى النهاية، عندما انتابها خجل من أن تبدو ثائرة، قالت: "عن مَنْ مِنْ الكُتّاب تريدون إجراء شرحك؟"، فقلت دون تردد: "إيميه سيزار⁽¹⁰⁾"، ولم يكن هذا الموضوع ضمن المقرر الدراسى، ولكنها دهشت وقالت لى: "حسناً، سأستمع

(10) كاتب فرنسى ولد فى جزر المارتينيك عام 1913. عُرف بنزعه المناهضة للفكر التقليدى الغربى الاستعمارى. حاول فى مؤلفه أن يبرز دوره المساند للزنج. (المترجم)

إليك"، فألقيت عن ظهر قلب قصيدة "كراسات عودة إلى الوطن مسقط الرأس،
التي ذكرها فرانز فانون في كتابه: وبالنسبة لهذا الرب ذي الأسنان البيضاء

الناس ذوى العنق الهش

يتلقى ويلمح قدراً هادئاً بشك مثلي

إلى رقصاتي رقصاتي رقصات زنجية سيئة

وحتى الأبيات: أوصليني، أوصليني أيتها الأخوة اللاذعة

ثم اخنقيني بوهجك النجومى

اصعدى أيتها الحمامة

اصعدى

اصعدى

اصعدى

أتبعك، مطبوعاً بنسبي

قرنية بيضاء

اصعدى يا مملكة السماء

والثقب الكبير الأسود حيث أردت أن أغرق

القمر الآخر

هناك أريد أن أقتنص الآن اللغة الشيطانية

للليل فى سكنه .

وفى مادة الفلسفة كان الامتحان هذا العام عن الإنسان والحرية ، أو شئ من هذا القبيل ، فكتبت بحماس إجابة شغلت عشرين صفحة ، ذلك أننى كنت أذكر باستمرار مقولات لفرانتز فانون وللينين ، ولاسيما العبارة التى يقول فيها : "عندما لا تبقى على ظهر الأرض أية إمكانية لاستغلال الآخرين ، ولا يبقى مَلَك للمال ، ولا مَلَك للمصانع ولا يكون هناك عوزة فى ناحية وجوعى فى جانب آخر ، وعندما يصبح كل ذلك مستحيلاً ، حينئذ فقط ، سنضع آلة الدولة فى الخردة."

ولهذا رسبت ، وكنت قد كتبت كل شئ دون أن استريح ، ودون أن أقرأ ما كتبت ، كنوع من الإفلاس ، ثم رميت كومة الأوراق على مكتب المراقب ورحلت دون عودة ، حتى أننى لم أبحث عن اسمى فى سجل الناجحين ، فلقد كنت أعرف مسبقاً أنه لن يكون فيه .

فى باريس ، كان كل شئ كما هو ومختلفاً فى آن واحد ؛ ففى منزل بياتريس كان الطقس رائعاً ، كانت نافذة الصالون الكبيرة تلمع لمعاناً رائعاً ، أما جوهانا ، فلقد كُبرت ونبت شعرها ، وكانت عيناها مشابهة للعقيق ، مع نظرتها الثابتة والقلقة .

كنت أمكث معها كل فترة الصباح ، بينما كان ريمون فى مكتب المحامين وبياتريس فى جريدتها . كانت شجرة اللبلاب مليئة بالعصافير ، فكنت أحمل جوهانا بالقرب من النافذة المفتوحة حتى تسمع إلى زقزقتهم .

قررت أن أرحل، وبفضل مدرس في المركز الثقافي وعقيد في مركز يوسيس كان قد أغرم بي، حصلت على تأشيرة تبادل، على أن إقامتي ستكون في منزل سارا ليبكاب في ولاية بوسطن، وحتى أنني سجلت أسمى في أوراق اليانصيب الذي يوزع بطاقات الإقامة في الولايات المتحدة حينما علمت أن نصيب الأفارقة كان كبيراً هذا العام ؛ ولم يكن ينقصني سوى النقود للرحيل، وبدلاً من أن أبيع قرط أجدادي، اقترضت خمس وعشرين ألفاً فرنكاً من بياتريس، وكنت على استحياء منها إلى حد ما، ولكن المسألة كانت مسألة حياة أو موت، أو تقريباً كذلك. كان لدى انطباع أن بياتريس وريمون أعطيانى هذه النقود حتى أخرج من حياتهما مرة واحدة، وحتى لايبقى هناك من شئ يربط جوهانا بأמהا الحقيقة.

ما كان عليّ أن أقوم بوداع الآخرين، فلقد كان كهف شارع جافلو مغلقاً، فحينما عاد إيف - صديق نونو - من موريا، أبلغ عن الكهف، فأمر عضو المجلس البلدى بتبديل القفل، ومررت من أمامه في سيارة أجرة، ذات يوم من بعد الظهر، وانتابني شعور غريب وأنا أرى الباب المعدنى المظلي بلون أخضر برقم 28 المدون على الطلاء الأسود على حجر الزاوية، كما لو كان ذلك مبيت سيارات أو خزانة فيها عدادات أو أى شئ من هذا النوع، وأن ما من أحد عاش فيه، وأنه لم يكن هناك البتة هذا الليل الذى ولدت فيه باسكال مالكة، فكان ذلك أمراً غريباً، كل شئ بدا معكوساً لي، وعندما خرجت من نفق الشارع، قلت لقائد السيارة الأجرة: "عُد إلى الخلف"، فنظر إلى في المرأة

العاكسة، فكررت له: "من فضلك، أريد أن أمر مرة ثانية من هذا المكان"، ومرتنا ببطئ، وأضاء قائد السيارة مصابيح سيارته، فشاهدت المكان الذى كانت تقف فيه سيارة مارتياىل جواييه المرسيدس ترقب سيمون طوال الليل تقريباً، وكانت هناك بقع زيت على المر تشبه بقع الدم، ربما ماتت، فلقد كان يصيح فيها دوماً أنه سيقتلها ما إن أرادت أن تتركه، ومع ذلك كانت تسجن نفسها لديه، ولم يكن بوسعها أن تهرب منه مطلقاً، ولهذا السبب كانت تضع البودرة فى أنفها وكانت تبتلع قرص دواء، وكان ذلك بمثابة أسلوبها فى الهروب منه.

تركتنى السيارة الأجرة فى شارع باريس الكبير، أمام مركز الجمانزيم الذى يلعب فيه نونو، وصعدت السلم الواقع بين متجر الأشياء القديمة وبائع الأجهزة الصوتية. فى طابق صالة الجمانزيم، كان باب الصالة مغلقاً، ولكن كان هناك جلبة صوت، فقرعت على البلاط طويلاً حتى أتى أحد الأشخاص، وكان رجلاً فارع الطول، يرتدى ملابس رياضية، عربى، لم أكن اعرفه، فسألته: "أين نونو؟".

جعلنى أكرر سؤالى، وصاح باتجاه عمق الصالة: "هل تعرف نونو؟"، ومنعنى من المرور إلى الصالة، كما منعنى من النظر، ثم جاء رجل فى حوالى الأربعين من عمره، فارع الطول، كان لونه غامقا، له أنف قوية وشعره مجعد وأشيب، كان يشبه السيد دلاهاى، ولا أعرف لماذا، قررت على الفور أنه هو، إيف لى جن، صديق نونو، نظر إلى لوقت طويل دون أن يقول

شيئاً، تعرف على بالتأكيد هو أيضاً، ولكنه لم يعبر عن شيء، لا تعاطف ولا اشمئزاز، رغم أنني كنت أشاطره نونو، فعل حركة بيده كي يقول أنتهى الأمر، كل شيء أنتهى، وقرأت الأمر على شفتيه، أكثر مما سمعته، كان يقول بصوت منخفض إلى حد ما: "لم يعد هنا، لم يعد نونو يأتى إلى هنا، خسر مباراته، وأنتهى، لم يعد يلعب ملاكمة هنا، ولن يلاكم مطلقاً"، فقلت شبه صائحة: "وأين هو؟ هل تعرف أين يمكننى أن أراه؟"، فهز الرجل كتفه، وقال: "ليس لدى عن هذا الأمر أية فكرة، ربما عاد إلى أفريقيّا، ربما تم طرده من الأراضى الفرنسية، فلقد فسد أمره".

لم أشأ أن أصدق قوله لى، فوقفت على طرف أقدامى، كالحیوانات حتى أرى من فوق أكتافهم كما لو كانوا يخفون عنى شيئاً، فرأيت الصالة القذرة وحلبة المصارعة التى تدر ربهاً، والصبية الذين يضربون على حقائب الرمل، والذين يبدو عليهم أنهم يرقصون، وكان هناك من الشباب سود البشرة، نحفاء البدن من كانوا يتدربون كنونو، ثم أدار الرجل ظهرى ودفعنى العربى براحة يده حتى يتمكن من أن يغلق الباب، وكانت تُشتمُ هناك رائحة حمضية أو رائحة عرق أو عفن كعفن نونو عندما كان يعود من التمرين ؛ وفجأة، أحسبت بنفسى وحيدة، وكأننى أدركت فى النهاية أننى راحلة لأن الجميع رحلوا قبلى.

عدت إلى بلاس دى إيتالى كي أرى حورية، ولم يكن السيد فى يحنى، ولكن كان ذلك لا يمثل لى شيئاً، فلقد صممت على أن أرى حورية

وباسكال مليكة، فلن يأخذ هذا الأمر سوى دقيقة واحدة، وفي هذه اللحظة، لم أكن متيقنة مما سأفعله. وفي مطعم في تيه تو، كان الباب مفتوحاً للسهرة، ولكن الصالة الصغيرة كانت خالية، وأخرج السيد في رأسه من باب المكتب، وقال لي بصوت ردئ: "ماذا تريدین؟"، فحاولت أن أمر، لكنه سد أمامي الطريق، فلقد كان أكثر قوة من رجل قصير ونحيف مثله، وصاح في: "انصرفي! انصرفي!"، وأملت أن يلفت صوته نظر حورية، ولكنها لم تظهر، فربما كان يحبسها، أو لربما لم يعد لها رغبة في رؤيتي البتة، وربما كنت بحق أحمل النحس للآخرين.

درت كثيراً في خطوط المترو هذا المساء، حتى في جانب محطة ريومير أو في جانب محطة جار دي ليون وحتى محطة دانفير - روشرو، وكان هناك أناس غريبو الطباع في عربات المترو وعلى الرصيف، وكان هناك جنود مُسرحين يغنون مرتشفين الخمر متشردين، وكانت هناك نساء لهن عيون شفافة، وكان هناك سائحون تائهون، وأناس عاديون للغاية يحملون سلات وقبعات. وفي محطة ار ايه متييه⁽¹¹⁾، بحثت عن الجندي القديم، اريتريه الذي كان يبدو عليه بحق أنه محارب، مغلف في دثاره الفضفاض وأقدامه محمية بخرق، ثم بحثت عن يسوعى الذى يستجدى راکعاً سواعد من صليب، ومارى مادلين بعينها الخضراء اللون وشعرها المنكوش وفمها الملطخ

(11) محطة مترو في باريس تعلق فيها لوحات تاريخية ومعادن صغيرة على صلة بأحداث

بالدم كما لو أنها انتهت من قرط أحد ما. وكان الأمر غريباً بالنسبة لى،
فللمرة الأولى دون شك، صمتت الطبول ودق الصمت فى الممرات، وفى محطة
اوستيرليتز، بدت الأمور وكأنها لحظات تعقب عاصفة، أو لحظة تعقب دق
نواقيس، فأدركت أن ذلك بمثابة علامة شؤم.

فى اليوم الأخير قبل أن أستقل الطائرة إلى ولاية بوستن، تسكعت
بجوار شارع جان - بوتن كما لو كان هناك شئ بحق سأجده هناك، بخلاف
بعض الفتيات المتشردات، المعربدون ذوى السننيمين، وفندق الآنسة مايير
المؤثث، وتمنيت بغير وضوح أن تخرج مارى - هيلين من المبنى، وأن تأتى
نحوى وتسلم على بحرارة شديدة وأن أرى نونو فى المطبخ، عارياً تماماً وهو
يرقص الجامبه. كانت السماء تمطر، كانت القطرات تذحت مستنقعات
صغيرة سوداء، لا شئ تبدل، ومع ذلك كانت تلك حياة أخرى بعيدة جداً.
مرت سيارة شرطة ببطئ، فحولتُ مسرعة، ووجهى ملتفت إلى جانب آخر
حتى لا يلحظ أحد إلى أى حد أنا سوداء، فعلى الرغم من جواز سفر ماريمما،
وخطاب قطاع الهجرة لسفارة الولايات المتحدة الذى يفيد أن اسمى تم سحبه
فى القرعة، كان قلبى يرتجف كما لو كان أحد سيلقينى إلى خارج الولاية،
وحينئذ فكرت أنه ليس هناك ولو مكان واحد لى فى الدنيا، وأنه فى كل مكان
سأذهب إليه، سيقال لى أننى لست فى بلدى، وأنه ينبغى على التفكير فى
الذهاب للبحث عن مكان آخر.



فى فصل الصيف، يكاد المرء يختنق بولاية بوستن، فلقد كان هناك بخار يعلو المدينة حيث تختفى ناطحات السحاب. كانت سارا ليبيكاب تقيم فى شقة مكونة من حجرتين فى مبنى من الطوب الأحمر بالقرب من نهر شارل ناحية بى. يو. وفى الصباح، كانت تُدرس الموسيقى فى مدرسة دينية، وفى المساء، كانت تغنى فى حانة لموسيقى الجاز مع صديقها جوب، عازف البيانو.

فى الآونة الأولى، كانت الأمور تمضى على ما يرام، إلى حد أننى لم أشعر مطلقاً بالحرية مثلما شعرت بها فى هذه الفترة، فلقد كانت هذه الفترة مثل عهدي بالفندق والأميرات، والفارق أن هنا لم يكن هناك من إنسان يكلف

أحد بالبحث عني ؛ فكننت أستاذ الترامواي وأذهب إلى حيث أريد، وأظلم خارج المنزل طوال النهار في باك راى أو فى هاى ماركت أو فى ارليجتون أو فى الميناء ؛ وكننت أذهب إلى كمبردج سيرا على الأقدام مدلفة على طول النهر أو مستقلة المعبر ؛ وفى الفترة التى كانت تمضى فيها سارا لتلقى دروسها، كنت أقوم بعملية تنظيف المنزل، فكننت أنظف وأنسق الأوانى، وأعد طعام الغداء والعشاء، ولم تكن سارا تطلب شيئاً منى، ولكننى كنت أرى أن ذلك أمر طبيعى، عوضاً عن المسكن كما كان يحدث فى منزل بياتريس، غير أن سارا وجوب لم يكونا يعطينى النقود، ولم يكونا يسألانى البتة كم أنفقت كى أشتري لهم الطعام، ولم أكن أجسر على طلب النقود منهما، ولكننى رأيت أن مدخراتى تنهار ولم تعد لدى ولو ورقة مالية خضراء، ولم يكن فى إمكاني أن أزاوول عملاً، وكننت أترصد صندوق بريدى كل يوم على أمل أن أتلقى مظروفاً مدونا عليه قطاع الهجرة، وكننت دائماً منفعة قليلاً، وكان لدى شعور بأن مصيدة تطبق على بهدوء دون أن يكون بوسعى أن أفعل شيئاً.

كانت سارا وجوب يعيشان يوماً بيوم، فكانا لايدخران نقوداً، وكانت سارا تقوم بتسديد إيجار الشقة من راتبها الذى تتقاضاه من عملها كمدرسة للموسيقى، ولكى تنفق على الأمور الأخرى، مثل السهرات مع الأصدقاء والمطاعم والثياب، كانت تنفق عائد عزف البيانو فى مشرب الخمر، وأظن أنهما كانا يتعاطيان منشطات أيضاً، فكانا يدعوانى من آن إلى آخر،

ويصطحباني إلى نادى سى. تى. وايو فى منطقة باك باى، الذى كان يسميه جوب "بلاك باى" لأننا كنا نستمع فى هذا المكان لأفضل موسيقى جاز.

كانت سارا تحب كثيراً أن تقدمنى لأصدقائها، وكانت تجعلنى أرتدى مثلها أثواباً سوداء ملتصقة على الجسد، قميص أسود وقبعة، أو كانت تجدل شعرى إلى صفائر صغيرة كما كانت تفعل الأميرات فى الفندق، وكانت فخورة بى، وتقول أنه ليس لى من مثيل، وأننى أفريقية حقيقية، وكانت تقول لأصدقائها: "إنها تدعى ماريما، وهى من أفريقيا"، فكان الناس يقولون: "آه؟" أو "واو"، ويطرحون على أسئلة غريبة، مثل "أى لغة يتحدث بها هناك؟". وفى البداية، تعودت على لعبة سارا، ثم أخذ ذلك الأمر يضايقنى بحق، أسئلتهم، نظراتهم وجهلهم بكل شئ. فى مشرب الخمر، كانت الموسيقى تدق بقوة شديدة، وكان هناك إيقاع ثقيل يدق فى جوفى، وكنت أحاول عبثاً أن أضع يدى على أذنى السليمة، صوت الوتر الغليظ كان يدخل جسدى، فيؤلمنى، وكنت أشرب البيرة، المجرىتا، الكوبا الحرة، كنت ارتشف الضوء والدخان فأصبح ثملة مثل حورية عندما عادت من العرس.

ربما كنت أحب ذلك أو ربما لم أكن، فلقد كان ذلك الأمر جديداً علىّ، وكنت أشعر وكأن شخص ما بدل جسدى، فلقد أصبحت رفيعة للغاية، نحيفة تقريباً، وكانت عيناى محمومتين، وأشعر بالكهرباء فى أناملى حتى أطراف شعرى، وكنت أشعر بالكحول يملأ مفاصلى فيجعلها أكثر ليونة،

وكننت أمضى من مجموعة من الناس إلى أخرى، وكان جوب يمسكنى من منتصف جسدى، ثم يتحدث بصوت جهور وبسرعة، فلم أكن أسمع ما كان يقول، أما سارا فكانت تضحك بطريقة عجيبة، ضحكة خفيفة، تغدو شيئاً فشيئاً حادة، وتدور كالشلال.

كانت سارا ليبكاب تحب أن تقص حكايتى، كيف تعارفنا، فندق اكسيلسيور، أو كونكورد، لا أعرف، تمثال المرأة العارية بين حائطين كما لو كان قد وقع زلزال، والأيام التى كنت أجلس فيها على حافة منصة الغناء، كفتاة صغيرة مجدة كى أنصت إليها وهى تغنى لماهليلا جاكسون ولينينا سيمون، وكانت تحكى أنها كانت تعاملنى وكأنها أختى الكبرى، وأنها انتشلتنى أنا التى لم يكن لها أحد فى الدنيا، أنا التى كان بإمكانها أن تعرف الدرابوكا وتغنى، وأنها أتت بى لديها هنا، فى ولاية بوستن، فى هذه المدينة العفنة، حيث لا يستطيع أحد، ولا سيما شخص ذو موهبة، أن يتمكن، مهما كان الأمر، من الخروج من الفسق بل يمضى ليعيشه تماماً.

حدث ذلك فى بداية الأمر، ولكن فى نهاية الشتاء، كانت هناك هذه العاصفة، هذا الإعصار الحلزونى الذى قلب كل شئ، ولا أعرف إن كان هذا بحق الإعصار الحلزونى الذى كان السبب فيما حدث، فلقد كان الطقس حاراً جداً، وثقيلاً جداً فى بداية شهر أغسطس، وأحياناً كان الضباب مترامى الأطراف إلى حد أنه كان يغطى أعلى المباني، ناحية الميناء. وعندما جاء الإعصار الحلزونى يقصد مرتفع كود، كان هناك إنذار، فأغلق الناس

أبوابهم ونوافذهم وألصقوا على الأبراج الزجاجية لفات من الورق ؛ وبالرغم من ذلك استمرت سارا فى الذهاب إلى مدرستها كى تُدرس محاضراتها فى البيانو.

اعتاد جوب المكوث فى المنزل فى فترة الصباح، وكان يتزرع بالقول بأنه سيساعدنى فى التنظيف وإعداد وجبة الغذاء، ولكنه فى الواقع كان يتمدد على الأريكة فى حجرة الجلوس ويرتشف البيرة ناظراً إلى باطراف عينه ومن فوق شاشة التلفاز المشعلة.

وذات صباح، كان هناك مشهداً ساخراً أسفت عليه، تقدم جوب نحوى، دون أن يلفظ شيئاً، كما لو كان يبحث عن شئ يشربه فى المطبخ، وكان الطقس حاراً للغاية ؛ وكان جوب عارياً تماماً، يرتدى سترة وسطه فحسب، وكان جلده الأسود يلمع من العرق، وكنت أمرر المسحة المبللة على البلاط، وبدلاً من أن يقفز من فوق المسحة، مر من خلفها وأمسك بى. فى البداية، ظننت أنه يمزح، ولكنه طوقنى بزراعيه وسعى لتقبيلى، ومرر يده من أسفل قميصى حتى يلامس ثدى، فأخذت أصرخ بكل قوتى ؛ وحينئذ تركنى، فظننت أن الأمر قد انتهى، ولكنه عاد نحوى، وحاول أن يقتادنى إلى غرفة النوم، إلى الفراش ؛ ولم يكن جوب قوياً، ولكن الكحول ضاعف من قوته، ورفعنى وسحبنى إلى الغرفة ؛ ظللت أصرخ، وأوجه إليه ضربات بقبضة يدى، فضربنى فى البداية على جانب رأسى ثم على وجنتى وعلى رقبتى، وكان يصبح فى نفس الوقت: "كلبة !" أو "لا تكونى كلبة!"،

وعندما رأى أنه لن ينالنى أو خاف أن يأتى الجيران يطرقون الباب كى يسألون عما يحدث، تركنى، ثم أخذ يدى ووضعها على عضو ذكوره المنتصب، وأراد أن أستمنيه، وقال إنه مريض، وأظن أنه قال أننى إذا تركته فى هذه الحالة، سوف يهوى مريضاً، فقلت له أن يمضى يستمنى نفسه ثم رحلت.

دلفت طوال النهار فى شوارع بوستن، وأخيراً توقفت الزوبعة الحلزونية التى استهدفت مرتفع كود ومضت تشعث منازل الأثرياء الخشبية فى منطقة مارثيس فينريد.

بعد الظهر، كانت السماء تمطر، وذهبت إلى الشاطئ الآخر للنهر سائرة فى شوارع كمبريدج المصمة على الطريقة الإنجليزية، وكان الناس يخرجون من منازلهم، وكان هناك طلاب وعشاق يفترشون العشب الأخضر، ويحتمون بمظلاتهم الجولفية، وكان المطر الدافئ يخرج رائحة العشب ورائحة الأرض.

شعرت بنفسى خاوية، منهكة ؛ وفى مقهى بجوار محطة الترام، التقيت بجان فيلان، قال لى أنه جاء ليتعلم فى هارفرد وأنه يُدرسُ اللغة الفرنسية فى اليانس شيكاغو⁽¹⁾. لم يكن طويلاً، كانت مقدمة رأسه خالية من الشعر، ولكن كانت عيناه جميلتين خضراوين، مرتبتتين قليلاً، وكانت له

(1) الاليانس Alliance منشئة تعليمية فرنسية تعنى بتدريس اللغة الفرنسية فى كثير من بلاد العالم. (المترجم)

ابتسامة عطوفة. أمضينا بقية النهار فى الحديث والسير فى الشوارع والذهاب من مقهى إلى آخر ؛ كان صوته واضحاً فكنت أسمعه جيداً، وكانت يدها كبيرتين جميلتين ؛ وأظن أننى لم أتحدث مطلقاً مع أحد أكثر مما تحدثت معه، ويبدو لى أنه منذ سنوات لم أتحدث هكذا، كما كنت أتحدث مع جد حكيم . كنت أحتفى وجان فيلان من المطر تحت أشجار المنتزه، وعندما بللنا المطر، جلسنا فى مقهى، ولكى أفرغ من ذلك الأمر، مضينا إلى غرفته التى تقع فى الطابق الأخير فى منطقة "ذا أين" عندما جاء الليل، وكانت هناك نافذة تطل على شارع ماساشوستس العريض.

لم نكن نتحدث بحق بسبب أذى الصماء، ولأن الأخرى كانت متعبة، وكنت أشعر بالخواء يدق فى رأسى. ولم أشأ أن أفكر فيما حدث فى منزل سارا، إذ كنت أتحدث بالكاد، وكان جان يتحدث غير ملتفت إلىّ، فقص على طفولته السعيدة، حكى لى عن أخوته وأخواته، فى بريطانيا وفى باريس؛ ومن آن إلى آخر، كنا نضحك وكاننا نصتاً لفكاهة هائلة.

كان الوقت متأخراً جداً كى أعود للمنزل، ولم يكن هناك من شئ فى الدنيا يجعلنى أعود لمنزل سارا، فتناولت وجان البسكويت المملح الذى كان موضوعاً فى الثلاجة، وارتشفنا زجاجات صغيرة من الكحول ومن الجين⁽²⁾ ومن الفودكا⁽³⁾.

(2) مشروب مسكر قوى. (المترجم)

(3) مشروب كحول تشتهر به روسيا. (المترجم)

لم أنم حتى الصباح، وتمدد جان على الأريكة، فبدأ صاحباً ومنهكا، وكان ذقنه يظل وجهه، وقلت لنفسى أنه عندما نخرج، سيقول العاملون فى الفندق أننى عشيقته أو ربما عاهرة لوقت قصير .

مضينا نتناول الإفطار فى كافتريا الفندق فى الفناء الداخلى: كثير من الشاى، بيض، فاصوليا ؛ ثم كان على جان أن يستقل طائرة شيكاغو عند الظهر.

عدت إلى منزل سارا.

ولكن خلال الأيام التى أعقبت ذلك، لم تمض الأمور على ما يرام البتة، ولم أعرف ماذا قص جوب على سارا، ولكنها أصبحت مجنونة وشريفة معى. فكرت كثيراً أن أقول لها الحقيقة، ولكن ماذا كان جدوى ذلك؟ فلم تكن لتصدقنى، فدائما تنحاز السيدات لجانب الرجل، حتى عندما يخطئون وحتى عندما يخونهن.

حينئذ اشتريت بطاقة سفر إلى جريهوند، ووضعت أشياء فى حقيبة صغيرة، ووضعت كما أفعل دائما مذياعى الصغير المبقع، وكتاب فرانتز فانون الذى تبقى من ذكرى حكيم ورحلت إلى شيكاغو.

لم يكن لدى خوف من شئ، وكنت قادرة على أن أواجه الدنيا. وبعد وصولى بيومين، عملت فى فندق كانال ستريت الذى يديره مستر استبان، "السنور"، وكان كوبياً منغياً، وكنت أجمع وأغسل أكواب مشرب الخمر فى "الساعة السعيدة"، وهى ساعة مرور الجريهاوندز ؛ وكانت هناك مغنية

سوداء البشرة لا تشبه سارا البتة، كانت تغنى على موسيقى البلوز⁽⁴⁾ مصحوبة بعازف بيانو منهك. قمت بتأجير غرفة فى منزل بمنطقة ساوز روبنسون، فلقد رأيت لافتة على نافذة سفلى من المنزل كلافات إعلانات السينما، وكان المنزل قديماً متهدماً ومؤسس من الخشب الأشهب، به درج سلم فى مدخله، وكان سقفه من خشب القدة الأخضر، وكان به مدخنتين عاليتين من الطوب الأحمر.

بعد ذلك بقليل، سقط عازف البيانو مريضاً، فعزفت بدلاً منه، حيث ساعدتنى دروس سيمون وسارا جيداً، وكنت أعزف من ذاكرتى، ولم أكن فى حاجة إلى أن أقرأ عن الموسيقى، وأصبح كل شئ سهلاً بالنسبة لى، كنت أربح خمسين دولاراً كل مساء، ومن أجز أربعة سهرات كنت أسدد مسكنى؛ وكنت أتناول عشاءى فى الفندق، وقبل أن أصد على المنصة، وكنت أتناول بفتيك وجمبرى، وكنت أمسك نفسى عن الطعام والشراب حتى مساء اليوم التالى بزجاجات من الحليب وشريد وات. كان صاحب الفندق معجباً بموسيقاى، فكان يأتى ليجلس فى الصالون عندما كنت أعزف، كان ينصت إلى الموسيقى وهو يحتسى المياه الغازية. وعندما رحلت المغنية بدورها، عيننى بدلاً منها، فكنت أغنى وأعزف على البيانو، وكنت أغنى أغانى سارا: "بيلى" و"هوليدى" و"نينا سيمون". وفى بعض الأحيان كنت أرتجل، فكنت

(4) ال blues موسيقى من الجاز ألفها زنج فى بعض ولايات أمريكا. (المترجم)

أعزف الموسيقى التي كنا نعرفها في ممرات محطات ريومير - سيباستوبول
أو على سقف شارع جافلو، وكان إيقاع البيانو يعزف صوت عاصفة من بعيد،
وضوضاء السيارات في الشوارع الكبيرة، وصرخات، ونداءات، وعواء قاطعي
الحطب في حقول سان - دومانج⁽⁵⁾: "اوها ! هوا !".

لم يكن السنور يقول شيئاً يذكر، ولكن مع الطريقة التي كان يتمايل
بها قليلاً على مقعده مغلقاً عينيه وهو يمتص سيجارته، كنت أدرك أن ذلك
يعجبه كثيراً، ولم أكن أعير انتباهاً إلى الناس الذين كانوا يشربون في مشرب
الخمور، وكنت أعتقد أنني أغنى له بصفة خاصة. حاولت أن أتخيل حياته،
وما مر به من أحداث قبل أن يصل إلى هنا، وربما كان عقيداً سابقاً في الجيش
الكوبي، أو قاضي صلح قبل كاسترو⁽⁶⁾. وخارج السهرات في مشرب الخمور،
أمام كوب مياهه الغازية، لم أكن أراه البتة، إذ كان يعيش بمفرده في مبنى
ملحق بالفندق في نهاية ممر أرضي. لم يكن مسؤولاً عن أي شيء، حتى الدفع
للموظفين، فلقد كان سامبو رجله الذي يقوم بكل شيء، فكان يعطيني أجرى
بعد كل سهرة.

عشرت على جان فيلان، وكان يقيم مع سيدة تُدعى انجلينا في مبنى
راقى، في منطقة بين جروف، بالقرب من لاكسهور، وكنت أقضي معه فترة
ما بعد الظهيرة من آن إلى آخر، حتى أنسى بقية الناس، وكنا نذهب إلى فندق

(5) Saint-Domingue هو الاسم القديم لجزيرة هايتي. (المترجم)

(6) يقصد فيدل كاسترو. (المترجم)

يقع فى أعلى برج، وفى هذا المكان، كان الطقس هادئ تماماً، وساكن تماماً، فكان صالونا حقيقيا من الدرجة الأولى ؛ ومن خلال فتحته الزجاجية الصغيرة التى تطل على الجانب الشرقى، كنت أشاهد الليل الأزرق والبحيرة وأضواء السيارات التى كانت تتعرج إلى الأسفل على الطريق السريع، كما لو كنت أخلق على بعد ثلاثين ألف قدم. كنا نتحدث فى بعض الأحيان قليلاً، ولكن ليس كما حدث فى غرفة فندق هارفرد ؛ وكنا نتضاجع، ثم نأكل، ثم أنام بثقل حتى المساء ؛ وفى معظم الأحيان، عندما كنت أستيقظ، أجد أن جان قد رحل ليدرس محاضراته، وكان يُعدُّ رسالة عن علم الاجتماع حول المهاجرين المكسيك فى ضواحي شيكاغو الجنوبية. مرة أو مرتين، اصطحبنى معه فى أحياء روزل، تانلى، نابيرفيل، اورورا، وكان يُدعى لحفلات زواج وحفلات تعميد، فكان ذلك يحدث كما لو كان يذهب إلى كوكوب مارس، ولست على يقين من أنه - مع كل شهاداته - يفهم أفضل منى ما يراه.

فى رويانسون، كان هناك أناس غريبو الطباع، وفى المساء، قبل قدوم الليل بقليل، كانوا يخرجون من منازلهم ذات النوافذ المسدودة بألواح الخشب، ثم كانوا يبيعون جرعات بودرة ومربعات الراتنج⁽⁷⁾، وتعلمت أن أتحاشاهم . ولكن فى واجهة نافذة غرفتى على الجانب الآخر من الشارع، كان يعيش السيدور، وكان عملاقاً، ضخماً كالذب الأسود، ووجهه طفولى، وكان يرتدى يومياً نفس الملابس من بنطال جينز وقميص قصير لونه أبيض

(7) مادة صمغية لزجة تُستخلص بصفة خاصة من أشجار الصنوبر. (الترجم)

وأحمر، حتى عندما كانت رياح الشمال تهب، وكان يعيش في منزل مترنح مع أمه، وكانت سيدة سوداء البشرة وقصيرة، وكانت تعمل في مقهى، وتصادق معي، فكان كل صباح، عندما كنت أخرج للقيام بالمشتريات، في حوالي الحادية عشرة أو في الظهر، كان السيدور يجلس على عتبة منزله يشير إلى كثير، ولكنه لم يكن بوسعه أن يتكلم، فلقد كان هناك خلل في عقله، فكان يحرك رأسه عندما كنت أقول له شيئاً ما، وكان يشبه كلباً ضخماً متوحشاً لكنه مسالم. كان أولاد الحارة يهزئون به، فكانوا يلقون عليه الحصى، ولكنه لم يكن يغضب، وكان بإمكانه أن يجلس لساعات على عتبة باب، منتظراً عودة أمه وهو يلتهم البسكويت المالح. وكانت العصابات لا تتركه هادئاً، ففي بعض الأحيان، لكي يتسلوا، كانوا يشعلون له سيجارة من الحشيش ليروا التأثير الذي تحدثه عليه، فكان السيدور يدخن السجارة، ثم يأخذ في التهام بسكويته في هدوء، وكان يضحك ربما قليلاً، هذا كل شيء. كانت له بحق قوة غير معقولة، فذات يوم صعدت شاحنة صغيرة يقودها ثمل على الرصيف وهشمت جدار مبنى بعيد، فوصل السيدور، وتعلق في الجسر الرفوع وبثقله فقط رفعه ثم وضعه في مكانه. ويبدو أن منظم المنازلات أراد أن يجعله يعمل لديه، ولكن السيدور كان رقيقاً جداً، كثير العطف، لم تكن لديه رغبة في أن يتقاتل، ولم يكن يتكلم كثيراً، وكان كل ما يقوله، يدور حول الطقس المتوقع في فصل الشتاء: "ربما تمطر، ربما تثلج، لا أدري".

كانت أمه تحميمه، فذات يوم، كنت أجلس على درجات سلم بيته بجوار السيدور، وكان معى كتاب فى الرسوم المتحركة، فلقد صممت على أن أعلمه القراءة، وجاءت أمه، وعندما رأتنى غضبت وقالت: "ما هذه الزنجية؟ ماذا تريدین من ابنى؟"، فلم أعاود فعل ذلك مطلقاً.

ومع ذلك، فذات يوم من بعد الظهيرة، وقعت هذه القصة المفجعة مع الشرطة، فكان من المفترض أن العمدة أعطى تعليمات حتى يتم القبض على بعض الأشقياء، حتى تلتقط له صورة فوتوغرافية وتتحدث عنه الصحف، ولا أعلم لماذا اختاروا شارع روبنسون هذا، ربما لأنه لم يكن يحدث به أى شئ. بغتة، وصلت سيارات الشرطة فى شكل علب، فأغلقت الشارع، وهجم رجال الشرطة على المنازل، خاصة المنازل الواقعة فى أطراف الشارع، والتى كانت نوافذها مغلقة بألواح الخشب، وعلى ما يبدو فإنهم قبضوا على بعض الصبية، وفجأة، شاهدوا السيدور، وكان العملاق قد نهض من نوم القيلولة، فخرج على عتبة بابه، يرتدى دوماً عفريته الجينز والقميص الصغير الأحمر والأبيض، وعندما رأى الفانوس الدوار يومض، شده ذلك فتقدم بخطوات حتى يرى ماذا يحدث، وفى أعلى درجات السلم الخشبية، بدا أكثر طولاً وأكثر ضخامة، كذب حقيقى يخرج من الغابة، فانقبض قلبى لأننى لاحظت أنه لا يدرك الخطر وأن رجال الشرطة ينتابهم خوف منه، فأردت أن أصيح له: "السيدور، ارجع، عُد إلى منزلك"، وكانت مكبرات صوت الشرطة تصدر أوامر، ولكن السيدور لم يكن يدرك ذلك بالتأكيد، ومضى فى السير

باتجاههم، واضعا يده في جيوبه متمايلا بلطف، فقفز عليه ثلاثة رجال من الشرطة، وحاولوا أن يسقطوه على الأرض، ولكنه دفعهم بضربة مفاجئة، فكان يعتقد أن الأمر فكاهة، ونظر إلى أسلحتهم المصوبة إليه دون أن يفهم، واستمر في التقدم نحو منتصف الشارع، ولكنه لم يعد يضع يديه في جيبه، وعندما تيقن رجال الشرطة أنه غير مسلح، اغتنموا الفرصة، فقفزوا عليه وشرعوا في ضربه بالعصى، على ظهره، وعلى ساعديه، وعلى رأسه، فكان السيدور ينزف دما من أنفه ومن جمجمته، ولكنه كان لا يزال منتصبا، ودار حول نفسه متذمرا، وزراعيه ممدودان كما لو كان يسعى للتعلق بشئ، ثم ضربه رجال الشرطة على ساقيه، وفي النهاية سقط على الأرض، ثم استمروا في ضربه بضربات مطرقة وبقوة شديدة لدرجة أنه خيل لى أننى أسمع صوت الضربات، وكانوا يسبونهم ويضربونه. وفي النهاية، رأيت السيدور يبكي راقدا على الأرض، واضعا زراعيه على رأسه حتى يزود عن نفسه الضربات، وكان يطلق صرخات تذرر واستنجاد بأمه.

وصلت العجوز في اللحظة التي حملوا فيها السيدور في سيارة، وكان ضخما لدرجة أنهم لم يتمكنوا من إدخاله مستقيما، فدفعوا رأسه إلى الأمام وضربوا ساقه حتى يثنى نفسه في السيارة، وجرت العجوز السوداء خلفهم وهى تصرخ، كانت تسعى لتلحق بهم، ثم رحلوا فعادت إلى منزلها وأغلقت بابها. كانت على يقين من أننا جميعا - فى هذا الشارع اللعين - نحن الذين أرسلنا رجال الشرطة للبحث عن أبناها. وبعد يومين من ذلك،

وبعد أن عاد السيدور، تبدل شئ ما، فلم يعد يجلس فى خارج المنزل يشاهد الناس وهم يعبرون فى الشارع، وظل حبيس المنزل، فلقد كان خائفا. وبعد ذلك ببضعة أيام، رأينا لافتة على المنزل، فلقد حملت العجوز السيدور إلى حى آخر، فلم أعد أعرف عنه شيئا.

بعد ذلك، عرفت الانحراف، كان لدى منه ما يكفينى وأنا أقتسم جان مع إنجيلا، فلقد خرجت مع بلا، وهو من الإكوادور، وكان يقيم بمنطقة جوليت، وكان فارغ الطول، نحيف البدن، شعره طويل مثل هنود السيئما، وكان يضع حلية صغيرة ماسية مصقلة فى أذنه اليسرى ؛ وكان يحلم بالرج⁽⁸⁾ والراجا وأن يشهر علامته التجارية، وفى انتظار ذلك، كان يتاجر بشكل غير شرعى فى ملاقيط الشعر والمواد المنبهة، وقليل فى البودرة، وكان يتعاطى المخدرات أيضا، ولكن هذا الأمر لم أكن أعرفه عنه. كنت أذهب معه إلى مشارب الخمر، فى حانات البلوز⁽⁹⁾، وكنت ألتقى بموسيقيين ؛ وكنت أظل خارج غرفتى طوال الليل، وكنت ألتقى بنجوم فى لعبة كرة السلة ولاعبين مشطوبين من سجلات الرياضة متسكعين ونساء شهيرات تتصرفن على نهج جانت جاكسون وهى تغنى "فر إذا أردت أن تحيا"، ورجال من جاميكا يتصرفون على نهج زيجى مارلى، ورجال من هايتى يتصرفون على نمط الفوجز. أما أنا فكنت أحب الأغانى القديمة: كأغنية رازهل "راعى

(8) reggae موسيقى يعزفها الزنوج فى جاميكا. (المترجم)

(9) موسيقى من مشتقات الجاز ألها زنوج الولايات الأمريكية. (المترجم)

الضوضاء"، وأغنيات بلاك ثو وهوب ومارك وكامل. واستبدلت المذياع القديم بجهاز تسجيل صغير، كنت أمضى في كل مكان ومعى الموسيقى العميقة فى أننى الوحيدة، كما لو كان العالم أجمع صامت، وكنت أرتدى ملابسى مثلهم، كنت أسير وأشعل الغليون مثلهم، وكنت أتحدث مثلهم، وكنت أقول بالإنجليزية: "أتعلم ماذا أقول؟"، وما من إنسان كان بوسعه أن يظن أننى أتيت من الجانب الآخر من العالم. ذات مرة تحدثت عن المغرب، وهى الطرف الآخر من الدنيا، ففهموا أننى أتحدث عن موناكو، فلم أعد الكرة. ولم يكن هناك من إنسان يعرف ماذا يعنى أن يكون المرء من أفريقيا، ثم أننى لم أكن قد تسلمت بعد البطاقة الصغيرة البلاستيكية الخضراء التى تمنح كل الحقوق. كنت أرى جان من آن إلى آخر، ولكنه لم يكن يحب أن يشاركه أحد مثل بيلا فى، ولما كان ذقنه صغير، فلقد كان يبدو أكثر حزناً.

بفضل سينور، أصبح لدى رقم فى التأمين الصحى ورخصة قيادة، وذات مساء، ودون أن يخطرني، دعا مستر لورى إلى مشرب الخمرة حتى يسمعنى وأنا أغنى، وعندما انتهيت من دورى، دون مستر لورى على بطاقة زيارته موعداً لليوم التالى، وذهبت بمفردى لحجرة التسجيل، دون أن أحدث بلا، ولا جان، ولا أى شخص، ولم أدر ما الذى كان يريده مستر لروا منى، فارتديت بنظراً ضيقاً، وقميصاً من الصوف فضفاضاً لونه أسود، ورقبته مستديرة تحسباً للحالة التى من الممكن أن يعتدى على فيها. كان الأستديو يقع تحت الأرض من مبنى فى منطقة اوهيو، وكانت هناك صالة كبيرة

مفروشة بعازل أسود، وبها بيانو أبيض فى منتصفها، وكان الأمر مخيفاً إلى حد ما. عزفت كما تعلمت مع سيمون فى منزل لابلت أوكاى، منحنية على لوحة المفاتيح حتى أنصت للذوتات الخفيفة وهى تدق، وغنيت لنا سيمون أغنية: " أضع هجاء لك " وأغنية "أسود لون بشرة حبيبى"، ثم عزفت مقطوعتى، تلك التى أعوى فيها كمقطعى الحطب والتى أصبح فيها كصياح كطبور السمامة فى السماء فوق فناء لالا أسماء، والتى كنت أغنى فيها كالعبيد الذين ينادون أجدادهم على حافة المزارع وهم منتصبون فى البحر، ثم عاودت غناء أغنيتى " على السقف " تذكراً لشارع جافلو وسلم رجال الإطفاء الذى يقود إلى سقف الدنيا. كان قلبى يدق بشدة، وحتى أمنح نفسى الشجاعة، فكرت فى صوت دجاما الغريب والمنتعش الذى كنت أسمع فى الماضى فى دوار تبريكة ومذياعى ملتصقاً بأذنى، عندما كانت تعلن عن كات ستفانز على إذاعة تانجير، صوت أمريكا.

الآن بعد كل هذه السنوات، أعرف ما أريد أن أسمع: هذا الرنين اللامنقطع والأصم والخفيض والعميق، صوت البحر على هضبة الأرض، صوت الناقلات الحديدية على شرائط السكك الحديدية اللامتناهية، زمجرة الأعاصير المستمرة التى تخرج خلف الأفق كالتنهد أو الضوضاء القادمين من المجهول، صوت دم شرايينى عندما أستيقظ فى الليل وأشعر أننى وحيدة.

فى هذه اللحظة، أعزف ولم أعد أخاف من شئ، وأعلم من أنا، وحتى طرف العظمة الصغير الذى تهشم خلف أذنى اليسرى، لم تعد له

أهمية؛ وحتى الحقيبة السوداء والشارع الأبيض والصرخة المدوية لعصفور الشر، لم تعد هناك أهمية أيضاً في حياتي لزهرة ولا هابل ولا للسيدة دلاهاى ولا حتى لجوب، لكل هؤلاء الناس الذين يراقبون بدقة ويطاردون ويمدون شباكهم فى كل مكان. غنيت لوقت طويل، دون أن آخذ نفسى تقريباً، فانتابنى ألم فى أطراف أناملى، ثم انتابنى شعور بدوار كبير، وكأننى فى ممرات محطات المترو الخاوية عندما يفر الناس، أما مستر لرو فلم يقل شيئاً، فرحلت من قاعة التسجيل وقلبى منقبض، كان لدى انطباع أننى فشلت فى كل حياتى، وفرت ألود بالفندق مع جان فيلان.

رقدت على مدار نهارين وليلتين، دون أن أستيقظ تقريباً، فلقد استنفذت كل طاقاتى. وبما أننى رأيت العملاق السيدور ملقياً على الأرض على يد رجال الشرطة، مضروباً ومتروكاً لبكاء أمه وكأنها تبكى طفل صغير، فلم يكن فى وسعى أن أعود إلى شارع روبنسون، فمازالت تدوى فى أذنى صفارات سيارات الشرطة عندما أغلقوا الشارع. ومع وجود سماء فصل الخريف الزرقاء والأشجار حمراء اللون، إلا أن الأمر لم يكن مختلفاً عن شارع جان - بوتن، ولا يختلف كثيراً عن فناء لالا أسماء، ولا عن الشارع الأبيض حيث أختطفنت عندما كنت صغيرة.

قبل هبوط الثلوج فحسب، وفى شهر نوفمبر، تلقيت فى آن واحد خطاب هيئة الهجرة به بطاقة إقامتى، وموعداً مع مستر لرو لتسجيل أغنية "على السقف". وفى قاعة التسجيل، كان هناك المنتج والمساعدين والفنيين،

وعزفت وغنيت فى فترة الصباح، وكان التسجيل يتقدم قليلاً، وكان الأمر يستلزم أن أعود للوراء دوماً، ثم أبدأ من جديد، ثم، عندما فرغت من ذلك، وقعت عقداً لشريط واحد ولكل ما أنتجه على مدار خمسة أعوام، فلم تكن لى طوال حياتى نقود أكثر من ذلك، ولم أكن أدرك ما حدث جيداً. فى الليل التالى، وفى صحبة بيلا والموسيقيين، ذهبت ومسترلروا ومساعدو الإنتاج إلى مطعم "ليجران" لصاحبه ماجيك جونسون، وكانت رأسى تدور، وكان يبدو لى أنه لم تعد لى حدود، وكانت هناك صحفية تطرح على أسئلة، فكنت أقول لها أى شئ، أننى فرنسية، وكنت أفريقية، وعندما سألتنى عن عنوان أغنيتى القادمة، قلت لها دون تردد " إلى السيدور مع حبى"، وانتابنى غضب مفاجئ، وكنت ارتعبش. كان لى انطباع أن موسيقى الطبول فى محطة ريومير - سيباستوبول كانت موجودة فى كل مكان، فى الهواء، فى دخان مشارب الخمور، فى النمعان الأحمر الذى يظل فوق شيكاغو حتى الفجر.

فى الصباحت، تركتهم جميعاً، وسرت على طوال البحيرة، كان الطقس بارداً للغاية ولم أكن أرتدى سوى قميصى الجلدى وقبعتى السوداء الممدودة حتى أذنى، وكانت أشجار الحور الرجاجة مشتعلة، والسماء كان لونها أزرق كثيف، والشمس كانت تشرق فوق البحيرة. رأيت أسراب طيور الكُرْكُ، تعبر نحو المكسيك الجديدة.

انتظرت باحتشام فى ممرات الاليانس الفرنسية ، فلم يتعرف على
جان فيلان على الفور بسبب قميصى الجلدى الأسود وقبعتى ، ثم اعتذر

للطلاب، قال لهم إن لديه أمراً هاماً وعاجلاً، وسرنا فى الشوارع العريضة، تناولنا إفطاراً، كما حدث فى هارفرد، ثم مضينا حتى الهواء الطلق الذى كان يحيط بمحطة التنقية على شاطئ البحيرة. كان هناك أناس جالسون على العشب الأخضر، تجرها كلاب ملكية، وكان هناك شيوخ يرتدون ملابس رياضية ويمارسون لعبة التيشي⁽¹⁰⁾، كان الطقس بارداً. وعند مرورى أمام مبنى فى حى شيردان، استأجرت شقة صغيرة، وسددت النقود فى الحال، دفعت شهراً من الإيجار كضمان وشهر آخر كإيجار مقدم، فلقد أردت أن أتصرف كما لو كنت أنا وجان زوجان دون شهود ودون كنيسة ولا مستندات ولا مستقبل ؛ وأعتقد أننى أصبحت حبلنى فى هذه الآونة.

لا أعرف أى شيطان دفعنى للعودة إلى بلا فى شقته فى لابلازا بمنطقة جوليت، وربما كان هو الشيطان، أو لربما كان جان فيلان لأنه جعلنى أنتظر كثيراً، ولأنه أنتظر الكثير منى، وأظن أنه لم يكن يوجد شخص أكثر ضجراً منى آنذاك.

فى شيردان، كنتُ سجيناً فى قفص من الزجاج والحديد، أعلى المدينة والبحيرة المتجمدة، وفى مكان مُغلق بإحكام إلى حد أننى كنت أظن أننى أصبحت صماء الأذنين. كنت أنتظر طوال اليوم، كنت أنتظر أن ينهى جان محاضراته، كنت أنتظر أن يفرغ من تلاميذه، من أساتذته ومن مقالاته، ثم كنت أنتظر أن يفرغ من إنجيلا. وفى حوالى الرابعة، كان جان يأتى على

(10) رياضة صينية تعمل على تنشيط العضلات. (المترجم)

عجل، يحمل زهوراً، وزجاجة خمر، وبرتقال، كما لو كان يعود مريض ؛ وكنا نتضاجع حتى على الموكيت، أمام الفتحة الخالية حيث يكون الظلام قد هبط، ثم أرقد معانقة له، كما كنت ألتصق في ظهر لالا أسماء . فى منتصف الليل، كان ينصرف على أطراف أقدامه، وذات يوم، سألته أن يرينى صورة لصديقتة ؛ كانت تضحك بغباء قليلاً، على عشب أخضر كبير أمام حمام سباحة. كان اسم إنجيلا اسماً يليق بها كثيراً، فلقد كانت فارعة الطول، شقراء، ملائكية، على عكسى تماماً فى مجمل الأمر، وكانت روسية أو لتوانية، لا أعرف، وكانت تعمل كطبيبة.

وبلا أيضاً كان على النقيض تماماً من جان، فكان رفيع الجسم كالنبات متسلق، عذباً وعنيفاً، يشوبه نوع من الغضب المكتسب، وكان يُعنى عناية تامة باختيار ملابسه وأحذيته وأقمصته الحريرية السوداء، وكان يطفى كل صباح الحلى الماس المصقل الذى كان يضعه فى أذنه، كان يقول إن ذلك أتاه من أخته، وأنها أعطته له قبل أن تموت من جرعة مميتة عند أقربائها فى واشنطن. معه، كان شعورى بالفراغ يقل، وكذلك قلق الانتظار. وفى الواقع، لم أعد أنتظر شيئاً، فكنا نعيش اليوم باليوم، وكنا نستمتع للموسيقى، ونذهب لمشرب الخمر والحانات الليلية والسهرات ؛ وكان مستر لرو لا يحب بلا، وذات يوم هتف إلىّ ولا أعرف كيف حصل على رقم الهاتف، وقال لى: "إنه نمط لايناسبك، فهو ضعيف جداً وسوف يهبط بك"، فغضبت وقررت ألا أعود إلى غرفة التسجيل.

كان ذلك قبل قدوم فصل الربيع ، وكان بلا يواجه صعوبات مالية ، فكان مداناً بأشهر إيجار مسكنه ، وخططنا مشروعاً للرحيل إلى كاليفورنيا بالسيارة ، ولكننا لم نتوصل لاتخاذ القرار . فى المساء ، كنا نتسكع حتى الرابعة صباحاً أو حتى الخامسة فى الحانات الليلية ، نشرب ونشعل الغليون ، وعندما كنا نستيقظ ، كنا نجد أن الوقت متأخراً جداً ، إلى حد أننى لم أعد أعرف فى أى يوم من الأسبوع أكون ؛ ثم طُرد بلا من لابلازا ، فذات بعد ظهر يوم من الأيام ، وأنا عائدة إلى المنزل أحمل حليباً وفطائراً وبعض الأشياء للعشاء ، لاحظت أن مغلاق الباب قد تغير ، وجاء بلا فغضب ، ولم أره مطلقاً فى مثل هذه الحالة ، ولاحظنا أن أشياءنا وضعت فى سلات القمامة أسفل درجات السلم أسفل المطر ، ففرع بلا الباب بضربات قدم قوية ، وكان يصيح بشتائم ، فقدم رجل أمن المساكن يحمل مطرقته الإلكترونية وهاتفه ، وتظاهر بلا بأنه يتشاجر ، فصعقه رجل الأمن بعصاه ، ثم نادى رجال الشرطة ، فصرخت وتشبثت بالأرض وصرخت ثانية ، ثم جررت بلا من شعره حتى المكان الذى تتوقف فيه السيارات ، وكان أمراً مضحكاً ومرعباً . وضعنا حقائب القمامة فى السيارة ورحلنا قبل أن يصل رجال الشرطة ، وحتى ينتقم ، ألقى بلا زجاجة ، من عصير الطماطم على واجهة المنزل ، والتى ألصقت بقعة عريضة حمراء على الحائط ؛ وفى ذات الوقت ، كان يصيح كذئب من المدينة القديمة ، ثم لذنا بأحد أصدقائه فى المدينة التى يكثر سكانها من الصينيين ، ثم قررنا أن نرحل إلى كاليفورنيا ، فعبرنا كل الولايات المتحدة تقريباً دون أن

نتوقف، قائدين السيارة بالتناوب، ليلاً ونهاراً، نائمين فى مواضع توقف السيارات. فى بعض الأماكن، فى اركانساس وفى اوكلاهوما، كان الطقس بارداً جداً، وكان هناك ثليج على المنحدر، فسقطت مريضة، وكنت أرتعش، كان بى ألم فى رأسى، وكنت أتقيأ، فقال لى بلا: "لا عليك، سيمر هذا الأمر بسلام، إنه زكام"؛ ولكن الألم لم يفارقنى، فلم يكن مجرد زُكام، بل حُمى شوكية. عندما وصلنا إلى كالفورنيا، كنت على وشك الموت، كان ظهرى وعنقى مجمعين، وكان هناك ألم واخز يدق فى أذننى، وكنت أشعر وكأن قلبى متوقف، ولم أستطع أن أتكلم، ولم أعد أسمع ما كان يقوله لى بلا، وكانت عينائى مفتوحتين نهاراً وليلاً كما لو كنت قد سقطت من الفضاء. فى سان بيرناردينو، فقدت الجنين ونزفت دماً غزيراً، فكان بلا خائفاً من أن أموت فى السيارة، فوضعنى وحقيبتى على باب مستشفى، ولا أعرف ماذا قص عليهم، ربما أنه انتشلنى من نقطة إيقاف أو شيئاً ما، لأننى لم أره مرة ثانية، وربما قبض عليه رجال الشرطة وهو يبيع البودرة أو الأختام، وهكذا فقدت أحد قرطى الذهبين التى أعطتنى إياهما لالا أسماء، ولكننى كنت مريضة بشدة حتى أهتم بذلك.

عندما دخلت مستشفى سان بيرناردينو، كنت فاقدة الوعي أو هكذا تقريباً، وأمضيت وقتى مكورة، مختبئة أسفل الملاءة حتى أهرب من الضوء. وبسبب الحمى والجفاف، كان لسانى أسود اللون ومتورم، وكانت شفاهى تنزف دماً، حتى أننى لم أعد أضع فى اعتبارى أننى صماء. كنت فى شرنقة،

سمكة من ذهب 270

مكورة فى قاع مغارة، فى عمق ألى، وكان بطنى، وهو روحى وكائنى، قد
فسد كثيراً، فلقد كُحت وأُخلى إلى حد أننى لم أعد أعيش إلا له. فى بعض
الأحيان، كان يأتى شخصٌ ما يضطرنى إلى الاستيقاظ والتبول فى الحوض ثم
يقوم بحقنى، وكنت أشعر بإبرة تغوص فى ظهرى، بين فقراتى، فكنت
أصرخ من الألم، ثم أهوى منهكة على الفراش.

فى هذه الآونة، رأيت ندى للمرة الأولى، وسميتها ندى فى داخلى،
لأنها وضعت يدها الندية جداً على جبهتى، فكانت كندى الصبح، ورأيت
وجهها الأملس الداكن وعينيها اللوزتين السوداوين، وشعرها المصفف فى
ضفيرة واحدة سمكة كالذراع. كانت تجلس بجوار فراشى، وكنت أنظر إلى
عينيها، وأتبحر فى نظرتها، وأتشبث بيدها، ولم أكن أود أن تتركنى.

حينئذ نمت للمرة الأولى منذ أسابيع، ورأيت فى المنام أننى لا أنام،
وأننى أتحرج خلف موجة. فى كل صباح، كنت أنتظر عودة ندى، بيدها
الطرية، وعينيها. كانت الوحيدة التى قادتنى نحو البسيطة، نحو النور،
فبدأت أخرج من مغارتى، وهى الوحيدة التى كان بإمكانها أنى تضعنى على
العتبة، هناك حيث كانت تُسمع موسيقى الأطفال وصيحات العصافير، وحتى
غطيط السيارات فى الشوارع. كنت أجمع الأقراص المنومة لها، ثم كنت
أدحرجها فى منديل تحت وسادتى، وفى الصباح كنت أقدمها لها، فلم يكن
لدى شيئاً آخر أعطيها إياه.

جاء رئيس الأطباء ذات صباح بصحبة طلابه، ثم عقد محاضرة، وكان طلابه يدونون ما يقول في كتبهم، وكنت أنظر إليهم حتى يخفضون أعينهم، وكان الصبية يضحكون مستهزئين، ولم أكن أهتم بذلك، فلقد كنت أنتظر ندى.

جاءت قبل قدوم الليل، قبل أن تعود إلى حيث تقييم في وإلى مؤسسة سان جوان. لم تكن تُدعى ندى، كانت تضع شارة على قميصها الأبيض مدون عليها اسمها: شافيز، وكانت هندية، فلم تكن تكلمني بغير الإشارة، كانت تومئ لي ببديها ووجهها عن كل ما تريد أن تقوله لي، وكانت تخطأ أحرفاً بأناملها، وتعلمت الرد عليها، تعلمت أن أقول امرأة، رجل، طفل، حيوان، يرى، يتكلم، يعرف، يبحث. وكانت تعرف قصة الجنين، فلقد كان العاملون في المستشفى يواجهون هذه المشكلة إضافة إلى المشاكل الأخرى، ولم تسألني ندى عن شيء. أرتنى صور رجال في مجلة بالمصادفة: هوج جرانت، سامي دافيد، كينو ريفز، بيل جوسبي وفهمت، وضحكنا كثيراً، وأظن أنها خافت أن يكون جنيني جاء على أثر حالة اغتصاب، وحينئذ، دونت على المجلة اسم جان فيلان، وأضفت كلمة نعم، إنه اسم رجل.

ذات صباح، قلت لها بالإشارة إنني أريد الانصراف، ففكرت ندى للحظة، ثم حملت إليّ ملابسى، وتقهقرت للخلف ثم فتحت باب الغرفة، وكان ذلك أمراً غريباً بالنسبة لي، لأنه حتى هذه اللحظة لم أكن قد رأيت منها سوى وجهها البيضاوى الصافى، والذى يشبه قناع من الذهب،

وحواجبها المقوسة، وعينيها المشابهتين لدمعتين من السبج⁽¹¹⁾، وشعرها الأسود الناعم اللامع. وعندما وقفت أمام الباب المفتوح، رأيت أنها ضخمة وبدينة؛ ومن المفترض أنها قرأت في عيني دهشتي، لأنها أشارت لى عن أرافها الكبيرة وهى تضحك.

ارتديت بنطالى الجينز الضيق وقميص قرمزي اللون، ثم وضعت على شعري القبعة السوداء والتي عليها ثبت قرط الهلال الآخر، ثم وضعت النظارة السوداء الشهيرة التي أعطاها لى بلا قبل أن نرحل، وكانت علامة على الحزن، ولكن ها أنا التي كانت مفقودة. أردت أن أترك شيئاً ما لندى، على سبيل الذكرى، فأعطيته كتابي عن فرانز فانون والذي وجدته فى قاع سلة مهملات، وكانت صفحاته مثنية الأطراف ومستهلكة وكأنها صفحات دعاية لمنهج ينقصها الصور التوضيحية، ولكن هذا الكتاب كان أنفث شئى معى.

عندما عانقت ندى شافز، أعطتنى بعض الدولارات من أوراق مستديرة موضوعة فى مشبك كما فعلت حورية فى السابق عندما رحلنا من تبريكة. هبطت السلم ومررت أمام مكتب الحارس متخذة طريقى بشكل مستقيم تماماً دون أن ألتفت إلى أى شئ.

(11) مادة قيرية تلتهب كالفحم الحجرى وتستخدم الكلمة فى وصف العيون للدلالة على شدة

سوادها. (المترجم)

ظللت لوقت طويل لا أخرج إلا ورأسي يدور، وساقاي يبأبيان السير،
وكننت أخفقت فى العودة، وكننت أسمع وقع أقدامى على الرصيف، وصوت
الدم فى شرايينى، وصوت الهواء فى رئتى، ومع ذلك، لم أكن أسمع شيئاً
آخر.



عشيرة هلال

ظلمت أسير لمدة أيام، حتى نهاية الشوارع، حتى البحر، حتى نهاية الدنيا، حتى الموت، وكنت أنسل وسط الناس، بين السيارات، مهرولة في الغالب، كنت أكثر سرعة من الآخرين، فليس هناك من شئ يمكنه إيقافى، فلقد تعلمت الجرى منذ وقت بعيد عندما خرجت من فناء لالا أسماء. تعلمت أن أتحاشى الشراك والأخطار وشرطة زهرة، فكنت أترصد بطرف عينى، ثم أندفع، وأكون فى توازن كالبهلوان على الخط الأوسط من قارعة الطريق. الشاحنات تلامسنى، والأتوبيسات والعربات المعدنية يصدم هوائها وجهى، وأشم رائحة عجالاتها العشر التى عندما تسير تحدث ثرى دقيقاً أسوداً.

السير عكس سير السيارات، أمر تعلمته بالغريزة، فإذا ما مشيت أنت فى اتجاه السيارات فلن تراها وهى قادمة، وتكون آنذاك فريسة أو

ظللت لوقت طويل لا أخرج إلا ورأسى يدور، وساقاي يأبيان السير،
وكننت أخفقت فى العودة، وكننت أسمع وقع أقدامى على الرصيف، وصوت
الدم فى شرايينى، وصوت الهواء فى رئتى، ومع ذلك، لم أكن أسمع شيئاً
آخر.



عشيرة هلال

ظلمت أسير لمدة أيام، حتى نهاية الشوارع، حتى البحر، حتى نهاية الدنيا، حتى الموت، وكنت أنسل وسط الناس، بين السيارات، مهرولة في الغالب، كنت أكثر سرعة من الآخرين، فليس هناك من شيء يمكنه إيقافى، فلقد تعلمت الجرى منذ وقت بعيد عندما خرجت من فناء لالا أسماء. تعلمت أن أتحاشى الشراك والأخطار وشرطة زهرة، فكنت أترصد بطرف عينى، ثم أندفع، وأكون فى توازن كالبهلوان على الخط الأوسط من قارعة الطريق. الشاحنات تلامسنى، والأتوبيسات والعربات المعدنية يصدم هوائها وجهى، وأشتم رائحة عجالاتها العشر التى عندما تسير تحدث ثرى دقيقتاً أسوداً.

السير عكس سير السيارات، أمر تعلمته بالغريزة، فإذا ما مشيت أنت فى اتجاه السيارات فلن تراها وهى قادمة، وتكون آنذاك فريسة أو

ضحية، ثم تُهدأ السيارات من سرعتها وتتسحب على طول الرصيف، وأعطيتها الطويلة براقه، وزجاجها مصبوغ، وهنا تفتح أبوابها، وتجد أيدى تسعى للإمساك بك وتضعك فى السيارة.

على النقيض من ذلك، إذا سرتَ عكس سير السيارات - وهو أمر ينعكف على جنون منك - فأصحاب السيارات هم الذين يخافون منك، فى مقاعد قيادتهم، خلف زجاجهم، فيتباعدون عنك، ويتركونك فى هدوء، ويديرون آلات التنبيه بكل تأكيد، ويطلقون صيحات ذئاب. ولكنك فى الحالة الأخيرة، ترى الشمس فى وجهك عند الغروب، وتحرق الشمس صدرك وشعرك ولا تسمع شيئاً.

أفكر فى ندى شافيز، أميرتى بفندق سان برناردينو، والجميلة جداً فى أردافها العريضة وطالعها الهندى وعينيها التى كنت أستطيع أن أقرأ فى تياراتها المنزلة على سطح مائها، ويدها الطرية من ندى الصباح ؛ وهى الوحيدة التى لم تطرح على أسئلة، ولم تنصب لى شراكاً، وعندما كانت تأتينى فى كل صباح، كانت تجلس على المقعد البلاستيكى الموضوع على رأس الفراش، وكانت تمد يدها حتى أضع فيها حفنة من الأوراق بها حبوب ببيضاء وحمراء كانت تجعل المجانين ينامون ؛ وكانت تضغط بيدها على جبينى، فتعطبنى قوتها. ويوما ما، عرفت أننى مهيئة، ففتحت لى الباب حتى أنصرف.

لكى آكل، أو أكون فى الظل أو فى محمى من مطر الصباح الخفيف، كنت أدخل المراكز التجارية الكبرى. وللذهاب من محطة الجريهوندرز فى

المنطقة السابعة والمادا إلى سانتا مونيكا، كنت أستقل الأتوبيس لمدة ساعة أو كنت أقطع المسافة في نصف نهار سيراً على الأقدام، وعندما كنت أذهب هناك، أصبح في مجالى، فكنت أختفى وسط الحشود، وأتتبع الممرات، ثم أعبّر الميادين الصغيرة والساحات، وأهبط السلالم المتحركة، وأصعد فى المصاعد الكهربائية الشفافة، وكنت أذهب إلى أى مكان حتى إلى الأدوار تحت الأرضية، وإلى الأماكن التى تقف فيها السيارات. كنت حاذقة، فلم أكن أذهب إلى مكان بالصدفة، وكنت أعرف أى زاوية أو أى ممر. وكان المشهد مشابهاً للمشهد الذى كنت أراه فى السابق من سطح شارع جافلو، ولكن هنا المساحة كانت شاسعة كالجزيرة، وشاسعة كقارة.

أعرف الأسماء والأوجه ورسومات واجهات المتاجر ؛ وعرفت الحراس، وهم أيضاً عرفونى. أظن أنهم كانوا يروننى على شاشتهم المتلفة ثم يعلنون الخبر: "هناك صبية غريبة، سوداء البشرة، ترتدى قميصاً أحمرأ وتضع قبعة سوداء، وهناك شئ على قبعتها، نجمة أو رسم قمر... لا تبعد نظرك عنها" ؛ فكنت أراقب، وكانت هناك ظلال خلفى تقتفى أثرى، كالذئاب فى غابات كندا، وكأسماك القرش فى خليج كوباكابانا، فكنت أجرهم خلفى، وأعلم بالضبط أين هم، وماذا يفعلون ؛ وكان يوسعى أن أضللهم متى شئت، ولكننى كنت أمزح بوجودهم خلفى وأنهم يتناوبون علىى ويتتبعوننى بعيونهم. وفى لحظة ما، كنت أظاهر بأننى أختبئ، ثم أختار الكثير من البذل الكشمير التى كنت أضعها على قميصى الأحمر، ثم أتردد،

وألمس الأنسجة، أشاهد بطاقات الأسعار ورأسى مائلة قليلاً كدجاجة تترصد، ثم أترك كل شئ وأرحل فى خطوات واسعة. وذات يوم، تم إيقافى وتفتيشى فى حجرة صغيرة على يد امرأة بدينة مخبولة، فلم تكن تعلم من تفتشها، ولم تكن تعرف أن لى عينان خلف رأسى، ومنذ أن فقدت السماع بأذنى الأخرى، وأنا أرى كل شئ من على بعد كيلومترات، ويمكننى أن ألح حركة حارس وهو يحك ما بين أفخاذة على الطرف الآخر من الصالة ؛ ولم أكن أذهب كى أسرق، لكى أمنحهم متعة متابعتى.

كنت أجرب الملابس، هذا كل ما فى الأمر، وهذا أسلوبى حتى أكون شخصاً آخر، بمعنى أن أكون أنا، وكنت أجرب تنورات قصيرة من الجلد الأسود ومن حرير الرايون، وأثواب من الأسترش الأبيض، وبناطيل ضيقة الأرجل من الجينز، وأقمصة رياضية وأقمصة من الحرير وكنز صوفية من ماركة تى. اليفجر ونوتيكا وأقمصة رياضية أكامها طويلة من ماركة جاب وار. لوران وسى. كلان وماركة لى وأقمصة بيضاء من ماركة ال. اسلى. وكنت أذهب إلى قسم ملابس الرجال، وأقتاس البذل، و الملابس الرياضية، والبذل الأوشكوش، والسترات الواقية من الرياح من ماركة ذا منز ستورات سيرزس؛ ثم أرتدى بنطالى الجينز الأسود، وقميصى القرمزى وقبعتى السوداء وأخرج. ما كنت أسعى إليه، هو انعكاسى فى المرايا، فلقد كان يخيفنى ويجذبنى. وكنت أقول لنفسى ها أنا بعينى، ولكننى لم أعد أنا، وكنت أدور حول نفسى، وأنظر إلى الألوان الصارخة والأنسجة اللامعة. عينائى لم تعد عينائى

بل أصبحت تشبه رسومات طويلة ومقوسة على هيئة ورقة كعيني ندى، وعلى هيئة شعلة كعيني سيمون، بى تشبه التجاعيد الصغيرة الضاحكة المشابهة لركن عيني تغادير العجوزة، أو الازرقاق الدائرى العميق فى عيني حورية عندما كانت طفلتها تُولد تحت الأرض.

كنت أريد أن أتحدث مع جسدى، فأمضى نحو المرأة، على طول ممر، كأميرة فى شرفتها، وأمشى، ثم ألتفت، أتوارك، وأشعر بالنظرات مصوبة إلى، وعدسات أجهزة التصوير غير المرئية. فى بعض الأحيان، كانت البائنات تتوقفن وتنظرن إلى، أو أطفال أو فتيات مراهقات، فذات مرة، أتت إلى إحداهن، وكان معها بطاقة صغيرة، وطلبت منى أن أكتب لها اسمى، كما لو كنت نجمة صغيرة من هوليوود، فكتبت لها: ندى مافوبا، وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها، طالعها جميل يشبه طالع قط صغير، وعيونها كانت كبيرة بنية فى شكل اللوز، وشعرها على هيئة ذيل الحصان، وكانت ترتدى بنظلاً من الجينز فضفاض جداً على جسدها، مستهلك من على الركبتين، وجعلتها تكتب لى اسمها على ورقة من مفكرتها: أنا.

وحتى آكل، كنت أشتري شواطر اقتصادية، وفى بعض الأحيان، كنت أذهب إلى المطاعم على طريق ويلشير هاليفكس وطريق لاسينجا، وكنت أفر قبل تقديم الحلوى ؛ وكان هناك رجال يدعوننى، فكانوا يتعقبوننى فى المراكز التجارية وأقتادهم حتى المقاهى، وكانوا يجلسون معى على المنضدة، وكنت أبتسم لهم وأعرف أننى لن أدفع شيئاً، وعندما يكتشفون أننى صماء،

كانوا يخافون، أو يصبحون أشراراً معي، وكنت أكل وأشرب، وقبل أن يلحظون ذلك الأمر، أكون في الشارع، فأعبره مهرولة، متخذة الاتجاهات المفردة. وذات مرة، كان هناك رجل لم يسدد الحساب للمقهى، ودار ودار بالسيارة حتى عثر على، كان فارغ الطول، وسيم، حسن الملبس، ولكنه كان كالكلب، فلقد جرى نحوى ولكمنى بيده فجعلنى أدور على الأرض فى نظارتى السوداء وحقيبتى التى تناثرت، ولم يساعدنى أى شخص على النهوض من على الأرض، وعلى الأرجح أنهم كانوا يقولون فى أذهانهم: "هاك، عاهرة تُصوب".

قبل مجئ الظلام، كنت أستقل الأتوبيس حتى الحى السابع، وكنت أمر من أمام السائق دون أن ألقى بطاقتى، وفى بعض الأحيان، كانوا لا يقولون شيئاً، وعندما كانوا يأخذون فى الغضب، كنت أقوم بحركة تدل على أننى لا أسمع وألوذ بنفسى. ملجأ الليل كان عبارة عن مبنى كبير طوبى بجوار الاميدا، وكان هناك دوماً طابور من الناس الذين ينتظرون، معظمهم مثلى، جلدهم داكن وشعرهم أسود. وفى الساعة السادسة، كانت تُوزع القهوة والشطائر، وكان عنبر السيدات من الخلف، فى منتصف مربع عش مُصفر، مُزين بنباتات اليُكة⁽¹⁾ فى واجهة السماء البنفسجية، وكانت هناك صالة استحمام مبنية بالأسمنت المطفى باللون الرمادى، حيث تغتسل السيدات فى مجموعات، ولم يكن هناك من أحد ينظر إلى الآخر. ولكننى كنت ألح

(1) نباتات للزينة من الفصيلة الزنبقية. (المترجم)

ظهورهن النهكة، أذهابهن، وجلدهن الأصفر والأشهب والأسمر المحمر، ويطونهن المحاكة من الجروح البنفسجية، وسيقانهن المصابة بالدوالى. وهكذا كنت لا أفكر فى شئ، ولم يكن لى وجود إلا بالعين، ثم كنت أتدحرج أسفل الماء الساخن الذى يلدغ فمى حيث لكمنى الشاب. كنت لا أنام، أو أنام وعيونى منفرجة.

أنقذتنى الموسيقى، فلقد رأيت بيانو رائع، لونه أسود فى بييفرلى، وفى كل مرة كنت أمر من أمامه، لم يكن فى استطاعتى أن أحيل نظرى عنه. وذات يوم من بعض الظهيرة، لم يكن هناك أناس كثير، فلقد تبدل الرجل الذى كان يحرس البيانو بشاب أشقر البشرة، يضع نظارة، ذقنه صغير جداً، وكان يشبه جان فيلان، وكان يطالع كتاباً وهو جالس على المقعد.

اقتربت من البيانو، ولمست خشبه الأسود، ولوحة مفاتيحه العاجية، ثم نظرت إلى الحارس، كان منهمكاً فى القراءة، دون أن يعبئنى انتباهها. فكرت: ربما كان أصم أيضاً مثلى ؟

جلست على المقعد، ثم شرعت فى العزف، وأظن أننى نسيت العزف فى البداية، فلقد كانت أناملى تقف على المفاتيح، وكنت أسمى لإيجاد الصوت فى ذهنى، وكنت أدندن وأتمتم، وكنت أميل برأسى إلى جانب حتى أسمع الأصوات كما كانت تفعل سيمون عندما كانت تعلمنى. ثم فجأة، بدأت أسترجع. كانت أناملى تهوول على لوحة المفاتيح، كنت أجد الإيقاع والألحان، وأعيد تشكيل اللحن، وكنت أعزف لبيللى، وأعزف لجيمى

هندريكس مقطوعات منفصلة وهاوية، وأعزف كل ما كان يأتى فى ذهنى دون نسق ودون أن أتوقف، وكنت أرتجل كما كنت أفعل فى شيكاغو، وكما كنت أفعل فى منزل لابييت أوكارى، وكنت أعود للوراء، وأستعيد اللحن، وكنت لا أشعر بنفسى، وكانت الأصوات تنبثق خارج سمعى، من فمى، من يدى، من جوفى. لم أكن أرى شيئاً، كانت روحى فى علبة البيانو، وفمى متثائب، وبطنى ترن، وحلقى، وحتى ساقى، كما لو كنت أسير فى خارج المنزل تحت أشعة الشمس، وكما لو كنت أهرول.

الآن أنصت الموسيقى، ليس بأذنى، ولكن بكل جسدى، رعشة تغلفنى، تتدحرج على جلدى، تؤلمنى حتى فى أعصابى، حتى فى عظامى. الأصوات المتعذر سماعها تصعد فى أناملى، تختلط بدمى، بنفسى، بالعرق الذى يسيل على وجهى وفى ظهرى.

اقترب منى الحارس الشاب، ووقف منتصباً، منكشاً قليلاً، ولم يكن بوسعى رؤية وجهه، ولكننى رأيت أن كثيراً من الناس كانوا يقفون فى الصالة، فى مدخل المتجر، وكان هناك أطفال جالسون على الأرض، وأزواج متشابكون، وشيوخ فى ملابس رياضية يتذوقون مشروبهم. وفى لحظة ما، رأيت الفتاة الشابة التى كانت قد طلبت منى أن أكتب لها اسمى فى مفكرتها الشخصية، أنا، كانت فى داخل المتجر، جالسة على درجة سلم الحاجز، كما فعلت أنا المرة الأولى التى سمعت فيها سارا، فى فندق الكونكوردي بمدينة نيبس.

من أجلهم وأجلها، كنت أعزف، فلقد عثرت على موسيقاى، ودق الطبول الصامتة فى محطة ريومير - سيبستوبول، ومحطة توليباك، ومحطة اوسترليتز، وصوت سيمون الذى كان ينشد سفر العودة نحو ساحل أفريقيا، وصفارات رجال الشرطة وضربات العصا التى كانت تقرق السيدور، فى شارع روبنسون فى شيكاغو. لم يكن الأمر بالنسبة لى أن أعزف الموسيقى من اجلى أنا فى هذه اللحظة، فلقد أدركت أننى أعزف من أجلهم جميعاً، هؤلاء الذين كانوا يصطحبوننى: أناس أسفل الأرض، سكان كهوف شارع جافلو، المهاجرين الذين كانوا معى على ظهر الزورق، على طريق فال دى الران، وأبعد من ذلك أيضاً: الناس فى سويقة دوار تبريكة الذين كانوا ينتظرون عند مصب النهر، الذين كانوا يشاهدون بشكل لامتناهى خط الأفق كما لو كان شئ ما سيبدل حياتهم، ول هؤلاء جميعاً. وفجأة، فكرت فى جنينى الذى أخذته الحُمى، ومن اجله هو أيضاً كنت أعزف حتى تلقاه موسيقاى فى المكان السرى الذى هو موجود فيه.

أسترنى الموسيقى، كنت أسمعها تمر على جلد وجهى كما يشعر الكفيف بخشخشة الشمس وخرخرة البحر الهادئة ؛ شعرت بالدموع تفيض من عيني ؛ وكانت هذه هى المرة الأولى منذ زمن بعيد، منذ أن تجمد الحاج مافوبا بمفرده فى فراشه فى إيفرى - كوركورون.

كان يوسعى أن أعزف كذلك حتى نهاية حياتى، شعرت بأيدى الحراس التى كانت تنهضنى برفق، فمددت يدي ثانية نحو لوحة المفاتيح،

ولكن فجأة، لم يكن هناك شئ إلا الصمت ؛ وببطئ شديد كالطواف، حملني الحراس على طول الصالة، وكان الناس على الجانبين يصفقون فى صمت، وسارت الشابة أنا خلال لحظة بجوارى، ولم تكن تصفق، ولم تكن تتحدث، مدت يدها نحوى فحسب، وكان وجهها كوجه القط الصغير على مقربة منى، وفى لحظة رأيت عينيها الممتدتين اللتان كانتا تلمعان من البكاء. وضعنى الحراس فى شاحنة صغيرة بيضاء، وفى مؤخرة الشاحنة، كان هناك رجل مسن يشبه السيد رشدى، أستاذ مكتبتى، وضمنى إليه كما لو كان يعرفنى، وكنت متعبة للغاية إلى حد أننى تركت نفسى، ووضعت رأسى على كتفه، وأظن كثيراً أننى نمت.

نهاية، الآن أنا فى مأمن، أجلس فى الجو المنعش فى حجرة صغيرة نظيفة يحميها بإحكام من الشمس توجهها نحو الشمال ؛ ولم تكن هناك من نافذة، فقط كوة باب مسيجة فى أعلى الحائط الذى لا يرى منه سوى السماء الزرقاء فى هذه الآونة . وبجوار الفراش، كان هناك مقعد بلاستيكى ومنضدة ليلية تخفى حوضاً، وفى أحد الأدراج، أضع الحقيبة السوداء التى رحلت بها من سان بيرناردينو، تضم كل أشياءى، النظارة السوداء وقبعتى التى شبكت فيها قرطى الهلالى الأخير.

فى كل صباح، كان يعودنى الأستاذ، ولم أكن أعرف إن كان بحق أستاذ، ولكننى أسميه كذلك كذكرى للسيد رشدى العطوف الذى كان يذهب إلى المكتبة التى كنت أرتادها بالقرب من المتحف، وأسليه بأسلوبى فى

الضحك بالإنجليزية والفرنسية والأسبانية. لم يكن يتكلم، بل كان يطرح على أسئلة مدونا إياها على أوراق كبيرة الحجم ينزعها من مفكرة، وكان يكتب بنوع من العصبية بأحرف كبيرة مثل: "حالتك النفسية؟ طبقك المسكر المفضل؟"، ولكنه كان يود كثيراً أن يعرف من أين أتيت، ماذا حدث لي، عائلتي، واسم الرجل الذي جعلني حُبلى.

عندما كان يطرح على أسئلة حول أسرتي، كنت أقول كلمات يقرئها بانتباه، وكأنها لغز: ندى، سارا، أنا، ماجدة، مالكة. وكان يظن أنني مكسيكية أو هايتية، ربما غينية.

جائتني شافز اليوم للمرة الأولى، ولا أعرف كيف عثرت على مكانى، فربما دلتها بطاقات المستشفى، أو لربما قرأت فى الصحيفة الإقليمية مقالاً مع صورتى فى عنوان جذاب: "هل تعرفونها؟"

لم تكن ترتدى ذى الممرضة، ولكنها كانت ترتدى بنطالاً فضفاضاً وقميصاً مُشجراً يشبه قميص امرأة حُبلى وكأنها تعاضدنى، أتصور ذلك. تعانقنا كما لو كنا صديقتين بيننا صداقة قديمة، ثم جلست على المقعد وجلست أنا على الفراش، وتحدثنا وضحكنا كثيراً، ثم خرجت بى إلى الحديقة. وفى هذا المكان، الذى لا يشبه سان برناردينو، نحن فى مونت زيون، فى بيفرلى، وهناك نخيل وأوراق فى كل مكان، عشب شديدة الخضرة، ونقود؛ ليس هناك أسوار ولا حراس، وبوسعى أن أسير وأرحل، وربما لهذا السبب بقيت فى هذا المكان.

كل صباح، كانت شافز تأتي إلى هنا مع الأستاذ، وعلى الأرجح أنها طلبت أجازة حتى تتغيب عن عملها، أو لربما أنا عملها، وكنا نصعد في سيارة الأستاذ، أو نتجول في الشوارع بالمصادفة؛ وكان يطرح على أسئلة، ويدونها دوماً في مفكرته، فيود أن يعرف من أنا وماذا فعلت وأين تعلمت العزف على البيانو. عدنا معاً إلى المركز التجارى أمام البيانو، ولكن لم يوحى ذلك لى شئ، فلقد تبدل الحارس، ولم يعد هناك الشاب الذى كنت أحبه كثيراً، وكان البيانو ضخماً، يقف بمفرده وسط المتجر، كآلة جهنمية. حينئذ، حملتهما إلى إحدى المكتبات لى نشتري مجلات موضة، وتصفحنا كتباً بالصدفة؛ وفجأة، تعرفت على صورة الأستاذ على غلاف كتاب فلسفة، وكان عنوان الكتاب "هيبنوس وتانتوس"، شئ من هذا القبيل، وكان مكتوباً أسفل العنوان، أدوار كلان، وكنت سعيدة لمعرفة اسمه، فبدأ متضايقاً لحد ما، ولكنه كان سعيداً أيضاً، وكانت له ابتسامة صغيرة، وكانت لديه الرغبة فى أن يقول: "نعم، ها أنا ذا"، وبعد ذلك أعطانى كتابه مدوناً عليه إهداء: "إلى عزيزتى المجهولة".

و ذات يوم من بعد الظهر، فُتح باب غرفتى فى زيون فرأيت مستر لروا؛ ومع ذلك، لم يدهشنى هذا الأمر، فلقد بلغت نقطة حيث كل شئ يصبح فى آن واحد عادياً بشكل غريب وبدون سبب على الإطلاق.

وكما إن لكل شئ تفسير، أقول إنها ندى شافز هى التى دلته على، ففى كتابى "المعذبون فى الأرض"، كنت قد نسيت نسخة من عقدى مع كانال،

فهمت إلى شيكاغو ثم جاء مستر لروا فى الطائرة التالية، وهو يحمل إلى دعوة لمهرجان الجاز بمدينة نيس، وسيرى فى هذا المهرجان كل شئ، حتى صماء تعزف على البيانو. وبنفس الاندفاع الصادق والأخرق، طلبت شافيز من المعلومات رقم هاتف جان فيلان، وسبب ذلك بلا شك حكاية مع انجيلينا، لأنه وصل فى اليوم التالى، وكان من الجائز أن يترك الطبيبة الليتوانية، والله شهيد على أننى لم أسأل أحدا شيئا.

عدت باسم آخر ووجه آخر، ومنذ زمن بعيد وأنا أنتظر قدوم هذه اللحظة، إنه الانتقام، فلقد أعددت له كل شئ حتى يتم، وربما فعلت ذلك دون أن أنتبه، وكانت سيمون التى كانت على علم بهذا الأمر، تقول دوما إنه ليس هناك شئ يحدث بالصدفة.

فى مدينة نيس، حجزت لى لجنة تنظيم المهرجان غرفة فى فندق على شاطئ البحر حيث كان هناك تمثال المرأة البرونزية التى تسعى إلى الفرار من الحوائط التى تحطمها، وكان البيانو لا يزال هناك على المنصة، وكان هناك صوت ينشد على نغمة موسيقى ببلى هوليدى على الأرجح. وحين جاء الليل، غنيت أنا أيضا أغنيتى من فوق المنصة. كنت أسير فى شوارع نيس فى الجو الخانق اللامعقول، أسفل سماء شهباء رصاصية اللون، كما لو كان فى استطاعتى أن أتعرف على شئ ما. كان الشاطئ الكبير الملىء بالحصى أسودا من الناس، وكانت الشوارع مزدحمة بالسيارات، وفى كل مكان فى المدينة، كان هناك حشد منهمك ومتوقف.

ومن المكان الذى كنت أدلف مع جيانيكو فيه، استقليت أتوبيسا على طول السيل الجاف حتى أعمدة الطريق السريع، ثم بحثت عن مدخل المعسكر. كان يبدو على أننى غدوت شخصا آخر لأننى ما إن عبرت بوابة المعسكر بين الأسلاك الشائكة، حتى سد طريقى رجل بشاحنته الصغيرة، ونظر إلى نظرة استغراب وخبث، وعندما لفظت أسم رامون يرسى، سخر منى وقال للآخرين شئ لم أفهمه، اسم لفظه بتشوه: "روسو، روسو"، ثم جاء رجل آخر طويل وأنيق على الرغم من ملابسه المستهلكة، له شارب صغير، أشار لى أنه ليس هناك أحد وأن كل الناس رحلوا، ثم اصطحبنى إلى مدخل المعسكر.

حاولت أن أهتف إلى جان كى أقول له أن يأتى على الفور، كى أحدثه فى أمر طفل ننجبه منذ عودتى، ولكن بسبب فارق التوقيت، لم أتمكن من الحديث إلا لآلة الرد التليفونى، ولم أعرف ماذا أقول له، فقلت أننى سأهتف إليه ثانية. كنت أتقيا، وكان هناك ألم يلم بخاصرى، فتذكرت حورية، عندما كانت تسير فى الجبل والجنين فى بطنها، فلماذا لم تكن لدى نفس الشجاعة فى حين أنه لم يعد فى بطنى شئ؟. فجأة، خنقتنى الموسيقى، كنت أريد الصمت فحسب، الشمس والصمت.

تركت رسالة للجنة تنظيم المهرجان، قلت فيها أننى لغيت كل شئ، وتركت الفندق بعد الظهر واستقليت قطارا ليليلاً إلى سيرير⁽²⁾، ثم إلى

(2) منطقة فرنسية فى جبال البرينيه الشرقية تقع على الحدود مع أسبانيا. (المترجم)

مدريد، ثم إلى الجزيرة⁽³⁾، وكان الوقت وقت الإجازات الصيفية، فكان هناك سياح في كل مكان، وكانت الفنادق ممتلئة. في الجزيرة، أمضيت يومين بمقر توقف سيارات كان كثير الأتربة، وكان يعج بالسيارات المتوقفة والأكواخ. نمت على الأرض، ملفوفة في غطاء، واقتسمت الماء والفانتا والخبز مع أسر مغربية. كان أطفال الأسرة يلعبون بين السيارات المتوقفة، وكانوا يرقصون على موسيقى مزياعهم التسجيلي. من آن إلى آخر، كان هناك حراس مدججين بالسلح يمشون من بعيد، على الجانب الآخر من ساحة الأسلاك الشائكة، وكانت الشمس تلمع في منتصف السماء البيضاء، ولكن الليل كان رقيقاً ومنعشاً. كنا نتحدث بالإشارة، كنا نحكي قصص، وكنا نحصى الساعات والأيام على نتيجة سنوية. في البداية، كان الأطفال يسخرون مني لأنني صماء، ثم تعودوا على ذلك؛ وبالنسبة لهم، كنت بمثابة لعبة وليس شئ آخر.

في الليلة الثالثة، رحلنا في ناقلة السيارات، ولم أكن أعرف لماذا مكثت في هذا المكان، وتتبع حركات الناس دون أن أفهم. لم أكن أسعى إلى ذكرياتي، ولا إلى رعدة الحنين إلى الوطن، ولم أكن أسعى إلى العودة إلى مسقط رأسي، فلم يكن لي مسقط رأس، ولا إلى الشاطئين، فشاطئ

(3) ميناء أسباني على مضيق جبل طارق عقد فيه مؤتمر دولي حول مسألة المغرب عام

الحالى، هو شاطئ البحيرة الكبيرة الزرقاء أسفل رياح كندا الباردة، بل على الأرجح كان ذلك الأمر خيطا يمتد حتى مركز جوفى ويشدنى نحو مكان لا أعرفه.

سافرت فى سيارة نحو الجنوب، وكانت هناك سائحات ألمانيات ترتدين الشورت، وسائحات فرنسيات تضعن قبعات فوق رؤوسهن، وسائحات أمريكيات تنتعلن أحذية التونجز، فلقد تقاطعت معهن فى الطريق، ثم سرن فى اتجاه آخر. وفى مراكش، استقبلت أتوبيسا نحو الجبل ورحلت السائحات نحو البحر، إلى أغادير، اساويرا، وإلى تننتن بلاج.

فى منطقة زين تشيكا، بينما كان سائق السيارة يرتشف النشأ، اشتريت من شلوح⁽⁴⁾ حجر أمونتى لجان، وبما أن الحجر كان ثقيلًا جدا لكى احملة فى حقيبتي، أعد لى الشلوح حقيبة ظهر من حقيبة صغيرة مصنوعة من زعف النخيل، فلقد كان قويا وضخما، بشرته حمراء كهنود أمريكا، وكان يرتدى معطفا كبيرا من النسيج المسح، وأبان لى عن بطاقة بريدية أرسلها له أخوه من أمريكا، من قرية فى الغابة فى ولاية واشنطن.

(4) الشلوح هو اسم قبائل بربرية فى جنوب المغرب. (المترجم)

هكذا وصلت إلى فوم - زقود⁽⁵⁾. وإلى الجنوب منها، كان هناك طريق يؤدي إلى تاتا⁽⁶⁾، وإلى الشمال كان هناك طريق آخر يؤدي إلى زاجورا⁽⁷⁾؛ وإلى الأمام، ليس هناك سوى المناطق التي حفرتها الشاحنات وأثر سير الماعز والإبل، وهناك الأرض الشاسعة الخشنة المكشوفة، والأبيرة الجافة، والأكوخ الطينية والحجرية التي تشبه أعشاش الزنوبر.

هكذا وصلت إلى هنا، لا أريد أن أمضي أبعد من ذلك، وكأنني وصلت إلى شاطئ بحر أو إلى شاطئ مصب دون نهاية.

تركت حقيبتي والحجر الأمونييتي في حجرة في القرية؛ وللمرة الأولى، أردت أن أطرح سؤالاً - أحتفظ به في فمي منذ زمن بعيد - على المرشد الذي اخترته في الفندق: "هل أختطف طفل هنا منذ خمس عشرة سنة؟"، لكنني لم أقل له شيئاً. على أية حال، كنت أعلم أنه لن تكون هناك إجابة. ومنذ أن عدت إلى هذا المكان، تحسنت أذني، ولكن هل سماع أصوات وكلمات للغة ما يعد أمراً كافياً للفهم؟

الناس هنا، الناس الذين أراهم، وأناس القرى الذين لم أراهم، يتبعون هذه الأرض بنفس الدرجة التي لم أتبع بها أنا أي مكان على الأرض؛

(5) منطقة مغربية. (المترجم)

(6) منطقة مغربية. (المترجم)

(7) منطقة مغربية. (المترجم)

فهم يحاربون، وتملك البعض أرضا لم تكن ملكا لهم، وحفروا الآبار فى الأماكن التى ليست ملكا لهم.

الناس هنا، أهل اساك، أهل نخيلة، أهل الوجوم، أهل ولد عيسى، أهل ولد هلال، ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟، يتقاتلون، وهناك الجرحى، والموتى. النساء تبكين، وهناك أطفال يختفون. هذه هى الحقيقة، فماذا بوسعنا أن نفعل؟

ها أنا مطمئنة هنا الآن، الضوء الذى يحدثه السميت ناصع البياض، والشارع متصحر للغاية، والضوء يجعل الأعين تزرف دمعاً، والرياح الحارقة تدرج الثرى على طول الحوايط؛ ولكى أقاوم الريح والضوء، اشتريت حيكاً⁽⁸⁾ أزرق مثل نساء هذه المنطقة، وغلفت جسدى تاركة فحسب فتحة لعينى. فى جوفى، يبدو لى أننى أشعر بالضربات الخفيفة لطفل سأنجبه وسيعيش، فمن اجله هو أيضاً أتيت إلى هنا فى نهاية الدنيا.

راح المرشد نفسه يتبعنى فى ذهابى وإيابى على طول الطريق المتصحر، وجلس على حجر فى ظل حائط ليدخن سيجارة إنجليزية وهو يراقبنى من بعيد. ليس من أهل ولد هلال، ولا أهل عيسى، ولا رجلاً ظالماً من أهل خيريوجا، بل هو فارع الطول للغاية، يبدو عليه كثيراً أنه قادم من المدينة، من مدينة زغورة، أو من مراکش، أو ربما من الدار البيضاء أيضاً.

(8) ثوب لونه أبيض عادة، أعتاد رداؤه الناس فى بلاد المغرب العربى. (المترجم)

بعيدا، فى نهاية الشارع، أمام المنزل الأخير حيث تبدأ بعده الصحراء، تجلس امرأة عجوز على مقعد، وترتدى اللون الأسود أمام باب فنائها الخالى، لاتخفى طالعتها بحجاب، فطالعتها أسود ومجعد يشبه جلد قديم محروق ؛ نظرت إلى وأنا قادمة إليها دون أن تغض البصر، نظرتها قاسية كالحجر، وتبدو أكبر عمرا وأقسى من الحجر الأمونيتى الذى ابتعته لجان، إنها هلالية حقيقة، من الناس الذين يشبهون هلال القمر.

جلست بجوار العجوز، كانت قصيرة جدا، نحيفة جدا، تصل بالكاد إلى كتفى، كالطفلة. كان الشارع خاويا تسلكه شمس الصحراء، وكانت شفاهى جافة ومتشققة، ومنذ قليل عندما مرت عليها راحة يدى، رأيت دم. كانت العجوز لا تتحدث معى، ولم تتحرك عندما جلست بجوارها، ونظرت إلى فقط بوجهها الجلدى الأسود، وكانت عيناها لامعتين وسائلتين وفتيتين جدا.

لست فى حاجة كى أذهب أبعد من ذلك. الآن، وصلت فى النهاية إلى نهاية رحلتى. أظلم هنا، وليس فى أى مكان آخر، هنا الشارع الأبيض المشابه للملح، الحوائط الساكنة، صرخة الغراب. هنا اختطفتم منذ خمسة عشرة عام، منذ الخلود، على يد شخص من عصابة خربوجا، وهى عدو لعشيرة هلال بسبب حكاية ماء، حكاية بئر وانتقام. عندما تلمس البحر، فإنك تلمس الشاطئ الآخر ؛ وهنا، عندما أضع يدى على تراب الصحراء، فأنى ألمس الأرض التى ولدت فيها كما ألمس يد أمى.

سيصل جان غدا، فلقد تلقيت تلغرافاً من فندق كازا، والآن أنا
 طليقة، وكل شئ يمكن أن يبدأ، مثل جدى الشهير بلال - وهو إحدى
 الشخصيات المعروفة - العبد الذى أعتقه النبى ودفعه إلى الدنيا. خرجت الآن
 من زمن البحث عن الأسرة، وأدخل الآن فى عصر الحب.
 قبل أن أنصرف، لمست يد العجوز الملساء القاسية وكأنها
 حجر التقط من قاع البحر، مرة واحدة فحسب، بحركة خفيفة حتى
 لا أنساها.



الفهرس

5	تصدير
13	الملاح
34	السوق القديم
59	حي المحيط
73	دوار تبريكة
100	باريس
143	28 شارع جافلو
219	نيس
247	بوستن
274	عشيرة هلال



المنيا - شاهين - 6 ش أحمد عرابي
المنيا - عدنان المالكى - 6 ش 15 - شقة 1
ت 086/354576 - 012/3454568
فاكس 086/346713

دار القيس للطباعة

ت: ٠٨٢٥٠٣٦٤ - ٣٦٨٥٦٢٨ - ٥٢٤٣٣١٤

سُمُكَةُ مِنْ ذَهَبٍ

التناص أو التعددية اللغوية مصطلح نقدي ، يعني تعدد الأصوات اللغوية بما يصاحبه من تعدد الأطروحات الحضارية وتباينها في نسيج العمل الأدبي الواحد ، وقد كانت هناك أكثر من محاولة في عصرنا الحديث لتحقيق تلك التعددية اللغوية في نصوص بعض أعظم أدباء العالم وأقدرهم علي فهم المحيط الأنساني والتعبير عن خصوصيته القومية ، غير ان ذلك المشروع التأسيسي قد شارف علي الاندثار من جراء تسييس القومية « ونمو الشعور المرضي بالعنصرية الشفوية »

وتعد رواية « سُمُكَةُ مِنْ ذَهَبٍ » من أهم الأعمال الأدبية التي تمثل ظاهرة التعددية اللغوية ، ذلك كان الباعث إلي إقدامنا علي تعريبها ، هذا إلي جانب اهتمامنا إلي القارئ العربي فعلي الرغم من مكانة « لكزير » في الأوساط الأدبية الغربية التي تعدّه أحد أهم أدباء فرنسا في القرن العشرين ، وبالرغم من اهتمامه بالثقافة الحضارة بلادنا ، لا نحسبه قد نال بعد حظه من التواصل مع القارئ العربي

